

مجلس وزراء دولة الكويت
مجلس العدل والوقاية
مجلس القضاء
مجلس الشورى

مجلة كلية الاداب والشريعة

العددان

20 19

1996-1995

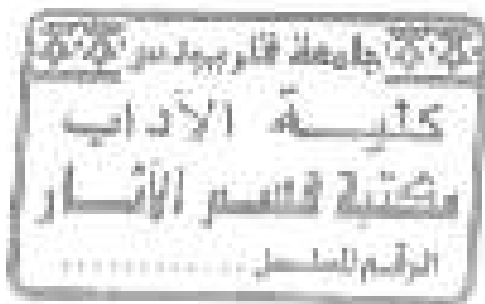
المكتبة مشيخة الدمام
بمكتبة جامعة القصيم
بمكتبة جامعة القصيم

مجلة كليلة الأديب والتربوي

العددان

20-19

1996-1995



منشورات كلية الآداب والتربية

جامعة قارمبوس - بنغازي

منشورات كلية الآداب والتربية

جامعة قارمقوش - بتغازي

مجلة كلية الآداب والتربية

أمين التحرير : د. محمد محمد بالروين

مهاة التحرير : د. محمد فرج دغوم

د. محمد المهدي الطرالي

د. نجيب المحجوب الحصارى

المراجعة اللغوية : أ. طاهر عمران الطير

الأشرف الفني : الأخ عبد الرحمن محمود الشريدي

العددان

20-19

1996-1995

مجلة كلية الآداب والتربية

مجلة علمية ثقافية تصدر سنوياً عن كلية الآداب والتربية بجامعة قار يونس، ولا تعبر الآراء التي تنشر بالمجلة إلا عن رأي أصحابها، ولا تقبل وجهات نظر غير التحرير لوكنتها. (تأسست سنة 1958).

تحتفظ الكلية بجميع حقوق الطبع ولا يسمح بإعادة طبعه إلا بإذن مدير

جميع المراسلات وعود التحريز ترسل لي لتعنوان لتلكي :

مجلة كلية الآداب

كلية الآداب والتربية - جامعة قار يونس

بنغازي - فاكس رقم 061

شروط نشر المقالات والبحوث والدراسات في مجلة كلية الآداب والدراسات

أولاً: تهدف المجلة إلى نشر الأنماط التالية من البحوث والمقالات:

- (أ) بحث أو مقال يعتمد أساساً على دراسة ميدانية أو ثقافية لم يسبق استخدامها من قبل، أو دراسة قائمة على استكمال وثائق أو محطومات سبق استعمالها شريطة أن يتناولها الباحث بطريقة مغايرة تنجم عنها نتائج جديدة.
- (ب) بحث أو مقالة يعتمد على اقتراحات نظرية على أن تكون دراسة رائدة لم يسبق نشرها.

(ج) إن الفرق بين البحث والمقال لدى مجلة كلية الآداب والدراسات ينحصر في تقييم هيئة التحرير للعناصر الأساسية الواردة في كل بحث أو مقال:

أولاً: الأصالة في البحث

ثانياً: نوعية المصادر التي اعتمد عليها الكاتب في حالة استخدام أية مصادر.

ثالثاً: حجم الدراسة ومدى الجهد الذي بذل فيها.

رابعاً: نطلب هيئة التحرير من صاحب المقدم المقدمة للنشر ما يلي:

- 1- يجب أن يكتب عنوان البحث أو المقال على صفحة منفردة بوضوح - بالإضافة إلى اسم الكاتب وعنوانه للدراسة وبعض المعلومات الأساسية الأخرى تمكن العمل والبحوث التي قدم نشرها

2 - أن يكون للبحث أو المقال مقدمة تقار فيها المشكلة المعاتلة بوضوح وأن تطرح الإجابة في متن البحث أو المقال بأسلوب منطقي ملمس، ومن ثم الوصول إلى نتيجة للقضية أو المسائل المطروحة.

3 - المجلة لا تشر أي بحث أو مقال سبق نشره.

4 - يمكن نشر بحث أو مقال يعتمد كاتبه على مصادر ثانوية إذا ما جرد بفكرة جديدة لم يسبق طرحها أو نشرها.

5 - فيما يختص استعمال المصادر فإن سياسة هيئة تحرير المجلة تلزم المؤلف بأن يعطي الاقتباسات والتعليقات أرقاماً متسلسلة في المتن وتلحن هوامش كل صفحة بأخرها ويكتب المؤلف الذي اقتبس منه ثلاثياً وعنون المصدر والجزء إن وجد، ومكان النشر والسنة وتاريخ النشر والصفحة أو الصفحات التي اقتبس منها.

6 - يرفق بكل بحث أو مقال مقدم للنشر ملخص قصير في حدود العائذ كلمة يبين فيه الكاتب الفرض من الدراسة وتحديد أبعاد المشكلة المطروحة بما في ذلك ذكر بعض الشيء عن طبيعة البيانات المستعملة وطريقة تحليلها وينبغي أن يشير هذا الملخص إلى النتائج العامة التي توصل إليها الكاتب.

7 - من سياسة مجلة كلية الآداب والشريعة أن تحال المادة المقدمة للنشر إلى قارئين تحدد أقصى لتقييمها وإذا ما نالت استحسان المقيمين فإنها تعاد إلى الكاتب لإبداء الرأي وإجراء التعديلات النهائية إذا تطلب الأمر ذلك قبل النشر.

8 - لهيئة التحرير الحق في عدم نشر أية بحث أو مقال أو دراسة تتعارض مع هذه الشروط دون إبداء الأسباب.

محتويات العدد

11	د/ جعفر الشكرهني	1 - العزوخ والمحكم الأعلاني
43	د/ أحمد خالد بنحيث	2 - تعليم الرياضيات على مشارف القرن الحادي والعشرين بعض المعوقات وإستراتيجيات تجاوزها
77	د/ فصيحة أحمد الهوام	3 - التلوث البيئي وتأثيراته المختلفة على المدن
125	د/ علام الدين أحمد حسون	4 - الترجمة الأدبية
147	د/ هادي عطية نظري	5 - أسلمحمدان الشعر واستجابته عند الهدائي في شرح القصيدة الياضفة
171	د/ إبراهيم موسى محمد	6 - المضامين الحضارية والبيئية
235	أ/ خالد محمد الهدار	7 - خطوط رومانية من توخيلاً
273	د/ إبراهيم المهدي	8 - علاقة المؤلف بالنظر
287	د/ محمد الغزالي	9 - نظرية فن القول عند حازم القرطاجني
307	د/ محمد طرج دهم	10 - عرض لكتاب

المؤرخ والحكم الأخلاقي

بقلم

د. جعفر الشكرجي

لمنّاد مشارك

في

قسم علم التفسير

كلية الآداب والتربية

جامعة قارابونس

بنغازي

المؤرخ والحكم الأخلاقي

بقلم: د. جعفر الشكرجي

هل يجوز للمؤرخ أن يصدر أحكاماً أخلاقية على الشخصيات والمؤسسات والحوادث التاريخية؟ يحكم على هذا الرجل من رجال التاريخ بأنه كان فاضلاً والآخر كان شراً، أو يصف هذه المؤسسة الاجتماعية بأنها جاءت بالخير والآخرى كانت وبالاً على الناس، أو يرى أن هذا الحدث كانت نتيجته حسنة والآخر لم يجلب سوى الشقاء؟ أم يكفي فقط بوصف الأعمال التي قام بها الإنسان في الماضي.

هذه المسألة لها تاريخ طويل، ففي مرحلة نشأة التاريخ بوصفه بحثاً علمياً عند اليونان لا نلاحظ أنها انخرطت في قضايا الأحكام الأخلاقية، ولكن النزعة إلى إصدار مثل هذه الأحكام بدأت عند المؤرخين الرومان وسيطرت بشكل عام على الكتابات التاريخية في العصور التالية حتى ظهور ما يسمى بالتاريخ العلمي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث تبلورت بوصفها مشكلة محددة بالصورة التي ذكرت أعلاه.

وقد اشترك في مناقشتها منذ ذلك الحين عدد كبير من الفلاسفة والمؤرخين، ففريق أجاز للمؤرخ إصدار الأحكام الأخلاقية بحكم الواجب أو بحكم طبيعة مائة بحثه، وفريق آخر أنكر عليه ذلك، لأن ذلك خروج عن

مهمة الجوهرية. ولكن من الفريقين حججه، التي تختلف درجاتها قوة وضعفاً. ونحن سنحاول، بعد العرض التاريخي الموجز للمشكلة، أن نعرف على هند الحجج وذلك بإلقاء الضوء عليها وتحليلها تقديراً، بغض إيراد ما نعتقد وما نراه صحيحاً من الآراء.

(1)

لم تفتقر مشكلة الحكم أجرام المؤرخين الأوائل. فالمؤرخان اليونانيان هرودوت Herodotus (485 - 425 ق. م.) وليوسيدديس Thucydides (460 - 400 ق. م.) تحروا بشكل كبير الشبهة من الحافز للحكم، ولكن خلفاءهم في العالم القديم سلموا بأن مهمتهم أن يقوموا بالتهذيب والتقييم والحكم. فقد طلب المؤرخ الروماني ليفي ليفي (59 ق. م. - 17 للميلاد) من قرائه أن يتأملوا البروس الأخلاقية المستخلصة من تاريخ روما - كما حرص هو - وكيف أن فضائلها أنضت بها إلى ما أحرزته من صنوف النجاح، وأن رذائلها عادت عليها بالكوارث¹¹. أما المؤرخ الروماني الآخر تاسيتوس Tacitus (54 - 120 م.) فقد كان مؤرخاً خلفياً بين الناس نتائج الحقيق في التاريخ وهو يذهب في سيرته¹²، ورأى أن أهم ما يجب على المؤلف هو أن يحكم على أعمال الناس حتى ينادى الصيب من هذه الأعمال ثواب العظيمة، وحتى يكون ما توجيه محكمة الخلف إلى أعمال سوء من ضم وتفرغ سائلاً بين المواطنين وبين سيء الأعمال¹³.

وما من مؤرخ إسلامي أقدم لكتابه بتحديد هدف التاريخ إلا بالتركيز على أن في التاريخ عبرة ووعظة¹⁴. وعرف المؤرخون المسيحيون في العصور الوسطى تسمياً المقاييس التي ينبغي على التاريخ أن يتلاءم معها، وعرفوا أيضاً العقاب الذي يتبع من عدم الامتثال، ذلك أن التاريخ كان عندهم ما هو إلا تحقيق إرادة الله مع الإنسان. وحتى المؤرخون العظام في العصور الحديثة مثل إدوارد جيبون Edward Gibbon (1737 - 1794)

و دايفيد هيوم David Hume (1711 - 1776) وفولتير Voltaire (1694 - 1778) قبلوا القول المأثور بأن التاريخ فلسفة تعلم من طريق ضرب الأمثلة، وافترضوا أن دروسه أخلاقية وأن من واجب المؤرخ الإشارة إليها. ¹ ولم تأت مسألة الحكم الأخلاقي ومدى شرعيته إلى المقدمة إلا مع نشأة المنصب التاريخي Historicism في القرن التاسع عشر. فقد تجنّب المؤرخ الألماني لوبولد فون رانكه Leopold Van Ranke (1795 - 1886) وحلفائه وتلاميذه الحكم الأخلاقي وقتلوا إتهم كرسوا أنفسهم لجمعة التسجيل البسيط لما حدث مع أدنى حدّ من التعليق؛ وبشون العناصر بالموافقة أو عدم الموافقة.

لأنّ كان هناك ردّ فعل ضد هذه المبدأ الصارم فيما بعد في هذا القرن؛ وكانت هناك عودة إلى إمداد الأحكام على التاريخ. ومن الصعب معرفة فينن إذا كان هؤلاء المؤرخون أمثال: جون ميشيه Jules Michelet (1798 - 1874) في فرنسا، أو جيمس فراود James Fraude (1818 - 1894) في بريطانيا، أو هينرخ فون ترايتشكه Heinrich Von Treitschke (1834 - 1896) في ألمانيا، أو جون موتلي John Motley (1814 - 1877) في أمريكا؛ يعدون أنفسهم بشكل رئيسي قادة في الأخلاق أو علماء تاريخ، وفي الحقيقة أنّهم لم يفرقوا بصراحة بين النوعين.⁽²⁾

(2)

وفقاً لرأي المؤرخ الأمريكي موتلي، مؤرخ كفاح الهولنديين البطولي ضد الحكام الإسبان وإنشاء هولندا المتحدة، كانت هذه قصة كفاح البروتستانتية ضد الكاثوليكية، وقصة كفاح مبدأ الحرية ضد مبدأ الطغيان. ولم يتردد موتلي أن يعلن أحكاماً أخلاقية، نستمتع إلى حكمه النهائي على فيليب الثاني Philip II ملك إسبانيا (1527 - 1598):

هناك قلة من الرجال المعروفين للتاريخ استطاعوا أن ينجزوا بجهدهم
 قدرًا هاملاً من الشر كالمملك الذي مات 1598 م. إذ لو كان فيليب نصيباً
 واحدة لما عثر عليها باحث هذه الدراسة. إذا كان ثمة ردائل، وهذا احتمال
 قائم، قد أعني منها، فسبب ذلك أن الطبيعة البشرية لا تسمح لها أن تبلغ
 الكمال حتى في الشر. ليس لدينا سوى تفسير واحد مقبول لسيرة سيفا
 السمعة، دون أن تكون هناك أعداد منخفضة، إلا هو أن هذا الرجل كان يفتد
 حياً أنه ليس ملكاً ولكن الها. وقد وضع عالياً فوق غيره من المخلوقات،
 فاعتقد لي التواضع أنه مسموم من الخطأ وهكذا فإنه فيما إذا أطلق العنان
 لانفعالاته أو فرض بالفرة في كل مكان من العالم عقائده الدينية والسياسية،
 فإنه كان دائماً يشعر بالإلهامات الإلهية المتجسدة والقوانين الجوهرية. هذا
 أراد أن يهدد لاغتيال ملك أو القيام بمذبحة في مدينة بروستانتية؛ وإذا انتهك
 كل عهد يلتزم به الإنسان، وإذا أحرق يلابداً قد ورثها ملكاً له أو يذبح بالسيف
 أهلها؛ وإذا أشعل نار حرب أهلية في السعاليك الأحمية التي كان يأمل أن
 يسيطر عليها في حين كان يسيطر على كل بلاد مسيحية نظاماً من الرنوة
 والفساد والشحس. ... كان يعتقد دائماً أن هذه الأنواع الدينية أو المدنية
 ليست جرائم، بل هي إرادة الألهة التي يعتقد أنه حل لها⁽¹⁾.

وإذا ما اعتقد قرأه مونتني أنه ربما قد خرج من دائرة اختصاصه بإثارة
 لسلك الأسباني بتلك الطريقة، فإن مونتني يضيف كلمة عن مسؤولية
 المؤرخ:

إذا أخذ ملذب متواضع أمام محكمة العدالة فقلما نجد في أي عصر أو
 بلاد أنه يستطيع الهروب من الشهير أو المشقة لأنه يعتقد أن العدالة ليست
 إجرامية بل هي جدية بالثناء، ولأن كثرة جرائمه واستمرارها دلت على أنه
 صادق. ولأن الملوك غير مسؤولين أمام أي محكمة إنسانية، باستثناء تلك
 المحاكم العرعية التي يقيمها الشعب، عندما يفكر أخلاقه من وقت يشعر

خلال العصور لمحاكمة ظالميه، وهي التي يطلق عليها اسم الثورة، فبها أكثر أهمية للفوائد العظيمة للبشرية أنه أمام محكمة التاريخ ينبغي أن لا نحدي الحاج حاملة. وليس هناك عذر أمام السلطان القضائي لتاريخه، إذا كان التاريخ يريد أن يكون صادقاً مع نفسه.

أما المحرم الملك المدعو طليب الثاني، فإن حياته تدينه، وإنما كتابة هذه المجلدات تكون قد ذهبت سدى لو كان هذا الأمر يحتاج إلى دليل^(٣).

يبدو، إذن، أن موتني يرى أن المؤرخ الحق لا يتكفي بالسرد القصصي للحوادث التاريخية أو وصف الأعمال التي قامت بها الشخصيات التاريخية، وإنما ينبغي عليه أن يتجاوز ذلك إلى إصدار الأحكام الأخلاقية عليها بشكل بارز وواضح. إذ أن بسط الجرائم التي اقترفها طاغية معين ليست كافية، بل لا بد من الحكم عليها. وحيث في ذلك فيما يبدو من النص الثاني أنه ما دامت الشخصية التاريخية لم تخضع على الأغلب لمحاكمة عادلة وهي على قيد الحياة، فلا بد من تقسيمها لمحاكمة التاريخ وإصدار الحكم النهائي عليها.

(3)

كان الحكم الأخلاقي عند موتني شكلاً من أشكال إطلاق العره العنان لرغبته. ولكن كان هناك شيء أكبر من هذا، كان يوجد واجب سام. وأوضح بيك وأكثر إقناعاً للواجب الأخلاقي للمؤرخ جاء من لوورد أكتون Lord Acton (1834 - 1902). ففي خطابه الافتتاحي بومضة استناداً في التاريخ في جامعة كمبريدج عام 1895 جلد مستعصمه وكل طلاب التاريخ من :
 «أد تقبلوا من قيمة العملة الأخلاقية أو أن تُبعثوا معايير الانبلاج، ولكن اختبروا الآخرين بالنجوم إلى القانون البدني الذي يحكمهم بعبث، ولا تدعو رجلاً أو قضية أن تهرب من العقوبة الخائفة التي لتاريخ سلعة في

فرضها على المنكب. إن العذر في التخفيف من الذنب والتقليل من العقوبة شيء مستمر. ففي كل خطوة نحن نصادف حججاً تقدم العذر وتطلب من عطلورة الجرم وتخلط بين الخطأ والصواب وتقلل من قيمة الرجل العادل وتصل به إلى مسعى اللئيم... الأراء تتغير، والشوك يتبدل، والمعائد تطلو وتهبط، أما القانون الأخلاقي فمدون في كتاب الأبدية.

وخدم خطابه بقوله: «نحن نملك السلطة والثروة أن نتعلم من السجلات الواضحة الأحيلة كي ننظر نظرة الثائب إلى الماضي، وننظر إلى المستقبل بنظرة أمل وتحسن الأحوال؛ ولا بد أن نأخذ في الحسبان أننا إذا خففنا معاييرنا في التاريخ فلا يمكن أن نحافظ على هذه المعايير في الكنيسة أو الدولة»⁽⁸⁾.

وأعلن أكتون في إحدى رسائله أن دسلاية الشريعة الأخلاقية هو السر في منطقة التاريخ، وجلاله، وفائدته، وادعى أن التاريخ هو المحكم في النزاعات، ودليل الحائر، وحامل ذلك النواء الأخلاقي الذي تسعى قوى الأرض والدين نفسها إلى كبحه. وتستند وجهة النظر هذه إلى إيمان أكتون شبه الصوفي في موضوعية وسمو الوقائع التاريخية الأمر الذي يفرض على المؤرخ ويخوله - باسم التاريخ بوصفه نوعاً من سلطة فوق تاريخية - أن يحاكم أخلاقياً الأشخاص الذين يسهون في الأحداث التاريخية⁽⁹⁾.

ولقد كان من الطبيعي أن يتزعج بشدة من راتكة لأنه أحجم من أية إدانة لمحاكم التفتيش، كما لاحظ أن المؤرخ الألماني المذكور ثم يخصص في كتابه لتاريخ إنكلترا History of England سوى أحد عشر سطراً للمحاكم اندموية التي عقدت بعد عصيان مونموث Mambout في غرب إنكلترا.

ويحاول أكتون أن يكون واضحاً بشكل دقيق إذ يقول إن راتكة لم يكن شيئاً فيما يتعلق بمسؤولية وليام الثالث William III (1650 - 1702) في مذبحة كلينكو Glencoe - وفي الواقع أنه طعن أكثر من أي شخص آخر في

يكشف عن ذنبه - بالرغم من ذلك أحجم رائكه عن أي قرار فعلي بالإفانة، إذ لم يقل: إن وليم الثالث كان رجلاً شريفاً⁽¹⁰⁾.

ولم تكن إدانة الأفعال ولكن إدانة الأشخاص هي القضية عند آتون، فهو لم يكن يريد أن يقال إن الاضطهاد شيء خاطيء لمحب، ولكن أن يدين الشخص النبي كان أثمًا بالجريمة.

وأخيراً، إضافة إلى ذلك، على أن الإنسان يجب أن يقاس بأسوأ عمل قام به، على سبيل المثال وليم الثالث بمنبوحة كلينكو، الثوار الفرنسيون بمذابح سبتيمير، ذلك لا يمكن أن تصدر حكماً حتى تقول الأسوأ... أنك يجب أن تكون شديد الحرص في تحديد الأسوأ جداً. ورفض اقتراحاً أن يأخذ عند الحكم على الأقل شيئاً يشبه المعدل المتوسط بين أحوال الإنسان الضعيف وجرائمه⁽¹¹⁾.

والواقع أن آتون كان ضمن عدد كبير من المؤرخين والفلاسفة الذين تصبنوا لعرق رائكه الرافض لحق المؤرخ في إصدار الأحكام الأخلاقية، ويتلخص بعبارة الشهيرة التي أعلنها عام 1824 وهي أن التاريخ هو تصوير ما حدث بالضيقة. وقد أثارت هذه العبارة ردود فعل قوية وتعرضت لهجمات شديدة. فقد رأينا أيضاً انزعاج آتون الشديد من رائكه لتجنبه إدانة محاكم التفتيش وتجاهله إدانة وليم الثالث شخصياً في مذبحه كلينكو. كما أن المؤرخ الأمريكي تشارلز بيرد Charles Beard (1874 - 1948) رأى أن عبارة رائكه عن التاريخ قد نبذت وحظت في متحف العصور القديمة⁽¹²⁾. لأن النزعة في التاريخ مستحيطة، ولا بد له من أن يعكس فكر مؤلفه في إطار زمانه ومحيطه الثقافي⁽¹³⁾. في حين يرى الفيلسوف الأمريكي جون ديوي John Dewey (1859 - 1952) أنها فكرة قد بلغت من السذاجة حداً غير معقول، وذلك لأن البحث التاريخي عملية (1) فيها اختيار وترتيب و (2) توجيهها المسائل والمعاني العقلية التي تسود الثقافة القائمة في العصر

الذي يكتب فيه ذلك لبحث التاريخي⁽¹⁴⁾.

وقد اتهم الفيلسوف الألماني أرنست كاسير (Ernst Cassirer 1874-1945) للدفاع عن رائته، مبنياً أن رأي رائته هو أن على المؤرخ من المحكمة الكبرى لتاريخ العالم أن يعد الحكم لا أن ينطق به، وهذا من وجهة نظر كاسير بعيداً عن موقف اللا مبالاة الأخلاقية، بل هو على العكس شعور بأرفع مسؤولية أخلاقية، إذ كان يعتقد أن المؤرخ ليس أن اعتمد على الاتهام ولا يضطلع بالسلط عن العتيم؛ فإذا تحدث بسبب انطباع كان قلباً معلماً عليه أن يجمع كل الوثائق في القضية ليقدّمها إلى المحكمة العليا أو إلى تاريخ العالم؛ فإذا أخفق في هذه المهمة، إذا تمكك الخبر المبرمج أو البعض فالعن وثيقة واحدة أو زورها كان له أهل واجب الأمر⁽¹⁵⁾ وهذا نظر كاسير غير كاف، إذ لا بد أن يتخطى هذه الخطوة إلى معادلة إقرار موقف الأخلاقي في أحداث التاريخ وشخصياته امتداداً إلى الخدم المطلقة، وإلا فاقبتهم بأنه يضعف العملة الأخلاقية.

وهذا معناه، في رأينا، أن نكون يشك بذلك القارئ، وعلى وأيضاً بموضوعية المؤرخ وصداقه. فهو يبدو من جهة لا يتقن بقدره القارئ، على أن يحكم بنفسه على ما يعرف من عليه من حقائق تاريخية مهما بلغت درجة من الدقة والنزاهة والوضوح، ويجمعه يقف موقفاً سليماً بأن يهاب من المؤرخ القيام بهذه المهمة بدلاً من ويبدو من جهة أخرى أنه لا يتقن أيضاً في لعب المؤرخ في تمكته من سرد روايته بشكل سلمي وتفسيره بطريقة جعلها تنفذ نفسها عن نفسها؛ بحيث لا تكون هناك حاجة أن يقوم المؤرخ بمهمة الاستهجان أو الاستحسان وإنما يقره القارئ، بهذه المعادلة.

لذا كان الأحرار الاهتمام إلى حد كبير بواجب المؤرخ في التمسك بالحقائق بدقة وموضوعية، وواجب القارئ أن يقرأ يتعمق ويرى عمقه يصبح التاريخ بخيره وشره ناصحاً أمام جميع

كما أن دعوتها يغلب عليها الحماس الشديد وتفتقر إلى أسس
ميكولوجية ومنطقية سنجدها فيما بعد عند بعض دعاة الحكم الأخلاقي في
التاريخ.

(4)

إن كان كل من موتلي وأكتون يفرض على المؤرخ القيام بالحكم على
الشخصيات التاريخية، لأن هذه الشخصيات نادراً ما تعرضت للحكم وهي
على قيد الحياة عند الأول، ولأن ذلك واجب سام للمؤرخ عند الثاني، فإننا
نجد الفيلسوف الإنكليزي السير المتعاير برلين Sir Isaiah Berlin (المولود عام
1919) يقيم الحجج على أن طبيعة الدراسة التاريخية تحتمل المؤرخ يخلق
بإثر الأحكام القيمة، أراد ذلك أم لم يرد.

يسلم برلين أن المؤرخ يجب أن يتجنب من غير ريب أن يكون حياً أو
ميتاً إلى النقد القاسي. ولكن نادراً ما يأمل تجنب تلك الدرجة الدنيا من
التقييم الأخلاقي أو الميكولوجي المتضمن بالضرورة في دراسة الكائنات
الإنسانية لكونها مخلوقات لها أهداف ودوافع (وليس مجرد عوامل سببية في
سجري الحوادث). ولدعم هذا الادعاء النسبي، بين برلين أن التاريخ ليس
فرعاً صورياً من الدراسة أو المعرفة، مع مجموعة من المفردات المستنبطة
بشكل خاص. وإنما هو محاولة لفهم الماضي بالعبارة نفسها التي يحاول
الرجل العادي أن يفهم الحاضر بها.

لننظر نفس الثورة الفرنسية أو شخصية نابليون أو سلوك تاتيران كما
نفس المعاصرين لنا... نفس المزيج الغني والناذر ما يكون قابلاً للتحليل
من المفاهيم الفسيولوجية والميكولوجية، الاقتصادية والثورية [معنى
بالشراء، الجمالية والأخلاقية، السببية والقصدية، التي تهين ما نعده أجوبة
طبيعية وكافية لتساؤلاتنا العادية عن كيف ولماذا تحدث الأشياء أو يتصرف

الأشخاص على هذا النحو أو ذلك».

ويؤكد برلين أن إشار المؤرخ استخدام اللغة العادية، معناه أنه يجب أن يتكلم بشكل فني عن موضوع بحثه، سواء كان يجب ذلك أم لا، فيما إذا كان يدرك ذلك في الواقع أم لا. ذلك لأن كلمات «الانحصار»، «الحقيقة»، «النظام»، «فن الحكم»، التي هي الراسخ الإلهادي للسرد التاريخي، ليست تعبيرات وصفية خالصة⁽¹⁴⁾.

يتبين لنا من الفحص الدقيق للمعرض السابق أن هناك أمرين يقويان حجة

برلين:

الأمر الأول: أن المؤرخ إذا حاول التهرب من أي تقييم، فإن لغة الوصف التاريخي تحبط مسعاه بالتأكيد لأن التاريخ، بخلاف العلوم التي تدعى بهذا الاسم بشكل ملائم، لم يستبط أو يخترع مجموعة من المفردات التقنية أو الفنية قادرة على الإدلاء ببيانات متحررة من التقييم. ذلك لأن المؤرخين يستخدمون «اللغة العادية»، وهي الأداة التي يستخدمها الرجال والنساء لتقل كل تجربتهم في حياتهم اليومية، والفحص السببي الدقيق لها يكشف أنها أبعد ما تكون عن الوصف للبحث.

الأمر الثاني: أن موضوعات الدراسة التاريخية - الاضطهاد الديني، إرهاب النظرية العسكرية، التحزب السياسي... الخ لا يمكن أن تدرك بشكل ملائم تماماً، إذا لم نسلم بأنها قائمة جزئياً على القيم. فإذا حقيقنا الأحكام التقييمية من عرض المؤرخ لها، فإن ذلك يعادل رفض تصوير الأشياء كما هي في الواقع⁽¹⁵⁾.

معنى ذلك أن برلين يرفض وجود زيادة علمية في التاريخ، وبعبارة ذلك تعبيراً آخر فلا يعتقد المفضل والمهدك بأن التاريخ علم؛ إذ نادراً ما يمكن أن يمثل نتيجته تمقيس العلم الطبيعي الصرف. فالنوسل من المؤرخين أن يكتبوا تلك الدرجة الدنيا من التقييم الأخلاقي أو السيكولوجي، بيد أنه

يقوم على خلط أهداف الدراسات الإنسانية ومناهجها مع أهداف العلم الطبيعي ومناهجها. وهذه هي إحدى المغالطات الهدامة إلى حد كبير جداً في الأعراف المثة الماضية⁽¹⁹⁾.

لأن أن إصداره القوي من جهة أخرى على أن من واجب المؤرخ أن يحاكم شارلمان أو نابليون أو جنكيزخان أو هتلر أو ستالين على المذابح التي اقترفوها⁽²⁰⁾، لا يتسجم بزعمه التركيبية مع محاولته البرهنة على نظريته بالحجج العقلية المذكورة أعلاه.

ونلاحظ هذه الآراء نفسها عند المؤرخ الأمريكي تشارلز بيرد الذي أكد أن التاريخ ليس علماً والمؤرخ ليس عالماً. لذلك «فالامر الأسمى هو أنه يجب أن يبتد جهودته لافتراضات العلم الطبيعي ويعود إلى موضوعه الأصلي - إلى التاريخ - كما هو واقع»⁽²¹⁾، إذ «أن الحوادث والشخصيات التاريخية تتضمن بطبيعتها اعتبارات أخلاقية وجمالية. فهي ليست مجرد حوادث في الفيزياء والكيمياء تستدعي الحيادية من جانب»⁽²²⁾ الملاحظ.

ربعنا تلخيص حجج كل من برلين وبيرد في أن الحكم الأخلاقي يدخل بالضرورة في الدراسة التاريخية بالنقاط التالية:

- 1 - استخدام المؤرخ اللغة العادية، وهي لغة مشبعة بالقيم.
- 2 - أن الموضوعات التاريخية في طبيعتها ذات دلالات قيمة.
- 3 - أن التاريخ ليس علماً، وبالتالي فإن نتائجه تتأثر بقيم الباحث الأخلاقية.

بالنسبة للحجة الأولى نستطيع أن نقول: إن المؤرخ يمكنه التغلب جزئياً على هذه الصعوبة إذا بذل جهداً في اختياره لفردات اللغة التي يستخدمها بحيث تكون وصفية بقدر الإمكان وبعد عنها كل ما يوحى بالقيم. وإن كنا نعتقد أن الباحث لا مفر له أحياناً من استخدام بعض المفردات غير مجردة تماماً من معانٍ تتصل بالقيم.

نما الرد على الحجة الثانية فيتمثل في أن المؤرخ، كما يقول الفيلسوف

الأمريكي (الشيكي الأصل) أرنست ناجل Ernest Nagel (المولود عام 1901)، الذي يهتم بموضوع مشيع بالتقييم باعتراف الجميع، أو محاولات تظهر عواقب وانفعالات مختلفة، لا يتبع أخلاقاً أنه هو نفسه يجب أن يشرك أو يحكم على هذه القيم والانفعالات⁽²⁷⁾.

وفيما يتعلق بالحجة الثالثة ليس هناك شك في أن التاريخ ليس عمداً كالفيزياء والرياضيات ولا يحضج لعناجهما، إلا أن شدة أصول علمية عنها ينبغي أن يحضج لها الباحث في أي فرع من فروع المعرفة، وأن تخدم مبادئها تختلف باختلاف موضوع وطبيعة كل علم. فالمؤرخ على سبيل المثال يسعى أن يستند في تدوينه للتاريخ على السجلات والوثائق والأدب. وأن لا يدخل عواطفه الخاصة في اختياره للنصوص، ولا يقحم الأفكار الشخصية وقيمه الأخلاقية في عرضه للنتائج.

(5)

وتؤكد المؤرخة المعاصرة ميري فيرنليكا ويدجود Cely Veronica Weigand على ضرورة أو واجب الحكم الأخلاقي في التاريخ إذ تصدق من الخلط الذي يقع فيه المؤرخون عندما يأخذون في الحساب اعتبار المصرا، فتصددهم فهم الماضي والصدق، ولكن النتيجة على المدى البعيد تكون عدم الانصاف للحاضر، لأن هذه النظرة تشجع باستمرار وخبث الاحتقاد بأنه ليس هناك شيء صالح أو رديء في حد ذاته، بل يكون كذلك بالقياس إلى ما يحيط به... فالصريح نحو الظلم والظفران شيء غير رديء في العلاقات الشخصية بين الكائنات الحرة، ولكن لا حسب نقول في خاتمة رأينا تطبيق مبدأ العفران على الشخصيات التاريخية إنما هي بذلك خاطئة⁽²⁸⁾.

إن هذا النقد الصارم موجه أساساً إلى ذلك الفريق من المؤرخين الذين

يرون أن الحكم في التاريخ غير ممكن، لأن الحوادث إنما هي وليدة عصرها وبيئتها، ولا يمكن أن تكون غير ما كانت، لم يكن ممكناً لأرسطو Aristotle (384 - 322 ق. م.) أن يرى في الرق، حينما برزه، غير ما رآه، لأن تطور المجتمع، أو تطور العقول، كان حينذاك في مرحلة لم تكن تسمح له بغير ذلك، ولا يصح أن نصف أبناء الفرون الوسطى بالتعصب الديني، لأنه لم يظروهم لم يكن تعصباً كما نراه اليوم؛ لم يكن رذيلة بل فضيلة - وهكذا فكل حدث أو جهد إنساني هو أمر نسبي، ويجب ألا ننظر إليه إلا بالنسبة إلى الحال أو الأحوال التي تحيط به. ولكل عصر من العصور، أو مرحلة من المراحل، كريتة من اليات مقاييسها ومعاييرها⁽²⁴⁾.

وما دام الأمر كذلك؛ فإن كل فعل إنساني يتم تبرره بحجة أنه وليد عصره وبيئته وينسجم مع معاييرها. وهذا ما ينبغي استعماده بشدة كما هو واضح في قول ويدجورد الأتف الذكر.

ويستند رأي ويدجورد على الحجة التي يطلق عليها الحجة الأخلاقية لصالح الحكم الأخلاقي ومفادها أن القوانين الأخلاقية كلية ومطلقة وثابتة، بالرغم من أن التاريخ هو سجل للتغيير، فالقتل هو دائماً قتل، الخيانة هي دائماً خيانة؛ الوحشية والتعصب هما دائماً نفس الشيء، وما دامت الكائنات البشرية حرة الإرادة فيجب أن نتعرض لمسؤوليتها عن أعمالها. والمؤرخ لا يمكن أن يقف فوق القوانين الأخلاقية أو يقف جانبا، ولكن ينبغي أن يعترف بها ويشارك فيها ويطبقها. فإن لم يفعل ذلك، فهو يضعف القضية الأخلاقية ويضعف أيضاً القضية التاريخية، ويحسر ثقة ألداده واحترامهم⁽²⁵⁾.

ويشارك المؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي Arnold Toynbee (1889 - 1975) أيضاً مع ويدجورد في تأكيدهما على واجب أو ضرورة الحكم الأخلاقي في التاريخ. فقد كان توينبي حريصاً على أن يكون متسامحاً مع الكلبي والأبدي أكثر من أي مؤرخ آخر، وظلّ خلال عمله المستمر كونه مؤرخاً

يهتم بالناحية الأخلاقية، ومستعداً أن يصدر حكمه على الأحياء والأموات.
إن تأكيد أن طرد العرب من فلسطين من قبل الإسرائيليين عمل لا يقل اجتراراً
عن قتل البارين لستة ملايين يهودي قد أحدث جدلاً عالمياً⁽²⁶⁾. كما أنه
نعت لحزب موسوليني للجيئة في عام 1935 بأنه الخطيئة شخصية
مشهورة⁽²⁷⁾.

وفي الوقت الذي نتفق مع أصحاب هذه الحجة بوجود قيم صادقة في
كل زمان ومكان، فإننا نلاحظ أنهم قد أهملوا ذلك النوع من القيم المرتبط
بالعادات والأعراف والتقاليد التي تختلف باختلاف الشعوب والبيئات
والعصور. لذلك يجب على المؤرخ، إذا ما أريد أن يحكم أو إذا ما اضطر
إليه، أن يأخذ بعين الاعتبار الفرق بين هذين النوعين من القيم.

فإذا كانت الأعمال الإنسانية في مجرى التاريخ مرتبطة بالنوع الأول من
القيم، فيحكم عليها على أساس مدى مطابقتها أو عدم مطابقتها مع المعايير
الأخلاقية المطلقة، أما إذا كانت هذه الأعمال لها صلة بالنوع الثاني من القيم،
فالحكم عليها ينبغي أن يستمد من معايير الجيل الذي تصدر عليه الأحكام.

(6)

وهناك مع ذلك حجة أخرى ربما أكثر إقناعاً للحكم الأخلاقي في
التاريخ، وهي حجة لا تقوم كثيراً على الأخلاق كما تقوم على أسس
ميكولوجية. ومفادها أن المؤرخ لا يستطيع في أي حادث أن يتمالك نفسه
عن الحكم. حتى لو أحجم، وهو عاقد العزم على ذلك، عن الحكم
الأخلاقي الصريح، فإنه بالتأكيد سيكون ملتبساً بحكم مقنع. إذ إن اختيار
الموضوع، تجميعه للحقائق، مجموع مفردات اللغة التي يستخدمها،
ستخونه أو تفضله، إذن حكم هو من الأفضل كثيراً، كما يكون أجل وأكثر
أمانة، أن يعترف بموقفه في البداية⁽²⁸⁾.

وإن هذه النجدة تجادل أن المؤرخ لا يقدر أن يتفادى أن تكون له فلسفة ما أو دستور أخلاقي معين، لذلك من الأفضل أن يتبنى تلك الفلسفة أو ذلك الدستور بشكل صريح⁽¹²⁸⁾. يضاف إلى ذلك أنه من الصعب أن ترى المؤرخ، مع أخلاقه الشخصية المعقدة، يتجنب الحكم بواسطة على كل عمل فريد يريده، مسخطة الشديده على ميل العتال على فعل تاريخي معين يمكن أن يجره على إصدار الحكم الأخلاقي عليه⁽¹²⁹⁾.

وتجادل أيضاً أنه حتى لو كانت الحقائق الأساسية للمؤرخ متحررة من القيمة، فإن الاختيار الذي يقوم به عندما يبنى تاريخاً معيناً سيكون موجه عيباً بالضرورة، وهذا الاختيار ضروري لطبيعة الدراسة، إذ ليس من الممكن عملياً أن يعالج المؤلف جميع التصوص والأحداث المتصلة بالموقف التاريخي بالاهتمام نفسه. ولكن عملية الاختيار المشار إليها يتحكم فيها بالضرورة عند من العوامل الشخصية التي تحصل بنظرة المؤلف الجمالية والنفسية والأخلاقية، وهي في جعلتها عوامل ذاتية لا يستطيع التفكك منها⁽¹³⁰⁾.

وإن وجهات النظر السابق ذكرها لا تبين فقط أن كتب التاريخ تتصفون بالفصل أحكاماً أخلاقية، بل تعارون البرهنة أيضاً أنها يجب أن تكون كذلك، لعوامل موضوعية وأخرى ذاتية. وتتعلق العوامل الموضوعية عموماً بطبيعة المادة التاريخية وباللغة المستخدمة فيها، أما العوامل الذاتية فتقوم على استحالة أن نحول بين المؤرخ والواقع في عملية الحكم. إلا أننا لا تكفي بذلك فحسب، بل نجعل عملية الحكم من ضمن واجبات المؤرخ، فإن أن تولق في إقناع على صحة هذا الادعاء الأخير بشكل خاص.

ويبدو عندهم أن هذه الأحكام لا تتعلق بالحياة الخدمية بالشخصيات التاريخية بما كانت لم تؤثر في أعمالها العامة؛ إلا أنها لا تقتصر على الأفراد فقط بل تمتد لتشمل حوادث ومؤسسات الماضي أيضاً، ومن المؤكد أنها

تفرض أن الإنسان حر الإرادة، وإلا أصبح الحكم لا معنى له. إلا أنه يظهر
 أن هذه الأحكام تتنازع بالثبات والكلية، ولا تتغير بتغير الزمان والمكان،
 ما دامت مصيبة على الأفعال نفسها، وما دامت قائمة على المعايير الأخلاقية
 المطبقة دائماً.

(7)

الأثر في الأمور لا تجري دائماً حسب ما يشتهي إصدار الحكم الأخلاقي،
 إذ يأتي هذا مجموعة من المؤرخين والفلاسفة بسبل من الحجج المفرد
 وهي:

الحجة الأولى: أن العاصي متعذر تغييره؛ فالتعميم لا يمكن أن يستند
 للكلام ليُدافع عن نفسه، كما أنه لا يمكن استجواب الشهود. وإذا كان من
 التصورية يمكن إصدار أحكام أخلاقية على الحوادث المعاصرة فسلوك
 حكومة فيشي Vichi واللجوا إلى القبلة الذرية على هيروشيماء، وبه كثر
 صعوبة إلى حد كبير إصدار مثل هذه الأحكام على العاصي كالحكم على
 شخصية القيصر Alcibiades وتبرير قتل القيصر والحكم على طولاً
 الزرمان غزاة إنكلترا وسلوك الفاتحين الألمان⁽¹⁰⁾. يقول الفيلسوف
 الإيطالي بيليتو كروتشه (1866 - 1952) Beaudetto Croce:

«إن محاكمة (سواء كانت قانونية أم أخلاقية) هي محاكمة رمزية
 مخصصة لأناس أحياء وفاعلين وخطيرين؛ في حين أن أوثك الرجال الآخرين
 قد ظهروا من قبل أمام محاكم زمنهم، وأن لا سبيل إلى إعادتهم أو تبرير
 مرتين. إذ من غير الممكن اعتبارهم مسؤولين أمام أية محكمة كانت؛ ذلك
 لمجرد أنهم من أهل الماضي الذين يتمون إلى سلام الماضي، وبصفتهم هذا
 فهم من رعب التاريخ وليس بالوسع تحميلهم أي حكم عن ذلك الذي يترك
 روح عملهم وينتهي به»⁽¹¹⁾.

ولدينا ملاحظتان حول هذه الحجة:

الأولى: أن معلوماتنا عن الحوادث المعاصرة لا تكون دائماً أفضل من معلوماتنا عن الحوادث العاضية؛ إذ كثير ما يعجز على المؤرخ معرفة جميع الحقائق والمعلومات الصحيحة عن النوع الأول من الحوادث، إلا تدريجياً وبعد ما تنكشف أسرارها وخباياها، بحيث يحتاج إلى مرور فترة من الزمن قد تقصر أو تطول لإحاطة بعروضها بجلاء ودقة وموضوعية. في حين أنه تكون قد سلطت الأضواء على معظم حوادث النوع الأول، وشيخ بحثاً وأصبح واضحاً ومعروفاً على نطاق واسع في أغلب الأحيان. وبالتالي فالحكم على الحوادث المعاصرة يكون أصعب من الحكم على الحوادث العاضية بشكل عام، عكس ما تزعمه الحجة المعروضة؛ إذا افترضنا أن المؤرخ قد تجاوز مهمة الجوهري في الفهم والتفسير إلى محاولة إصدار أحكام أخلاقية على الحوادث والشخصيات التاريخية.

الثانية: يبدو أن كروتشه هو الذي ثبت أنه نادراً ما يجرؤ إنسان معاصر لطافية، خاصة إذا كان في نطاق مسكده على محاكمته على ما ارتكب من مجازر بحق شعبه أو الشعوب الأخرى، ولا كان مصوره معروفاً. يضاف إلى ذلك أنه قد تكون بعض جرائمه لم تكن قد عرفت في عصره، ولا تظهر إلا شيئاً فشيئاً بعد موته أو رحيله عن كرسي الحكم. وهكذا، فما دام الطغاة لم يدانوا أمام محاكم زمنهم، فيصيح من الضروري: السجناً مع حجة كروتشه، محاكمتهم أمام محكمة التاريخ.

(II)

الحجة الثانية: بينما الأحكام الشية (التقنية) جوهريه في القانون، وفي الخدمة المدنية، وفي الجامعة، وفي الألعاب الرياضية، إذ كان على المجتمع أن يؤدي وظيفته، فإن مثل هذه الأحكام لا تدبر أنها أخلاقية ولكن مهنية.

فالأستاذ الجامعي الذي يسمح بأرائه الأخلاقية أن تؤثر في وضعه للدرجات للمتعلمين للاختبار، والحكم الذي تكون قراراته مبنية على الاختيارات الأخلاقية، وحتى القاضي الذي يسمح باقتضائه الأخلاقي الخاصة أن تؤثر في قراراته في مسائل العقود أو الوصايا أو الديون أو إجراءات الإفلاس، سيحدون ليس فقط غير أكفأ بل يمكن الاستعانة عنهم. إذ ثمة مقاييس واضحة ومعقولة تمثل هذه الأحكام العمودية كما يتطلبها المجتمع (قوانين وقواعد ومعايير)، كما نعرف جيداً أن الأحكام الأخلاقية تبرز مسائل متاهية معقدة حتى عندما تكون كل البيانات المناسبة تبدو أنها ويغدر ما يتعلق الأمر بالتاريخ، حيث كل البيانات غير متوفرة وحيث لا توجد معايير عامة فيما يخص سلوك الرجال والأوطان في القرون العاصية؛ فإن كل ما يستطيع أن يفعله المزارع في حكمه هو أن يطبق المعتقدات التي يؤمن بها بالحدائق الأبدية.

إذا كان التاريخ يكشف عن شيء، فإنه يكشف عن أن المقاييس والتقييم والبيادىء تختلف بشكل كبير من عصر إلى عصر آخر ومن مجتمع إلى مجتمع آخر. وفي الحقيقة أنها تختلف للغاية من جيل إلى جيل آخر في المجتمع نفسه. إن الببوات الذين يختارون بسبب عندهم وفضيلتهم يكونون على يقين بأن الأخلاقية تتطلب أن يقضوا على الهرطقة بالحديد والنار، ولم يشعر الأوروبيون في القرن السادس عشر بوحز الضمير لقيامهم بقتل الهنود الحمر، لأنهم، حسب اعتقادهم، ليس لهم أرواح؛ ويرسل اليهودانيون (المضطهرون Puritans) المثقفون والمستقيمون أخلاقياً السحرة إلى الموت عن طيب خاطر؛ وهدم المسيحيون في الجنوب الأمريكي في القرن التاسع عشر ترقى نعمة إلهية.

وقد أمرك هيروودوت هذه النقطة منذ خمسة وعشرين قرناً بهذا النص:

من تاريخه:

وعندما استولى داريوس على المملكة. استدعى إلى حضرته بعض اليونانيين الذين كانوا بالقرب منه وسألهم كم يدفع لهم كي يأكلوا أجساد آبائهم عند الموت. أجاب اليونانيون بأن ليس هناك مبلغ يعرضهم أن يقوموا بهذا الأمر. ثم استدعى بعض اليهود من سلالة الكاثين Cathians الذين كانوا يأكلوا آبائهم، وسألهم: بينما اليونانيون واقفون وعدم يفهمون من المترحمة ما يقال، كم يدفع لهم كي يحرقوا أجساد آبائهم عند الموت. صرخ اليهود بأعلى صوتهم وطلبوا منه أن يمتنع عن هذا الكلام. وهكذا فإن الإنسان يعمل ما تعود عليه، وكان سداد Pindar على حق، في رأي، عندما قال بأن القانون [العرفي] هو ملك كل شيء⁽²⁴⁾.

من الواضح إذن أن الأجيال المختلفة لها مقاييس أخلاقية مختلفة؛ وبالتالي أن نفرض أنفسنا على الماضي هو شكل من أشكال العجرفة العقلية. نحن لا نقبل أن نطبق القوانين بأثر رجعي لارتباطها بنظامنا القانوني. لذلك من الأفضل كثيراً أن نتحجم عن حماقة الامتقانة الأخلاقية وتفاقتها عن معالجة الماضي.

إن وظيفة المؤرخ أن لا يحكم ولكن أن يفهم. كيف حدث أن الرجال الذين كرسوا أنفسهم لاتساع الحضارة الغربية يمكن أن يحملوا الحديد والبار لسكان أمريكا لبني الحظاء. كيف حدث أن الرجال والنساء الذين يحبون أولادهم يخضعون وترتبط حياتهم اليومية بعضها ببعض بالتقوى الطبيعية يمكن أن يحارضوا بعض القوانين التي وضعت لحماية الأطلاق من عنه العمل المفترط في المصانع والمناجم؟ كيف حدث أن الرجال والنساء المسيحيين يمكن أن ينظروا إلى الرف على أنه نعمة إلهية؟

ولكن لا يصح بالضرورة أن المؤرخ الذي يفهم كل شيء يصنع عن كل شيء. أن يفهم المؤرخ أن يفهم؛ إذ ليست وظيفته أن يدين ولا أن يصنع. أنه ليس ربه⁽²⁵⁾.

تحاول هذه الحجة أن تستبعد الحكم ليس على أساس أن الحقائق الصحيحة والرافعة عن العاصي لا تكون دائماً متاحة فقط، وإنما تحاول أن تستبعده أيضاً على أساس أن القيم الأخلاقية تختلف باختلاف الأجيال والبيئات، وبهذا ما يبرز التوقف عن الحكم في نظريتهم.

والواقع أنهم يقصدون بهذه القيم العادات والتقاليد والأعراف المرتبطة بعصور معينة وبشعوب محددة، كما هو واضح بالنص المقنن من تاريخ هيرودوت، ويبدو عندهم أن الأمثلة التي ذكرت قبل هذا النص تدخل في نطاق هذا النوع من القيم، علماً أن الفرق واضح للغاية بينها وبين المثاليين المذكورين عند هيرودوت، فهل موقف المؤرخ الأخلاقي واحد من اليونانيين الذين يقومون بحرق أجساد آبائهم عند الموت ومن الأروبيين الذين لم يشعروا بوحز الضمير بقيامهم بقتل اليهود الصغرى، من الممكن أن يخرج المؤرخ في المثال الثاني من مهمته الجوهرية في الفهم والتفسير إلى الاستهجان خاصة إذا كانت الاختيارات الأخلاقية عنده ذات أهمية كبيرة، وإذا افترضنا أن تلك الأمثلة لها صلة بالعرف والعادة فهل تدخل المجازر التي ارتكبوها شارلسان أو نابليون أو جانكيزخان أو هتلر أو ستالين في نطاق نفسه!

لا شك أن وظيفة المؤرخ الرئيسية هي الفهم، لكنه بوصفه إنساناً حساساً أخلاقياً قد يستجيب للحوادث بالاستحسان أو الاستهجان.

(9)

الحجة الثالثة: وترتبط هذه الحجة فرد الحكم الأخلاقي في التاريخ ما ورد في مقام الحجة الثانية من أن المؤرخ ليس إنساناً فهو لا ينادى بمبادئ حكمية على الأحياء والأموات، وفي الواقع أنه لا ينادي للحكم، وإنما ينادي نفسه نادياً فهو بذلك يعبر النموذج المثالي لدوره النفسي والعملي من شخص

رهب نفسه للبحث الموضوعي إلى شخص مكرس للمقايسة أو الدفاع. وكما لاحظ المؤرخ الإنكليزي أدوارد كار Edward Carr (المولود عام 1892) أن معارلة إقامة معايير للحكم التاريخي «هي محاولة غير تاريخية ومتناقضة مع جوهر التاريخ نفسه». فهي توطر جواباً عقدياً درغمالياً على الأسئلة التي يفترض بالمؤرخ، بحكم وظيفته، أن يطرحها باستمرار: والمؤرخ الذي يقبل بالإجابات المبسطة عن هذه الأسئلة إنما يذهب إلى عمله وعينه مغمضتان ويكون كمن يتخلى عن وظيفته»⁽³⁶⁾.

إن المؤرخ ليس إلهاً فهو إنسان كسائر الناس. وهو يعترف بمعظم عيوبه، يستجيب لمعظم الضغوط، يخضع لمعظم الإقراءات التي يتخلى بها زملاؤه البشر، وهو بصورة واعية أو غير واعية يقف دائماً إلى هذا الجانب أو ذلك. هل نحن نتق بما قاله توماس كارلايل T. Carlyle (1795 - 1881) عن أوليفر كروميل Oliver Cromwell أو ما قاله موتلي عن فيليب الثاني، أو ما قاله هرد عن أسباب الحرب الأهلية؟ من الواضح أننا لا نستطيع أن نتق بما قاله هؤلاء المؤرخون. إن المؤرخ مثله مثل القاضي أو القسيس أو السياسي مخلوق أو كائن خاضع لحتمه وطورمه ودينه وثريته، وهو لا يستطيع أبداً أن يحرر نفسه من هذه التأثيرات المكونة له ويحرز الحياد الأولي.

حين يأخذ المؤرخ عن عاقبة القيام بالحكم فهو لا يملك حتى دعامة من التقاليد والتعريف المهني. يعتمد كما هو الحال عندما يدون ويعيد البناء. وليس ثمة حقبة جمهورية لأخرى إعادة بناء الماضي؛ إذ سيلا الآخرون الفجوات. ولكن الحقبة الجمهورية نشأ عندما يصبح غرضه عبادة دستور أخلاقي وتطبيقه بشكل منظم وحيادي.

وبالتالي فإننا ربما نصبل بتناج بحوث المؤرخ في أمور تفضل بالحقائق - التي تكون دائماً خاضعة لتفتيح لاحق بالتأكيد - ولكن لسأذاً يجب علينا

فبدا نتوجه في أمور تتعلق بالأخلاق. إن المؤرخين كثيراً ما أخطأوا. فقد كانوا مجتمعين خلال قرون لإطلاق أحكام لا تختلف إلا قليلاً عن أحكام السياسة والضيابط والقيسين الملوثة والفاسدة. وعلى سبيل المثال، ساند المؤرخون الكاثوليك اضطهاد الهراطقة البروتستانت، ونظر المؤرخون البروتستانت إلى اضطهاد الكاثوليك برهافة جائس. كما دافع المؤرخون الوطنيون بشكل ثابت تقريباً عن أوطانهم ويررروا سلوكهم، وأصدروا عن نحو منتظم أحكاماً ضد أعداء أوطانهم، وهياؤوا أكثر من ذلك، الحجج للترعة الوحشية الشوفينية وللترعة الاستعمارية وللترعة العسكرية. لا عجب أن يصبح الانشغال المهني الرئيسي للمؤرخ في عصرنا هذا هو التصحيح Revision!

وليس هناك إغراء خاص للمؤرخ. فهو ليس شئس من التعامل والطموح والغرور والخوف الذي يخلي به زملاؤه البشر. وعندما يرتدى ثوبه المهني يكون مؤثراً وبعض الأحيان يتخذ شكلاً مهيباً، ولكن عندما يُحت أن يلبس رداء الحكم الأخلاقي يكون عرضة للهجوم⁽¹⁴⁾.

لذلك نجد المؤرخ الإنكليزي المعاصر هربرت بترفيلد Herbert Butterfield يصف أحكام المؤرخين الأخلاقية بأنها في الحقيقة «أحكام أخلاقية زائفة، متبكرة في هيئة أحكام أخلاقية». فهي أمور خبيثة غير متبكرة، بعضها تحيز وبعضها الآخر عداوة سياسي. مع شيء من النكهة الأخلاقية وضعت في هذا الخليط وطعماً عشوائياً⁽¹⁵⁾.

تعترف هذه الحجة بوجود صعوبات سيكولوجية تحول دون الإتيان المؤرخ في أحكام أخلاقية تتميز بالحيز والتحمل، وتتهم هذا النوع من الأحكام بأنها هيأت الجوانب الشأمة للترعات البهامة.

فهي إذن تقر بأن المؤرخ واقع لا محالة في عملية الحكم الأخلاقي عند تدوينه للتاريخ، بالرغم من أن تلك العملية لا تدخل في نطاق مهنته، بسبب خصوصية نظام قيمه الخاصة. بيد أنها لا تقام حذولاً لمعالجة هذه المشكلة،

هل تدعو الفاريزي أن لا يقبل نتائج في هذا الصبحان فقط، وتحيط المؤرخ
علمياً بأن أحكامه الأخلاقية ستكون عرضة للإهمال أو الهجوم.

فإذا كان الأمر كذلك، أي إذا كان المؤرخ متورطاً دائماً بأحكام قبيحة،
فمنذئذ يصبح من الأهمية بمكان ارتكاز تاريخه على أسس علمية معترف بها،
وإمكانية فصل وجهات نظره الأخلاقية عن الحقائق الواقعية.

(10)

الحجة الرابعة: وهي عملية أكثر مما هي فلسفية وتقوم على أساس
صحة الحكم الأخلاقي في التاريخ. يقول من غير زب هؤلاء الذين يصرون
على أن المؤرخ ينبغي أن يكون حكماً أنه من الملائم أن يستنكر المؤرخ
محاكم التفتيش ويعلي التسامح، ويحزن لمرق ويصعد الحرية، ويشجب هتلر
والإبادة الجماعية النازية ويتعجب بانتصار قوى التحرر. ولكن لماذا يجب أن
يخرج المؤرخ من طريقه إلى إدانة مثل هذه الأعمال أو مدحها.

والألتراض وراء هذا التوقع هو أنه ليس للفاريزي ذهن خاص، ولا
مقاييس أخلاقية، ولا قدرة على ممارسة الحكم، وهذا يعني أنه غير قادر
على تمييز بين العبودية والحرية، بين الاضطهاد والتسامح، لذلك فهو يعتمد
على المؤرخ ليقوم له بهذا العمل. هل أن القراء من الساذجة بحيث لا
يستطيعون معه أن يستخلصوا العبر من هذه الحقائق التي تقدم لهم. هل ثمة
خطر حقاً بأن الطلاب سيحبون لمرق أو سيستمعون بمحاكم التفتيش أو
سيهجون بيليب الثاني أو أدولف هتلر إذا لم يضع المؤرخ الأمور في
نصابها؟ واحتراته إذا لم يعرف القديس أن هتلر كان ساذجاً أخلاقياً، فإن ما
يقوله المؤرخ لا يمكنه أن يجعل الأمر في نصيبه! وإذا لم يعرف في ترواية
نفسه أن لمرق يفسد العبد والسيد على حد سواء، فمن ما يقوله المؤرخ لمن
يجعله متورطاً. ليس ثمة خطر حقاً في أن المؤرخ إذا اقتصب باستمرار دور

الحكم، فإن القارئ ربما يذوق الحكمة، وإذا أصح المؤرخ على معناه فإن
على أنهم غير أكفاء أخلاقياً، فإنهم ربما ينصرفون عن التاريخ تماماً إلى شكل
من أشكال الأدب أكثر نضجاً⁽¹⁴⁾.

إن هذه الحجة تتوقع من القارئ أن يكون على علم تام دائماً بخبر
كل حدث أو بأسرار كل واقعة تاريخية تمر عليه، وهذا موضح شك. فذلك
فإن الحاجة ماسة أن يقوم المؤرخ باستمرار بدور تسليط الضوء على ما يتوزن من
حقائق تاريخية يبرز جوانبها المختلفة وعللها القريبة والبعيدة وما يرتبط بها
من معاني، إذا أردنا من القارئ أن يقوم بعملية الحكم بنفسه.

ولا شك أن المؤرخ الذي ينال رضاها هو الذي يكتب روايته التاريخية
مستنداً إلى أصول البحث العلمي وبأسلوب يشير فكر القارئ، ويحفزه على
التأمل فيما يعرض له من حقائق، بحيث يجعله يقوم بنفسه بعملية التقويم
الأخلاقي.

كما أن قيام القارئ بهذه العملية يتطلب منه توسيع معلوماته التاريخية
وتعميقها وتدريب نفسه على المغامرة والتحليل والتفكير العلمي.

(14)

الحجة الخامسة: يمكن أن يطلق عليها اسم «محدود التخصصية». ليس ثمة
قارئ، يأتي كلياً وهو غير مستعد للتأمل في فصل من فصول التاريخ؛ فهو
يجلب معه ثقافته ونظريته الأخلاقية والفلسفية. وليس ثمة قارئ يقتصر دائماً
برواية واحدة بفصل مهم من فصول التاريخ. يمكن أن تكون عيني ثقة بأن
المؤرخين الذين يختلفون في تفسيراتهم لبعضها مشكوك اختلافاتهم متوفرة
وبالوفاء للبراهين. وبالتالي فإن الأخطاء، تصحح والآراء المتخالفة توضع في
مكتبها الصحيح. فإذا وجدنا مؤرخاً يدافع عن السياسة البريطانية في إيرلندا،
فإننا نجد أيضاً مؤرخاً آخر يعرض لها ويستنكرها. وإذا وجدنا مؤرخاً

يصف الرق في عبارات مضطربة، فإننا سنجد أيضاً مورخاً آخر يكشف عن شروبه وشاعته، وإذا وجدنا مورخاً يطع المسؤولية في نشوب الحرب العالمية الأولى مباشرة على الألمان، فإننا سنجد أيضاً مورخاً آخر يكون مستعداً أن يبين أن الروس والفرنسيين هم في الواقع من يجب أن يلام. لنضع المؤرخ يتعلم التواضع: أن القاريء لا يعتمد عليه في تاريخه كله، ولا يعتمد عليه في النرس الأخلاقي (40).

ذلك ما كان يحته الفينسوف الإيطالي الكبير كروتشه عندما كتب: «أما أولئك الذين يستندون إلى دعوى سرد التاريخ لكي يصخبوا بالقضاة ويوزعوا له الإذانات هنا والغفرانات هناك، وذلك لأنهم يعتقدون أن تلك وظيفة التاريخ، فيعدون بالإجمال، مجردين من الحسن التاريخي» (41).

وإذا كنا قد قلنا في تعليقتنا على الحجة السابقة بأن القاريء لا يكون على علم تام دائماً بتفاصيل كل واقعة تاريخية تمر عليه يخوله الحكم عليها، كذلك يمكن أن نقول هنا تعليقاً على هذه الحجة بأن القاريء لا يطبع باستمرار على جميع روايات المؤرخين وأحكامهم حول شخصية تاريخية كتابيون على سبيل المثال، بحيث يستطيع في النهاية أن يطور حكماً خاصاً به، وبالتالي فالخطر قائم دائماً في أن يتأثر القاريء بروايات وأحكام المؤرخين الذين يقتصر على قراءة مؤلفاتهم.

(12)

روري المعارضون للحكم الأخلاقي في التاريخ أن من المناسب أن يضيفوا ملاحظة أخيرة، وهي أنه يجب علينا أن لا نخلط الحكم الأخلاقي مع الحكم المهني. فالمعلم، في ميدان اختصاصه المهني، يمتلك نفس الالتزام الذي للقاضي والمعلم والطبيب والمعماري، فالقاضي الذي ينطق بالحكم، والمعلم الذي يعطي الدرجات، والطبيب الذي يشخص المرض، والمعماري

الذي ينتقد بنهاية معينة، لا ينغمس كل منهم في حكم أخلاقي ولكن يمارس حكماً مهياً. وهكذا فالمؤرخ الذي، بعد دراسة شديدة لكل المصطلح المتوفرة، وبعد تخلص نفسه من كل الهراء الذي يمكن أن يفسد رؤيته، ينتهي إلى أن روزفلت كان غير مسؤول عن الهجوم على بيرك غاربول (Haber) وإن سلوك حرب القرم قد تميزت بحماقات إجرامية، وإن كلفور وليس غاربول الذي يستحق شرف موحد إيطاليا، وإن شكبير وليس بيكورد كتب مسرحية هاملت، إذ أن ذلك يشكل واجبه المهني. ربما يخطئ، كما هو الحال بالنسبة للقاضي والمعلم والطبيب - فتلك فرمسة يتصدها المجتمع، فأحكامه ربما يكون لها معاني أخلاقية إضافية - ولكن من الصعب تجنبها، وعلياً أن نعلم أن نعملها⁴²¹.

إن هذه الملاحظة تفر بصعوبة تجنب الأحكام الأخلاقية من قبل المؤرخ، وتدعو القارئ أن يتفادها. إلا أن قيام القارئ بهذه المهمة ليس أمراً سهلاً، إذ كثيراً ما تختلط الحقائق التاريخية مع آراء المؤرخ الشخصية، وأحياناً تكون أحكامه خفية، وبالتالي فإنه يتطلب من القارئ، بذل جهد كبير بفصل الحقائق التاريخية الموضوعية عن عواطف المؤرخ الذاتية، كما يتطلب منه أن يكون على وهي بعبارة الفلسفة والأخلاقية. وبسبب صعوبة قيام القارئ بالمهمة المذكورة طلب البعض من المؤرخين أن يصرحوا من البداية بمواقفهم الخاصة.

وهكذا يظهر من الصحيح السابقة التي تعترف بحقيقة واقعة أخيراً المؤرخ بشكل مستديم في قضايا الأحكام الأخلاقية، إلا أن ذلك لا يعود إلى طبيعة مادته، ولا يدخل ضمن واجباته، وإنما يعود إلى عوامل ذاتية لا يستطيع التخلص منها.

ولكن دعاء هذه الصحيح يتفقون إلى هذه الأحكام بوصفها شيئاً زائلاً في عمل المؤرخ كونه بحثاً علمياً، وتمثل في أفضل الأحوال انفعالاً

الاهتمامات الأدبية في عرض نتائج البحوث التاريخية، وتنهبط في أسوأ الأحوال إلى مستوى الدعاية - فهي ليست تاريخاً بنفسها، ولكن استخدام معين له فحسب⁽¹⁴³⁾.

ويبدو لنا أن موقفهم يكون أقرب إلى الصواب لو أعطوا المؤرخ الحرية المطلقة في أن يصدر حكماً أخلاقياً أو أن يمتنع عنه؛ شريطة: قبل أن يفعل ذلك، أن يشرح رغبته في القهيم والتفسير والتعليل، ودون أن تكون هناك ضرورة باعتبار الحكم الأخلاقي من واجباته الرئيسية. وهذا في الحقيقة قريب من رأي الفيلسوف الألماني المعاصر أرنست كاسيرر⁽¹⁴⁴⁾.

المصادر

- 1 - الجان. ج. ويدجيري: التاريخ وكيف يفسرونه، ترجمة عبد العزيز تونين جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ص 67.
- 2 - المصدر السابق نفسه، ص 68.
- 3 - ول. ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الثالث (الفرس والبيج أو الحضارة الرومانية) ترجمة محمد بدوان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: بدون تاريخ، ص 440 - 441.
- 4 - د. أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1969، ص 104.
- 5- Carriger, Henry Steele: The Nature and the Study of History, Merrill Books, Columbus, Ohio, 1956, PP. 61 - 62.
- 6 - Ibid., 62.
- 7 - Ibid., 63.
- 8 - Aaron Lord, Essays in the liberal Interpretation of History, The University of Chicago Press, Chicago, 1967, PP. 351, 357, 359.
- 9 - إدوارد كور: ما هو التاريخ؟، ترجمة ماهر الكوازي وبيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986، ص 64.
- 10 - Butterfield, Herbert, Man on the Past, Cambridge University Press, Cambridge, 1959, P. 92.
- 11 - Ibid., P.94.
- 12 - Sach, Theodore Clarke: The Writing of American History From 1884 To 1934, Article in «American Historical Review» Vol. XL,

April, 1935, Number 3, P. 446.

- 13 - د. شاكِر مصطفى: التاريخ هل هو علم؟ مجلة «عالم أفكار»، المجلد الخامس، العدد الأول، إبريل - مايو - يونيو، 1974، ص 199.
- 14 - جون ديوي: المنطق: نظرية البحث، ترجمة د. زكي نجيب محمود، دار المعارف بمصر، 1960، ص 391.
- 15 - أرنست كاسيرر: مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية أو مقال في الإنسان، ترجمة د. إحسان عباس، دار الأندلس، بيروت، 1961، ص 320 - 321.
- 16 - Tray, William H., *Philosophy of History*, Prentice - Hall, Englewood cliffs, N.J., 1964, P. 24.
- 17 - Tray, William H., *History and value Judgments*. Article in «The Encyclopedia of Philosophy» Macmillan, New York, 1967, vol. 4, P. 26.
- 18 - Commager, *The Nature and the Study of History*, P. 63.
- 19 - إرنست كاسر: ما هو التاريخ؟ ص 64.
- 20 - Commager, *The Nature and the Study of History*, P. 64 - 65.
- 21 - Beard, Charles A., *Tact Noble Dream*. Article in «The American Historical Review», vol. XLII, October, 1935, Number 1, P. 83.
- 22 - Nagel, Ernest, *The Logic of Historical Analysis*. Article in «Readings» in the Philosophy of Science», Appleton - Century Crafts, New York, 1953, P. 602.
- 23 - Commager, *The Nature and the study of History*, P. 64.
- 24 - قسطنطين زيور: نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، 1967، ص 149.
- 25 - See: Commager, *The Nature and the study of History*, P. 64.
See also: Starley, D.M., *The Study of History*, Longman, London, 1972, P. 22.
- 26 - Commager, *The Nature and the Study of History*, P. 64.
- 27 - إرنست كاسر: ما هو التاريخ؟ ص 64.
- 28 - Commager, *The Nature and the study of History*, P. 64.
See also: Starley, *The Study of History*, P. 22.
- 29 - Gontschik, Louis, *Understanding History*, Alfred A. Knopf, New York, 1955, P. 10.

- 30 - Reuter, G.J., History, Its Purpose and method, Allen and Unwin, London, 1951, P. 253.
- 31 - د. هفت الشراوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص 60.
- 32 - Collingwood, The Nature and the study of History, P. 65.
- 33 - إدوارد كور: ما هو التاريخ؟ ص 85 - 86.
- 34 - The History of Herodotus, Translated by George Rawlinson, Great Books No. 6, Britannica, Chicago, 1952, PP. 97 - 98.
- 35 - Collingwood, The Nature and the study of History, PP. 65 - 68.
- 36 - إدوارد كور: ما هو التاريخ؟ ص 92.
- 37 - Collingwood, The Nature and the Study of History, PP. 68 - 70.
- 38 - Studer, The Study of History, P. 34.
- 39 - Collingwood, The Nature and the Study of History, P. 70.
- 40 - Ibid., P. 70 - 71.
- 41 - إدوارد كور: ما هو التاريخ؟ ص 86.
- 42 - Collingwood, The Nature and the Study of History, P. 71.
- 43 - Dray, History and Value Judgments, P. 26.
- 44 - أرمست كامبريدج: فلسفة الحضارة الإنسانية أو مقال في الإنسان، ص 219 - 220.
- انظر أيضاً:

- A - Reuter, History, Its Purpose and Method, P. 254.
- B - Colling, W.B., Philosophy and the Historical Understanding, Chatto and Windus, London, 1964, P. 204.
- C - Troiloff, Trygve R., Historical Thinking, Harper and Row, New York, 1967.

تعليم الرياضيات
على مشارف
القرن الحادي والعشرين
بعض المفوقات وإمكانات تجاوزها

بقلم

د. أحمد خالد محمد بختيت

كلية الآداب والتربية
جامعة قاريونس
بنغازي

تعليم الرياضيات على مشارف القرن العادي والعشرين، تحليل لبعض المعوقات وإمكانات تجاوزها

مقدمة:

منذ فجر التاريخ كانت للرياضيات مكانة متميزة بين العلوم بل أن مصطلح الرياضيات MATHEMATICS وما يقابله في اللغات الأوروبية الحديثة مأخوذة عن كلمة MATHEMA التي تعني في أصلها اليوناني القديم المعرفة أو العلم.

وإذا حاولنا أن نرجع للبحث عن أسباب هذه المكانة إلى تاريخ الرياضيات قلنا نجد أسباباً أوضح من الإمكانيات الهائلة التي قدمتها مبادئ الرياضيات لتلبية حاجات الإنسان ومطالبه الأساسية (أحمد خالد، 1977، 16 - 19).

- فلم يبدأ الإنسان العد حياً في ذلك لقط، وإنما لإحصاء ممتلكاته وتمييزها عن ممتلكات الآخرين.

- وكان ظهور نظام «المقايسة» حافزاً لتطور مجموعات الإنسان من العد، وبداية ظهور التلم العديدة.

- وعندما استقر الإنسان في مناطق معينة من الأرض، وتطورت معرفته بالزراعة ظهرت حاجة جديدة إلى معرفة أساليب قياس الأرض لتحديد

المساحات الخاصة بكل مواطن حسب الفيضانات التي تزيل العلامات المميزة لكل قطعة أرض. وليس مصادفة أن مصطلح الهندسة في اللغات الأوروبية الحديثة (GEOMETRY) يعني في اللغة اليونانية القديمة: قياس الأرض.

- بل أن ظهور الدولة كان مرتبطاً بتطور علم الحساب، فلم يكن من الممكن أن تظهر الدولة بوصفها تنظيمياً للمجتمعات البشرية دون تربي عمليات جمع الضرائب وتنظيم الجيش وإمداده، وبناء القصور والمعابد، وتهيئة نظم الري وغيرها من العمليات التي تتطلب حسابات معقدة.

ويقدر تطور المجتمعات البشرية لأنها كانت - وما زالت - تواجه مشكلات جديدة بحيث لا تسع المعلومات والطرق الرياضية المعروفة لحلولها، مما يدفع بالرياضيين إلى اكتشاف المزيد من الطرق والحلول الرياضية.

وهكذا تبقى الرياضيات في حالة تطور مستمر لسبب واحد على الأقل هو الحساب المتجددة للواقع ومشكلات الحياة اليومية.

وبالإضافة إلى هذا السبب اكتشف الإنسان بالتدريج القيمة المعرفية المنهية للرياضيات بين يديين العلم المختلفة، التي تستلزمها من دورها الفريد في خدمة هذه الميادين.

ويشير تطور ميادين المعرفة الإنسانية المختلفة تزداد حاجتها إلى استخدام الطرق الرياضية. بل لقد أصبح استخدام الطرق والأساليب الرياضية مقياساً تقدم العلوم، ومؤشراً على إمكانية حل المشكلات التي تتعامل معها بنجاح. ولا شك أن هذه المكانة المميزة للرياضيات قد أضفت نوعاً من «الوقار» حول المادة، كان من نتائجه الإيجابية الاحتفاظ لها بمكانة بارزة في مناهج التعليم على مر العصور. وربما يجوز لنا أن نعزو إلى هذه «الهالة» نظرة الكثير من الطلاب - بل والكبار في المجتمع، ومن قديم الزمان أيضاً، إلى الرياضيات على أنها مادة صعبة، وغير ممتعة، وغير قابلة للفهم.

فهل هي كذلك فعلاً؟

المشكلة:

وإن كانت كذلك - على الأقل من وجهة نظر البعض فقط - فما معوقات تدريس الرياضيات التي اكتسبتها هذه الصفات؟

وهل هناك من جديد - مع كل التقدم الذي أحرزته العلوم التربوية والنفسية على مشارف القرن الحادي والعشرين - يمكن استنساخه للتغلب على هذه المعوقات؟

هذه هي الأسئلة التي تهدف الورقة الحالية لإثارة الاهتمام بها، وتسعى للإجابة عنها. وإن كان الباحث لا يدعي تقديم إجابات وافية، إلا أنه يأمل أن تثير بعض الأفكار الواردة فيها مزيداً من المناقشات حولها، وهو هدف - في رأيه - كبير إن نجحنا في تحقيقه؛ لأنه بداية الطريق نحو تجاوز هذه المعوقات.

وتجدر الإشارة إلى أننا في هذه المحاولة لا نجد غضافة في الاستعانة بالخبرات العالمية والانطلاق من حيث وصل الآخرون رغم اعترافنا بخصوصية المجتمع العربي بل وربما كل جزء من هذا المجتمع الواحد في مثل الظروف الراهنة، وذلك انطلاقاً من قناعتنا بأنه على مستوى السلطة والأهداف لا بد من الخصوصية بقدر ارتباط هذا المستوى بالمجتمع الذي نتجرب فيه التربية.

أما على المستوى الإيماني، فربما يتصل بالأساليب والتقنيات والتفاصيل الفنية للعمل التربوي، فإن الإنسان العربي يتعلم الرياضيات كما يتعلمها أي فرد بشري آخر، وهو يكتسب الاتجاهات وطرق التفكير كأني إنسان آخر - فهناك وحدة في العقل البشري ليس من الحكمة تجاهلها حرصاً على الوقت والجهد وتلافياً لتكرار مسيرة التطور البشري (أحمد خالد، 1989، 4).

ولقد رأى الباحث أن تولد الموضوعية في استجلاء الوضع لواقع لمعلومات تدريس الرياضيات، والرغبة في ألا تكون الإجابات عن الأسئلة السابقة مبتسرة أو سطحية يقتضيان أن يجري تحليل جوانب المشكل ومناقشتها في ضوء السياق التاريخي لتطور تدريس الرياضيات.

إن استقراء تاريخ نظام تعليم الرياضيات التقليدي (9 - 8، 1984، Peter Damerow et al) يشير إلى أن هذا النظام قد تكون على مر العصور وانخذ شكلاً مستقراً خلال القرن التاسع عشر، ومن الضروري أن نشير إلى أنه رغم مشاركة الكثير من الشعوب والحضارات الإنسانية في إرساء معالم هذا النظام عبر العصور، إلا أن صورتها المشار إليها قد اضطرت وتفتت بثقافة الطبقات الحاكمة وقيمتها وفعاليتها في المجتمعات الأوروبية التي ظهر فيها، والتي كانت لها السيطرة على العالم بشكل سافر في ذلك الوقت.

ولا يوجد خلاف بين المتخصصين في تدريس الرياضيات على أن التاريخ لبداية الاهتمام العالمي بتطوير تدريس العادة في القرن العشرين يرجع إلى عام 1908، حين انعقد في روما مؤتمر الرياضيات العالمي الرابع.

فقد تشكلت آنذاك لجنة عالمية لتطوير تدريس الرياضيات برؤساء الرياضي الشهير فيلكس كلاين (1849 - 1955). وانتهت أعمال هذه اللجنة - كالمعتاد - بتقديم مجموعة من التوصيات، لا ترقى أساساً في تلخيصها هنا بهدف التعرف على الوضع السائد في بداية القرن:

ففي مشرق التعليم الابتدائي أوصت اللجنة بزيادة دور الهندسة لبر مقرر الحساب، وتغيير طبيعة التمارين لربطها بالبيئة، والاهتمام بالوسائل التعليمية في تدريس الحساب. أما في المدارس الثانوية، فقد كان التوجه منصباً على تحقيق الربط بين مختلف فروع الرياضيات وكذلك بين الرياضيات والنظرية، إلى جانب إدخال مبادئ التحليل الرياضي والهندسة التحليلية لبر المنهج وتحقيق التتابع بين دراسة الرياضيات الأولية والعالية، كما أوصت

اللجنة بتغيير طبيعة المسائل وطرق حلها بما يتماشى وتطوير تفكير الطلاب (أحمد خالد، 1977، 22 - 23).

وبعد مرور نصف قرن على هذه البداية، في نهاية الخمسينات تجددت الحركة العالمية لتطوير الرياضيات المدرسية بوعصفها نتيجة مباشرة للمسابق العلمي حيثل بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي في ميدان السلع وخزوا الفضاء. فعلى أثر إطلاق التابع الصناعي الأول للأرض «سبوتنيك» من قبل السوفيت عام 1957، ولما كان التقدم العلمي والتقني لأي مجتمع يعتبر دالة لمستوى تعليم أبنائه - فقد تقرر في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه السرعة إحداث تغييرات في مناهج الدراسة، وقد اعتت هذه التغييرات في العظام الأون بمناهج الرياضيات والعلوم.

وفي السنوات التالية انتقل هذا الاتجاه إلى أوروبا، ومن ثم انتشر في كل أرجاء العالم ومن بينها المنطقة العربية، حيث شهد النصف الثاني من ستينات هذا القرن حركة عالمية متنامية لتطوير تعليم العلوم الأساسية وفي مقدمتها الرياضيات.

وقد كانت أهم «شعارات» هذه الحقبة: «النهاء عصر الحفظ الآلي لحقائق الرياضيات الأولية» و «إدخال مفاهيم نظرية الفئات والاحتمالات وغيرها من الموضوعات الرياضية الحديثة» إلى مناهج الرياضيات. كما انضمت هذه الفترة بتعدد المشروعات المقترحة لتطوير تدريس الرياضيات (أحمد خالد، 1977، 24 - 27).

وقبل مرور عشرين من الزمان على بداية هذه الحركة، وبالتحديد في أواخر السبعينات، ومن حيث انطلقت الدعوة إلى تطوير مناهج الرياضيات - أي من الولايات المتحدة - بدأ شعار «العودة إلى الأساسيات» يلقي المزيد من القبول في أوساط المختصين في تدريس الرياضيات، وبدأت فلال كثيرة من الشك تتجمع حول نتائج تلك الحركة وجدواها.

ولعلنا الآن - في بداية التسعينات - وبعد مضي أكثر من ربع قرن على هذه الحركة العالمية لتطوير تدريس الرياضيات نستطيع أن نقول دون تجليز كبير أنها لم تسفر عن النتائج التي كانت متوخاة منها، ولهي مقدمتها الأرتقاء بمستوى الإعداد الرياضي للشباب في سن المدرسة، ونكتفي للتلييل على ذلك بالاقبياسات التالية:

- من الاتحاد السوفيتي يكتب رجاءتوفسكي قائلاً: «رغم اهتمامنا بصد إمكانية تطوير عمل المدرسة بشكل سريع، إلا أن الفترة الانتقالية (بالنسبة لتطوير تدريس الرياضيات) قد طالت، وأصبحت تثير القلق بين العديد من المدرسين. ومن جهة أخرى ما زالت التغييرات (في مناهج الرياضيات) تحمل طابعاً جزئياً، ولم تؤد بعد إلى ارتفاع محسوس في مستوى إعداد طلاب المرحلة الثانوية» (ROGANDOVSKY, N.M., 1989, 3).

- في الولايات المتحدة الأميركية تشير الإحصاءات إلى أن 313 من خريجي المدارس الثانوية يعانون من الأمية الوظيفية، وترتفع هذه النسبة إلى 40% لدى السود (Vaskresenskaya, Mirina, 1989, 120) ونصل هذه النسبة بين الأمريكيين الراضين إلى 22% (Golobetz, Z.Y., Ostroumova, N.G., 1989, 158). كما كشف تقرير اللجنة الوطنية (الأمريكية) للضيق التربوي المعنون «أمة في خطر» عام 1983 عن جوانب نقص كبيرة في عمل النظام التعليمي. ويقترح تقرير لوزير التربية الأمريكي بعنوان «التربية الأمريكية - كيف تعمل بنجاح» عام 1988 اتجاهات التطوير المستنبطة لتلافي هذا النقص في: إثراء المناهج الدراسية، واستقطاب العناصر الجيدة لها للتدريس، والعمل على ضمان تكافؤ الفرص للطلاب (أحمد الطويل، 1988، 121 - 122).

يل أن تقرير لجنة المجلس الوطني للعلوم في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1983 المذكور ليبحث وضع تدريس الرياضيات ولعلنا

الطبيعية والتقنية في المدارس الأمريكية يشير إلى أن التدريس الناجح لهذه المواد يتطلب تغييرات جذرية في محتوى مناهج التعليم وفي طرق التدريس (Golombeva, Z.Y, Ostnumova, N.G. 1989, 141).

وفي المؤتمر الدولي الخامس عن تدريس الرياضيات ICME 5 عام 1984 يعلق اثنان من الباحثين على نتائج حركة تطوير تدريس الرياضيات العالمية في الستينات كالتالي: «لعل أفضل ما يمكن قوله عن إدخال الرياضيات الحديثة على نطاق واسع في مناهج التعليم: أن تدريسها لم يسهل كثيراً من تدريس مناهج الرياضيات التقليدية» (Peter Damerow, Ian Westbury, 1984, 22).

وبخلاصة هذا الوضع أن الشكوى ما زالت مستمرة من تدريس الرياضيات، وما زال السعي دائماً في مناطق مختلفة من العالم لتطوير تدريس العادة مع اختلافات واضحة عما تميزت به حركة الستينات - على الأقل في درجة الحماس. ويمكن المخصصون حالياً على دراسة وتحليل المداخل التي لم تثبت جدواها، وتتمس آفاق جديدة للتطوير.

وفي هذا السياق التاريخي يمكننا أن نلاحظ قدراً كبيراً من الاتفاق بين المخصصين في تدريس الرياضيات من مختلف الأنظار على تحديد ما منطلق عليه مجموعة من «الفروض» بوصفها معوقات محتملة لتعليم الرياضيات المعاصر.

إن تسميتنا لهذه المعوقات بالفروض إنما ترجع إلى الرغبة في دقة تشير من جهة (فليس تديناً ما يسمح بالجزم أن هذه «العوامل» هي السبب وراء الفشل في تدريس الرياضيات)، ومن جهة أخرى فإن تبنى المنهج العلمي في التعامل مع مشكلات تدريس الرياضيات يقتضي أن نخبر هذه الأسباب المحتملة: الأمر الذي يكسبنا الكثير من خصائص الفرض العلمي. ولعله من المناسب أن نشير إلى أن التحقق من صحة هذه الفروض

بقتضي اختيار مرتباتها، ولو قلنا أن طرق التدريس المستخدمة هي طرق العوائق أمام فهم الطلاب لمنهج الرياضيات، فإن عليك أن تغير من الطرز المستخدمة، ثم نخبر هذا الفهم، ولقد تؤدي النتائج صحة هذا الفرض، وقد تدحضه، وهكذا الحال مع جميع المعوقات المحتملة التي سيرة ذكرها.

وعلى هذا الأساس، فإن هذا العمل ليس بمقتدر الباحث فرد أو مجموعة صغيرة من الباحثين إنجازها، وإنما هو من صميم عمل مراكز الأبحاث التربوية والرياضية بالتعاون مع المختصين في الجامعات.

كما نود أن تشير أيضاً إلى أن ما سناقشه في الجزء التالي هو بعض المعوقات، فلا يجوز اعتبار هذا العرض حصراً شاملاً لمعوقات تدريس الرياضيات. ولا بأس من الإشارة إلى أن ما يهمني في المقام الأول هو تلك الجوانب الفنية التي ترتبط بالعناصر الرئيسية في العملية التعليمية وهي - دون ترتيب - المنهج والمعلم وطرق التدريس.

وبعد هذه التحفظات، نتقل الآن إلى استعراض المعوقات - الفروض التي توصل إليه الباحث:

1 - إن تحليل الظروف التاريخية لنشأة الحركة العالمية لتطوير تدريس الرياضيات والعلوم في بداية الستينات في الولايات المتحدة الأمريكية يشير إلى طابع السرعة الذي اتسمت به هذه الحركة، وذلك لرغبة القادسين عليها في الوصول إلى النتائج المرجوة من التطوير في أقصر وقت ممكن في إطار السياق العلمي المحكوم بين الدولتين العظميين في ذلك الوقت. ومن المتوقع في مثل هذه الحالة أن ترتب على ذلك انعكاسات سلبية على مسار حركة التطوير في السنوات التالية وهو ما جرى.

2 - في نفس الإطار، وعندما نحاول فهم مسار حركة التطوير في الستينات في سياقها التاريخي، فإن نجد تفسيراً محتملاً آخر لعدم نجاحها في تحقيق الأهداف المرسومة لها. رأيي التفسير هذه السيرة من «ميكانيكيات»

التغير المرتبطة بالطبيعة البشرية: إن تراكم السليبات في أي مجال من مجالات النشاط الإنساني يصل إلى حد معين يكون التغير بعده حتمياً. وعادة ما يكون التغير في هذه الحالة راديكالياً، ثم سرعان ما تتكشف سليات لنوضع الجديد، وبدأ «البنود» في التراجع بين القديم والجديد إلى أن يستقر في وضع ثالث مغاير لكليهما.

ويؤكد استعراض أهم مراحل حركة تطوير تدريس الرياضيات في النصف الثاني من القرن العشرين صدق هذا التحليل، حيث تناظر هذه المراحل: مرحلة الرياضيات التقليدية والانتقال منها إلى الرياضيات الحديثة، ثم التراجع، من خلال التفكير بـ «العزلة إلى الأساسيات»، فالمرحلة الحالية التي ترفع شعار الرياضيات للجميع وتبني لذلك مداخل جديدة.

3- إن المشروعات العديدة لتطوير تدريس الرياضيات التي ظهرت خلال العقود الأخيرة قد أولت اهتمامها الرئيسي تطوير محتوى المنهج، وجرى ذلك غريباً في إطار النموذج الأكاديمي رفقاً بما اصطلاح على تسمية الرياضيات الحديثة. وقد ترتبت على ذلك مجموعة من النتائج منها:

1.3- أنه بناء على الرفضات الطموحة لبعض المتخصصين من المشرفين على برامج التطوير أصبحت مناهج الرياضيات في التعليم العام تبدو كما لو كانت موجهة لإعداد رياضيين، في حين أن نسبة قليلة جداً من طلاب التعليم العام هي التي تصل إلى المستوى الجامعي، ثم إن نسبة أقل منها هي التي تتخصص في دراسة الرياضيات: ففي فرنسا مثلاً تشير الإحصاءات (Jean- Claude Martin, 1984, 13) إلى أن نسبة أقل من 10% من الطلاب الذين يدخلون المرحلة الثانوية تحضن على «الباكالوريا» في التخصص العلمي، ثم إن أقل من 12% من هؤلاء الطلاب يواصل دراسته العليا في الرياضيات والعلوم المرتبطة بها.

ويرى بعض الباحثين أن مناهج الرياضيات التي تعكس هذا الوضع هي

مصدر لكثير من أسباب الفشل في تعليم المادة، بل أنها قد تكون مصدراً أيضاً لتكوين الاتجاهات السلبية نحو المادة والنفور منها (Ivan - Claude Martin, 1984, 13).

2.3 - ثم إن المحاولات الدائمة لتطوير منهج الرياضيات قد انتهت به عن الطابع الثقافي العام للمادة، الذي ينبغي أن يعزز تدريسها في برهة التعليم الأساسي، والذي يتسم أساساً بإمكانية استيعابه بل واستخدامه من قبل جميع الطلاب بوصفه حياً أدنى للمعرفة الرياضية اللازمة لكل مواطن سواءً للحياة في المجتمع أو لمواصلة الدراسة.

3.3 - يرتبط بالتقطين السابقين ما ظهر في التثنيات والسبعينات من هذا القرن من دعوة إلى تقليل الفجوة بين الرياضيات بوصفها عملاً والرياضيات بوصفها مادة دراسية. وهي دعوة لهاها البعض (ويبدو أنها قلقة) بمعنى التقريب بين الطرق المستخدمة للكشف في الرياضيات، والطرق المستخدمة في تعلمها، والنظر إلى الرياضيات العنصرية على أنها مادة واحدة كالرياضيات.

ويبدو أن بعضاً من المشرطين على برامج تطوير تدريس الرياضيات قد فسروا هذه الدعوة في اتجاه الارتقاء بمستوى الرياضيات المدرسية إلى مستوى العلوم الرياضية وهو تفسير يتناسب مع متطلبات المادة والمتخصصين لها أكثر من تناسبه مع مستوى معظم الطلاب وحاجاتهم. وانعكس هذا الاتجاه على المنهج المدرسي في شكل نقل منظومة من المعلومات الرياضية المتصلة والمتدرجة في صعوبتها فيما يفتق عليه جان كزود مرتين «الرياضيات لأجن الرياضيات ذاتها» (Ivan - Claude Martin, 1984, 13).

4.3 - وفي إطار مناهج الرياضيات الحديثة أيضاً تجدر الإشارة إلى أن الكثير من المصائب التي تم إدخالها إلى محتوى المنهج لم تنل العناية الواجبة من حيث التحقق من مدى مناسبتها لمستوى الطلاب في الأعمال

المقصودة. وربما تكون قد وقعت مبالغة في تقدير قدرات الطلاب في الأعمار المبكرة على التجريد. وعن ذلك كتب أولدهام مستقداً مناهج الرياضيات المطورة في هولندا: «رأياً كانت المزايا (لهذه المناهج) من حيث دلالتها الأكاديمية، فإنها لا تبدو ملائمة للكثير من الأولاد والبنات ممن لا يملكون طموحات أكاديمية» (Quadding, 1985, 80). ومن الاتحاد السوفيتي كتب بوثيراجين: «لقد تبلى مؤلفو الكتب المدرسية الحداثيّة مدخلاً يستند إلى نظرية القدرات التي تتميز بمستوى عالٍ من التجريد والتي تتطلب مستوى معيماً من الثقافة الرياضية لا يتوفر، ولا يمكن أن يمتلكه أطفال المدرسة. بل أن معظم المدرسين لا يملكونه... وقد كانت نتيجة ذلك: الشكليات في التدريس والابتعاد بالرياضيات عن الحياة الواقعية» (Quadding, 1985, 80) وفي مؤتمر دولي لمناقشة تدريس الهندسة عام 1982 كتب بنجن Ringen في تعقيبه على أعمال المؤتمر: «عندما نتكلم عن تدريس الهندسة يجب ألا ننسى المتعلم. لقد كان هذا هو الخطأ الكبير لبرامج «الرياضيات الحديثة»: الكثير من التفكير للرياضيات، والقليل للأطفال» (Quadding, 1985, 86).

5.3 - ومصدر آخر محتمل للمحوقات يبدو للوهلة الأولى غريباً، وإن لم يكن كذلك بالنسبة للمشتغلين بالبحث العلمي: لقد قاد حركة التطوير في معظم المجتمعات أفراد وجماعات يملكون من الخبرة والحماس ما أهلهم لإحراز نجاحات لا تُنكر، وكان من بينهم رياضيون كبار ونخبة من المتخصصين في تدريس الرياضيات، ومدرسون من الرواد. وحضت التجارب الأولى (وهي عادة على عينات صغيرة) نتائج طيبة، إلا أن نتائج تعميم هذه التجارب لم تكن مشجعة. وللتدليل على ذلك نورد المثالين التاليين:

في بداية السبعينات كان الرياضي والمربي الشهير كولموجوروف - أحد قادة حركة تجديد الرياضيات في الاتحاد السوفيتي - يقوم بنفسه بتدريس المناهج المقترحة للطلاب في بعض مدارس العاصمة موسكو، ويعقد حلقات

بحث ومناقشة دورية مع المدرسين والخبراء في تدريس المادة لتذليل الصعوبات التي تواجه تطبيق المناهج الجديدة، وكانت التجربة تسير بتجاريح وعندما سمعت المناهج الجديدة على كامل النظام التعليمي لم تكن النتائج باهرة، وبدأت سلسلة من التعديلات لم تنته حتى الآن.

حدث هذا في الاتحاد السوفيتي الذي كان يعتبر معقلاً من معلمي تدريس الرياضيات في العالم، والذي كان المستوى العالي لإعداد الرياضيين فيه عاملاً رئيسياً وراء ظهور فكرة تطوير مناهج الرياضيات.

أما المثال الثاني فمن منطقة أخرى من العالم، من بابوا بينيا الجديدة حيث كان زونطان دينيز في منتصف الستينات يقوم بتجاربه المشهورة على تعليم الرياضيات الحديثة لأطفال المدرسة الابتدائية، وكانت النتائج أيضاً باهرة، ونقلها المختصون في دول العالم للاستعانة بالطرق التي ابتدعها دينيز في تقديم الرياضيات الحديثة للأطفال.

وبعد عقد من الزمان كتب راندال سوليني مدير المشرع الوطني للرياضيات بابوا (Peter Damrow, Ian Westbury, 1984, 22): إنه بعد محاولات مكثفة لتكييف وتعديل مناهج دينيز للظروف المحلية، عجزت المدرسة عن مواجهة احتياجات غالبية الطلاب، وأصبحت هذه المناهج صالحة فقط لفتة قليلة من الطلاب ذوي القدرة العالية.

6.3 - ومن جهة أخرى فإن تحليل مشروعات التطوير العالمية في هذه الحقبة، بدأ منذ الثمانينات يتقد إهمال البعد الثقافي والاجتماعي في مناهج الرياضيات الحديثة المقترحة لمناطق مختلفة تنتمي إلى العالم الثالث، وذلك انطلاقاً مما يلي: إن نظام التعليم الحديث في معظم دول العالم الثالث تكون في ظل الاحتلال فكانت مناهجه منقولة عن مناهج الدول الأوروبية المستعمرة التي كانت بدورها معدة لتعليم النخبة تعليماً يؤهئها للفرص الوظيفية العليا في جهاز الدولة وليس لممارسة الأعمال الإنتاجية والخدمية

في المجتمع - وكان من سمات ذلك خلبة التعليم الإكاديمي على المهني، الأمر الذي انعكس على مناهج الرياضيات في دول العالم الثالث من خلال الاهتمام بالتدريب على اكتساب المهارات الحسابية وحفظ حقائق ونظريات الهندسة، وحتى عندما وصلت أحداث حركة تطوير تدريس الرياضيات إلى مدارس دول العالم الثالث في منتصف الستينات، فقد كانت هذه المناهج وما زالت في أماكن كثيرة - نسخاً تطاوت قليلاً في درجة تشابهاها مع المناهج المقترحة للتجريب في الدول المتقدمة صناعياً التي تختلف عنها بشكل جلي في المناط الحياة والإنتاج وفي أوضاعها الاجتماعية والثقافية، بل وفي عمق مؤسسة التعليم بها وإمكاناتها.

ولا شك أن تدريس أي مادة يتأثر بالأهداف الاجتماعية والتربوية للمجتمع الذي يجري فيه تدريسها، والتي ينبغي أن تكون عاملاً حاسماً في اختيار محتوى المنهج. إن الرياضيات مهما بلغت درجة تجريدها ليست خارج الثقافة، وتدريسها محكوم بالاعتبارات الاجتماعية والتاريخية. وحيث أن كل محاولة للخروج عن هذه القاعدة لم تكن بالنجاح، لقد تزايدت قناعة المختصين في مجال تطوير تدريس الرياضيات بضرورة ربط المادة بحياة الإنسان، وأصبح وضع مناهج الرياضيات في سياقها التاريخي والثقافي في كل مجتمع واحداً من الاتجاهات الأساسية في تطوير مناهج الرياضيات (David Wheeler, 1986, 62).

7.3 - ومشكلة أخرى نعتقد أنها تمثل أحد المعوقات المرتبطة بالمنهج، التي تواجه تدريس الرياضيات وهي مشكلة الانطباعات التي تولدها مناهج الرياضيات السائدة لدى الطلاب. فالطلاب الأقل نجاحاً يتعلمون عدداً القليل من المادة، بينما يحصل الطلاب الأكثر نجاحاً في تكوين فهم صحيح لمناهج الرياضيات (David Wheeler, 1986, 50).

ويعتقد الباحث أن إمكانات الرياضيات بوصفها علماً لم تختلف في

منهج الرياضيات لإعطاء صورة صحيحة عنها للطلاب. إن انطباع الطلاب - والكبار - عن المادة أنها مجردة (بمعنى غير واقعية) هو انطباع نال. صحيح أن من أهم ملامح الرياضيات الدرجة العالية من التجريد التي تضفي إليها، ولكن معنى أن مجرد هو «أن تتجاوز فروقاً معينة، وأن تعامل الأشياء - التي هي مختلفة فعلاً - كما لو كانت من نفس النوع تمهيداً لعمل تقارب ذات عمومية كبيرة» (J. Weisinger, 1969, 17).

وإذن فالمجردات التي تتعامل بها الرياضيات هي في الأصل خصائص لـ «أشياء» حقيقية موجودة، وإذا كان مفهوم العدد (2) مثلاً هو مفهوم مجرد حيث لا يوجد شيء حقيقي اسمه اثنين، إلا أنه توجد «ثنائيات» كثيرة في الواقع.

إلا أن منهج الرياضيات الذي يقدمها «بصورة مجردة» يوحى بجان المادة ويشعر الطلاب بالعجز عن دراستها، وتكاد هذه الصورة تصبح مرضية بدليل ظهور مصطلح كـ «قلق الرياضيات Mathematics Anxiety» (الذي توحيه ووليزيرود)، الذي - وإن كان مصطلحاً جديداً - فهو تعبير عن ظاهرة قديمة (David Wheeler, 1986, 61).

8.3 - لقد أشرنا في مقدمة هذه الورقة إلى الطابع التطبيقي للرياضيات وإلى أن أحد الدوافع الرئيسية لتطورها كان تلبية حاجات الإنسان المتزايدة. بل أن كثيراً من المخصصين يرى أن الخط الفاصل بين ما يسمى بالرياضيات البحتة والرياضيات التطبيقية هو خط «رهيمي» إن جاز التعبير، فالرياضيون أعظم شغفوا أنفسهم دائماً في كلا الاتجاهين:

- فأرخميدس مثلاً لم يقدم إنجازات حاسمة في الرياضيات وحسب وإنما في الميكانيكا والفيزياء أيضاً؛

- وباسكال وليبنز لم يقتريا مساهما بتطويريهما الرياضية الحديثة فقط، بل عملاً في تصميم آلات حاسبة؛

- وجاوس الذي وصل إلى نتائج باهرة في ميدان يبدو بعيداً عن التطبيق
نظرية الأعداد، قدم أيضاً إلى الرياضيات طريقة الحريجات الصغرى، كما
قدم أيضاً أفكاراً أساسية للإحصاء.

- ولون نيومان مع إنجازاته الباهرة في ميدان يبدو غاية في التجريد
نظرية الفراغات الخطية، كان عملياً في تطوير الحاسبات الإلكترونية،
كما قدم مدخلاً جديداً من خلال نظرية الألعاب لتناول مشكلات الاقتصاد
(J. Weisinger, 1969, 11).

وغير ذلك من الأمثلة كثير في تاريخ الرياضيات وحاضرها.

ولذلك فمن المستغرب ألا يتعكس هذا المظهر المهم للرياضيات في
مناهجها المدرسية رغم إمكاناته الهائلة التي تهيء الفرصة لأن تكون
المفاهيم المقدمة للطلاب ذات مغزى. . ناهيك عن الأمل في أن ترتبط هذه
التطبيقات بحياتهم اليومية.

9.3 - ومن جهة أخرى فإن جزءاً كبيراً من منهج الرياضيات - يتمثل في
التعارين والمائل - لا تستغل إمكاناته إلا في التدريب على الحساب بعض
المهارات الجزئية، وربما إن أسي، استخدامه يؤدي إلى تكوين اتجاهات
سلبية نحو المادة. طالتعارين الرياضية تظهر غالباً بصورة منفصلة لا توجد عادة
في الواقع حيث يجد التلميذ في هذه التعارين جميع المعلومات اللازمة للحل
ولا شيء غيرها - فكيف نتوقع أن يبنى ذلك أبسط مستويات التفكير؟ لا سيما
أنه في الواقع - عندما يتعامل الفرد مع مشكلات حقيقية - فإن عليه أن يفكر
في تصميم النموذج الرياضي للمشكلة، وأن يختار طريقاً للحل، وأن يستبعد
المعلومات غير الضرورية، وأن يبحث عن المعلومات الناقصة التي غير ذلك
من أساليب حل المشكلات.

10.3 - وتود أن نتوقف أيضاً عند أحد الجوانب الأخلاقية في تدريس
الرياضيات في العقود الأخيرة، التي نعتقد أن المنهج مسؤول عنها، وهو

الموقف من استخدام الحاسبات الصغيرة وأجهزة الحاسب الآلي الشخصية

لقد دارت المؤسسة التربوية استخدام هذه العتجزات التقنية لفترة من الزمن، ويبدو أنها امتصت بعد ذلك. وبدأ نوح آخر من الخلاف حول مكان تدريس الموضوعات المرتبطة بالحاسب الآلي. وهل تنبع لها منافع الرياضيات أم ينبغي استحداث مادة أو مواد جديدة لهذا الغرض؟

والواقع أن اختراع الحاسبات الألكترونية يعتبر بداية التاريخ للثورة العلمية التقنية المعاصرة التي يكمن جوهرها في الاستبدال الجزئي لبعض وظائف العقل البشري - مثل حفظ المعلومات ومعالجتها عند تنفيذ الحسابات المعقدة واتخاذ القرارات - بالألات الحاسبة. أننا نعتقد أن العبرة الكبرى لهذه الآلات - من الناحية التربوية - تتمثل في تحرير الإنسان من ذلك الجزء من العمل العقلي الذي يمكن تفويضه ووضعه في خطوات محددة يمكن لألة تنفيذها، ومن ثم تلحاح له الفرصة لتوجيه مجهوده إلى النشاطات الإبتكارية والأعمال التي لا يمكن لألة تنفيذها (أحمد خالد، 1977، 90 - 91). وقد تأتي مسؤولية منهج الرياضيات؛ حيث لا بد من إعادة النظر في موضوعه التي تهتم باكتساب المهارات الحسابية والتدريب عليها باتجاه تقليصها، من أن يرتبط ذلك بتضمين الموضوعات البديلة التي تساعد على تنظيم تفكير الطلاب، وتوفير المستوى المناسب من الدقة والبيئة المنطقية المحكمة في تحليلاتهم وتفكيرهم، التي تملك الموضوعات المرتبطة بالحاسبات الألة الكثير من الإمكانيات لتحقيقها.

لقد أصبحت مهارات تجهيز المعلومات ووضع منطقات (الجوراليميات Algorithms) حل المسائل والمهارات الأوتية البرمجية للحاسبات في الوقت الراهن مطلباً متزايد الأهمية بين متطلبات (أند) الشغفي العام لكل مواطن يعيش ويعمل في العقد الأخير من القرن العشرين. ولعلنا لا نغالي إن قلنا أنها أصبحت تنافس المهارات الحسبية التقليدية في

مكانتها من المنهج المدرسي : أو هكذا يجب أن تكون .

173- ولعلنا في ختام تشخيصنا لمعوقات تدريس الرياضيات المرتبطة بمتاهج المادة نشير إلى ما أحدثه العلم المعاصر من تحولات جذرية في حياة الإنسان: إذ إنجازات علمية هائلة مثل كشف أسرار الذرة، وتصميم وتطوير الحاسبات الإلكترونية بشكل مستمر، وغزو الفضاء، والسيرناتيفيا أصبحت خطوات متواضعة أمام الأفاق الخطيرة التي تفتحها البيونيكيا Bionics، والهندسة الوراثية (تربية الأعضاء البشرية، والتطورات الكبيرة في ميدان الاتصالات والطاقة والإلكترونيات (أحمد خالد، 1989، 6). كل ذلك توصل إليه الإنسان خلال أربعة عقود، وكان للرياضيات دور بارز فيه، وعليه فقد كانت المطالب المتغيرة والمتزايدة من قبل المجتمعات المعاصرة نحو مستوى الإعداد الرياضي لأبنائها - وما زالت - تفرض صعوبات متفاقمة تمثل عائقاً إضافياً للعاملين في تطوير المنهج.

تأسباً على ما سبق، قاننا نستخلص من تجارب حركة تطوير تدريس الرياضيات خلال العقود الأخيرة أن تغيير منهج الرياضيات ليس بالسهولة التي تتوهمها، ولم ينجح حتى الآن في تلبية حاجات المجتمعات المعاصرة. إن علينا أن نعي هذه النتيجة جيداً، وأن تكون دائماً نصب أعيننا عند الإقدام على خطوات جديدة على طريق التطوير.

وليس أدل على ضخامة المعوقات المرتبطة بمحتوى منهج الرياضيات المدرسية وتنظيمه من إجماع أكثر من ألفي خير في تدريس الرياضيات يتعمون إلى 69 بلداً في إطار المؤتمر الدولي الخامس حول تدريس الرياضيات ICME 5 في أغسطس 1984 على أن السؤال الرئيسي لتدريس الرياضيات آنذاك (1984) وللغد القادم سيكون:

ما منهج الرياضيات المدرسية الملائم لحاجات معظم الطلاب؟
 كان هذا على مستوى المتاهج، فما الحال بالنسبة لإعداد معلم الرياضيات؟.

4 - تشير الكثير من الأبحاث والتجارب المنشورة في العقد الأخير إلى أن إعداد معلم الرياضيات هو الحلقة الأضعف في عمليات تدريس لمدى انظر مثلاً:

(روبرت موريس ، 1987، ROGANOVSKY. 1985, MORRIS (ed.), 1989). وعلى مستوى المدرسة الابتدائية، يشير كين كليفتس إلى أن واحداً من أصعب المشاكل التي تؤثر في توعية تعليم الرياضيات . . . إن إعداداً كبيراً مما يتخفى عن المعلمين مؤهلون بالحد الأدنى من المؤهلات في الرياضيات، بالإضائة إلى أن اتجاهاتهم نحو المادة سلبية وضيقة (كين كليفتس، 1987، 189).

ولا يخفى على المشتغلين بالتربية والتعليم أن العدرس هو مفتاح النجاح والفشل في العملية التعليمية، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نوضح قدراً كبيراً من المعوقات التي تواجه تدريس الرياضيات، والتي تستند إلى إعداد المعلم.

وبهنا هنا أن تشير إلى أن النقد في هذا الخصوص موجه أساساً إلى برامج إعداد المعلم وتدريبه، وليس إلى شخصه. ليس ذلك مجاملة للمعلمين - وهم يستحقونها دون شك - ولكنه تعبير عن الواقع، فإدراك المعلم عند تدريسه للرياضيات هو نتاج هذه البرامج. ولذلك، فإن التحليل لنابي مكرس لمحاولة فهم الظروف التي أدت إلى الوضع الحالي للمعلم في بلادنا سعياً لفهم معوقات تدريس الرياضيات:

1.4 - إن التوسع السريع للتعليم الأساسي في مجتمعات العالم الثالث، والتعليم الثانوي في الدول المتقدمة مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين قد ارتبط بالسرعة والشمول في إعداد المعلمين، وربما أدى في بعض الأحيان إلى الإهمال بالمراد فور مؤهلين للتدريس. وفي مقابلة مع اثنين من الأساتذة الكنديين الزائرين لجامعة قاريونس خلال الشهر الماضي (أكتوبر

91) اتضح أن المنظمات التعليمية في كندا تدفع مكافآت سخية لعزل هؤلاء المعلمين تشجيعاً لهم على التقاعد المبكر، حيث تتوفر لديها الآن أعداد من المعلمين المؤهلين بشكل أفضل.

2.4- بل إن نظم إعداد المعلم واختياره خصوصاً لمرحلة التعليم الأساسي ما زالت في كثير من مناطق العالم بعيدة عما ينبغي أن يكون.

والتدليل على ذلك تشير إلى بعض نتائج دراسة أجريت في الضليين على معلمي الرياضيات في المدارس الابتدائية، حيث تبين أن قيادة المعلمين في العمليات الحسابية مرتبطة بمستوى الصف الدراسي الذي يقومون بالتدريس فيه. وعندما طلب من أفراد العينة ذكر تفضيلاتهم للمواد التي يعلمونها، كان الذين اختاروا الرياضيات في المرتبة الأولى والثانية مجرد أقلية (جوزيفيلس - فونشبير، 1987، 27).

3.4- ثم إن تطوير مناهج الرياضيات بمراحل التعليم المختلفة في كثير من الأقطار لم يصاحبه التغيير المناسب في مناهج إعداد المعلمين، ولا التدريب اللازم على تدريس المناهج الحديثة. فإذا أضفنا إلى ذلك ضعف برامج التدريب أثناء الخدمة والطابع الموزق لها، يمكننا أن نتصور الوضع الحرج لأعداد كبيرة من المعلمين لم تنح لها الفرصة على الإطلاق لدراسة بعض الموضوعات التي تحويها المناهج المطورة، ناهيك عن التدريب على استخدام طرق التدريس التي تتناسب مع طبيعة المادة.

4.4- وإذا لاحظنا أن معظم الناس في أي مجتمع - بما فيهم المعلمون - يتعلم معظم ما يعرفه عن أي مادة من الكيفية التي قدمت لهم بها في سني المدرسة، ليتمكنوا أن تتوقع تطابقاً بين نظرتهم إلى المادة كما هي، والمادة كما درست لهم. وينعكس هذا الوضع عند معلمي الرياضيات - خصوصاً في مثل نظم الإعداد التقليدية - في أنهم لا يقومون فقط

بتدريس المادة كما درست لهم، وإنما يرون ذلك هو الأسلوب الأمثل
(DAVID WHEELER, 1986, 59).

5.4 - وتجبر الإشارة إلى أن الحاجة المتزايدة لأعداد كبيرة من معلمي الرياضيات في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن قد أدت إلى انتعاش في متوسط العمر الحالي لمعلمي الرياضيات (لأن معظم هذه الأعداد كان من الشباب). ويصل هذا المتوسط في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً إلى 40 سنة (Ubiratan D'Ambrósio, 1985, 32)، وتقدر أن يكون في الدول النامية أقل من ذلك. وعلايه فإن من المتوقع أن يستمر هؤلاء المعلمون في ممارسة عملهم لمدة (20 سنة تامة في المتوسط).

وحيث أنه من المتوقع أيضاً أن تشهد الرياضيات تغييرات عميقة خلال العقود القادمة، فإن هذا الوضع يفرض تحديات إضافية على برامج تدريب المعلمين أثناء الخدمة، بل وعلى عملية تطوير تدريس الرياضيات ذاتها.

6.4 - وفوق ذلك كله، فإن التدريس نشاط معقد يتدخل فيه عدد كبير من المتغيرات، وهو يعكس ما يعتقد البعض عمل ابتكاري متجدد. ولعل هذا الوضع يثير مصدراً رئيسياً للمشكلات الجمة التي تحيط بإعداد المعلم الكفء.

وإذا كنا نقر بأنه ليس هناك «وصفة» أو «الجورنيم» يؤدي نجاح خطرناك بدقة إلى النجاح في التدريس، فإن علينا أن نأخذ موقف المسؤولين من تخطيط برامج إعداد المعلم. ولعل تقرير كوكروفت الشهير عن تدريس الرياضيات في المملكة المتحدة لم يجاوز الحقيقة فيما توصل إليه من أن الرياضيات مادة صعبة لتعليمها ولتعلمها» (David Wheeler, 1986, 51).

5 - وهكذا نصل إلى المصدر الثالث من مصادر المشكلات وهو «يرتبط بتدريس الرياضيات حيث يكفي بالإشارة إلى:»

1.5 - إن مشروعات تطوير تدريس الرياضيات خلال العقود الأخيرة قد

أولت تطوير محتوى المنهج اهتماماً أكبر مما أولته تطوير طرق التدريس وتبني المداخل الحديثة لتدريب الطلاب على العمل المستقل. ورغم أن هذا الوضع يخالف ما استقر عليه العرف التربوي من أن «منهجاً فقيراً في محتواه إذا ما درس بطريقة جيدة فهو أفضل من منهج غني في محتواه ويدرس بطريقة سيئة» (محصومة كاظم، 1970، 361).

2.5 - إن تدريس الرياضيات عن طريق أسلوب المحاضرة أو التلقين أمر غير مجد، فهو يؤدي إلى تحويل المادة إلى سلسلة من «الوصفات» التي ينبغي الالتزام بها وتنفيذها كما قام بها المعلم، وأني خروج عن ذلك النمط يراجه بالعجز من قبل الطلاب. بل أن ذلك النوع من التدريس يرتبط على الأرجح بالاتجاهات السلبية نحو المادة والتفكير منها. وإذا كان هذا الوضع يميز تعليم الرياضيات في مناطق مختلفة من العالم - بدرجات متفاوتة - فإنه يدر أكثر وضوحاً في دول العالم الثالث حيث تصبح التقاليد الطويلة الخاضعة لعدم مقاطعة المعلم أو سؤاله، والفصول المكتظة عائقاً كبيراً أمام تحويل دراسة الرياضيات إلى عملية حوار وامتشاف (هيلاري شيوارد، 1987، 59).

3.5 - وفي هذا الصدد، فإن التدريس «التقليدي» للرياضيات يفرض تحويل الشراسة إلى استظهار صيغ معينة، والتدريب الآلي على اشتقاق صيغة من أخرى ثم تطبيقها. ولذلك ينبغي أن يُبذل مجهود خاص لمساعدة المدرس على استثارة حلايه وحفزهم على الابتكار وإعادة اكتشاف المشاكل الرياضية وحلولها «فالأفكار الرياضية التي يكتشفها التلميذ بنفسه لها عند معلمه وعملية الاكتشاف هذه تعود لأن يشعر (التلميذ) بأن الرياضيات علم إنساني وعلم ينمو» (محصومة كاظم، 1970، 261 - 262).

4.5 - وباعتبار التقييم جزءاً أساسياً من العملية التعليمية، فإنه لزمنا بسنح النظرية به أن الأساليب المتبعة لتقييم تعلم الطلاب في الرياضيات

تعرقل الفهم الصحيح للمادة، وتعتبر من معوقات تفريدها الناجح.

5.5 - ولا يقل عن ذلك في الأهمية نقص المصادر التعليمية التي يمكن أن يرجع إليها كل من المعلم والطالب. إن الكتاب المدرسي الواحد - مهما بلغت جودته - غير كافي لتحقيق اعتماد الطلاب بالرياضيات، ولإثارة الالهام لتعلمها، ولالإعداد بالعمل الملائم لطبقي التعلم، وعموماً للمساعدة في تفريده التعليم (فريدريك بل، 1986، 68 - 69).

6.5 - وفقاً لتقارير منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم عن تدريس الرياضيات في مناطق مختلفة من العالم - ومن بينها المملكة العربية السعودية - ما زال الحفظ والتعلم النمطي أوضح من التدرب على تنمية التفكير والتفكير على حل المشكلات. بل وما زالت المعارف الرياضية تحتل مكانة كبرى أيضاً من التدرب على الاكتشاف وتطوير الذات (UNESCO, 1981, 144).

وبناءً على كل ما سبق، نستخلص أن نظام تدريس الرياضيات عن المستوى العالمي ما زال يعاني الكثير من المشكلات؛ فهو يقصر عن تلبية متطلبات المجتمع من أبنائه من جهة، وهو غير مرضي وغير ذي مغزى لهؤلاء الآباء من جهة أخرى. ومؤسسات المجتمع والمعلمون يشكون من تدني مستوى الخريجين والطلاب، وهؤلاء يتألمون من صعوبة المادة وعدم جديتها في حياتهم العملية - فما العمل؟

بداية نقول أن حجم المشكلة كبير، والتحديات التي تواجه من يصعد لها صخيفة. ولذلك ينبغي أن نكون المتداخل المعتمدة للتعامل معها جديدة، وأن تعكس المنجزات العلمية المستقرة - ولا أقول الجديدة - في العلوم التربوية والنفسية، وأن تستند إلى خبرة أكثر من قرن من الزمان في تدريس الرياضيات في المدارس الحديثة.

وعني عن البيان أن هذا هو موضوع الساعة لدى المتخصصين لتدريس الرياضيات، ولأجبهه تعقد المؤتمرات والندوات العلمية على

المستويين المحلي والعالمي، بل وأصبح الموضوع يجتذب اهتمام قطاعات من الرأي العام في بعض المجتمعات. وجدير بالذكر أيضاً أنه لا أحد يملك بعد إجابة دقيقة عن هذا السؤال، ولكن من الممكن الإشارة إلى بعض الاتجاهات السائدة حالياً في التعامل مع هذه المشكلة، وهو ما نختم به هذه الورقة:

(1) إن فهم أساسيات الرياضيات أصبح يمثل عنفاً متزايد الأهمية لتعليم في المجتمعات المعاصرة. ونتيجة للاستخدام المتزايد للطرق الرياضية في مختلف العلوم، وفي شتى مجالات النشاط الإنساني أصبحت دراسة الرياضيات تمثل عنصراً من عناصر الإعداد الثقافي العام لكل مواطن. وعليه تبقى إعادة النظر في أهداف تدريس العادة لكل من مرحلتي التعليم الأساسي والتعليم الثانوي وفقاً لظروف المجتمع ومشكلاته الراضة مع الاسترشاد بالأهداف التالية:

- التحكّن من منظومة المعارف والمهارات الرياضية الضرورية في الحياة اليومية لكل مواطن، سواء على مستوى الحياة الشخصية أو العمل، لأغراض مواصلة الدراسة أو التربية المستمرة.

- تدريب الطلاب على بناء نماذج رياضية - متدرجة المستوى - لتقواهر والعمليات الطبيعية واليومية.

- تكوين التصورات الأساسية لدى الطلاب عن الطرق الرياضية ودورها في فهم الواقع.

- تنمية بعض القدرات لدى الطلاب مثل القدرة على التفكير المنطقي والنقد وحل المشكلات.

- التقريب بين الطرق المستخدمة لحل مسائل الرياضيات، وطرق البحث في الرياضيات والمدخل المستخدمة فيها لحل المشكلات الحقيقية.

- احتساب بعض مهارات العمل التي تؤهل لها دراسة الرياضيات ومنها: التخطيط للعمل المطلوب - استكشاف الطرق المتعددة للبحث لتنفيذه - انقووم نقدي للطرق المختارة والنتائج - المقارنة وتوجد العديد - الاعتماد على النفس والقدرة على تأسيس اختيار الطالب لطرق معينة - تنمية الجوانب الإبداعية والتطبيقية متى وجدت .

(2) لقد أصبح الكثير من المتخصصين - بل وشرائع عديدة من الزوايا العام في بعض المجتمعات - تنظر إلى مستوى الإعداد الرياضي لطالب اليوم على أنه مؤشر لا يمكن تجاهله على استعداد المجتمع لتعجيل معدلات انقزم العلمي التقني فيه، ومن ثم على استعداد لتطور الاقتصادي والاجتماعي. إضافة إلى الدور المتنامي للرياضيات في دراسة غيرها من العلوم (زوايا نظر العلوم الأساسية)، ولذلك فقد ازدادت مكانة الرياضيات في مناهج التعليم، وأصبحت تمثل أساساً واسعاً من أساس الدراسة بمراحل التعليم العام. وبذلك، علينا أن نميز بوضوح بين منهج الرياضيات لمرحلة التعليم الأساسي، ومنهج الرياضيات للمرحلة الثانوية:

ولعلنا من المناسب أن يبنى منهج الرياضيات للتعليم الأساسي ما جرى العرف في السنوات الأخيرة على تسميته بـ «الرياضيات للجميع».

وما دام التعليم الأساسي يمثل حالياً ذلك القدر من التعليم المشترك الذي يرتضيه المجتمع العربي لأبنائه، فإن علينا توفير الظروف التي تسمح لكل منهم أن يتقن حداً أدنى من القدرة على استخدام الطرق الرياضية

ولا نعبر هنا بالمبالغة في تقدير هذا الحد، ولا تصوره بشكل تقري كما نتفرض أن تحري مناقشة على نطاق واسع في المجتمع لتجنب ذلك المنهج من المعلومات والفرق الرياضية اللازم لكل مواطن في ضوء الاعتبارات التالية:

منهج غير كبير الحجم، مناسب لمستوى معظم الطلاب، وذلك

عناية من حيث: تلبية الحاجات اليومية لكل فرد بغض النظر عن عمله أو طموحاته، الاستجابة المرنة لمتطلبات المواد الدراسية الأخرى، مساعدة الطالب على فهم الحياة من حوله، وتنمية القدرة على التفكير المنظم.

وأرجو ألا يتخوف البعض - لا سيما من المتخصصين - من أن يؤدي هذا الاتجاه إلى تدهور في مستوى الإعداد الرياضي لطلاب التعليم الأساسي. ففي رأينا أن هذا التخوف لا محل له؛ فالمستوى الحالي للتحصيل الرياضي لطلاب منخفض فعلاً، بالإضافة إلى أن اتقان القليل أفضل من دراسة الكثير دون فهم أو جدوى.

أما منهج الرياضيات للمرحلة الثانوية فعمله يبني تحت مظلة الإعداد المتقدم أو التخصصي في الرياضيات التي يفضل أن يرتبط بوضوح بتطبيقات تبدأ تفريد تعليم الرياضيات في هذه المرحلة؛ سواء لكي يتناسب مع المسارات المختلفة التي تتيحها بنية التعليم الثانوي، أو لمقابلة الفروق الفردية بين الطلاب في القدرات والحيول والدافعية لدراسة المادة. ولا بأس من وجود مناهج متعددة للرياضيات في مرحلة التعليم الثانوي تتفاوت في العمق والترجع لتلبية حاجات التخصصات المختلفة، وفئات الطلاب ذوي القبول والقدرات المتباينة.

(3) ومن جهة أخرى يلاحظ في السنوات الأخيرة اتجاه متزايد للابتعاد بمنهج الرياضيات في التعليم الأساسي عن النمط الأكاديمي - الذي ميز حطبة الشببات وما تلاها - والامتداد إلى النمط الإنساني أو الاجتماعي وفقاً لفلسفة التربية في المجتمع، وما إذا كان الهدف النهائي لتربية فيه هو التركيز على الإنجاز الفردي، وتشجيع الإبداع والاستقلال أم تقديم المتطلبات الاجتماعية على الحاجات الشخصية.

(4) كما تعكس الكتابات في نفس الموضوع نزعة واضحة إلى إبراز القيمة الثقافية العامة للرياضيات في مناهج التعليم الأساسي من خلال تقديم

طرق الرياضيات بوصفها وسائل لحل المشكلات التطبيقية والعملية ذات المعنى بالنسبة للطلاب في الوقت الحالي وليس في المستقبل، وهكذا تقدم الرياضيات للطلاب جانباً مفيداً من الثقافة العامة للبشرية لا جانباً ضيق التخصص منها.

(5) ونود أيضاً أن نشير إلى أنه في مرحلة التعليم الأساسي لا يكفي أن يكون منهج الرياضيات في متناول معظم الطلاب، بل يجب أن يكون سهلاً لهم كذلك. أن استخدام النماذج الرياضية في تمثيل الواقع بصورة سهلة دراسة لا يهدف لتكوين العقل العلمي فحسب، وإنما يساعد في إثارة اهتمام الطلاب بالمادة (وربما الاحتفاظ به).

(6) إن تراكم الخبرة الذي وفرته تجربة العقود الماضية في تطوير مناهج الرياضيات قد أحدث قدراً من «التضيق» لدى المختصين أصبح يتعد بهم عن التصنيفات الثنائية مثل: الرياضيات «المعدنية» مقابل «التطبيقية» أو الرياضيات «البحث» مقابل «التطبيقية»، أو «الفهم» مقابل «المهارات» وغيرها. مع الاتجاه إلى البحث عن المداخل التكميلية التي تساعد على الربط بين الموضوعات الرياضية المختلفة، بل بين الرياضيات وغيرها من مواد الدراسة.

(7) وساء على الدروس المستفادة من مشروعات تطوير مناهج الرياضيات والمعرفون التي واجهتها، واستنداً إلى نتائج الأبحاث في العقد الأخير أصبح من الاتجاهات المقبولة حالياً عند بناء المنهج: البدء التجريدي والعرض الاستنتاجي لشوكيات الرياضية مع التركيز على الفهم والتطبيقات العلمية وعلى سبيل المثال يتوجب المنهج الجديد لمشروع الرياضيات المدرسية SMP في المملكة المتحدة لطلاب الشهادة الثانوية في المستوى المتقدم الدراسة المباشرة لنظرية المجموعات Douglas A. (1985, 84-85). وهي نفس الوقت يتزايد الاعتماد بالحدود



التطبيقية في كل موضوعات المنهج مع البعد عن المسائل النمطية لقصورها عن تعديد مستوى فهم الطالب للمفاهيم والأفكار الرياضية التي يستخدمها لحل.

(8) تتوفر حالياً قناعة متزايدة لدى المتخصصين بأنه لا يكفي لتطوير تدريس الرياضيات إعادة النظر في بناء المناهج، بل ينبغي أن يخصص قدر كبير من الجهد والإمكانات لتحسين برامج إعداد المعلمين وتدريبهم.

وفي هذا الصدد تسود النظرة إلى اعتبار تدريب معلمي الرياضيات أثناء الخدمة نظاماً جزئياً يحتل مكانه الملائم من النظام التربوي، بما يتطلبه ذلك من تحقيق قدر عالٍ من التنسيق بين عمليات تطوير مناهج الرياضيات، وإعداد معلمي المادة وتدريبهم قبل الخدمة وأثناءها. إن كفاءة أي منهج لتدريب معلمي الرياضيات أثناء الخدمة تعتمد على اتساق مكوناته من جهة، وملاءمتها لمتطلبات تطوير المنهج من جهة أخرى (هيلاري شيوارد، 1987، 71، 141-142، Fahmy I.M., Fayez M.M., 1985).

9- ومن بين الاتجاهات السائدة والمرتبطة في مجال تدريب معلمي الرياضيات أثناء الخدمة تشير إلى ما يلي:

- مراعاة خصائص المعلمين الذين يقدم لهم البرنامج، وفي مقدمتها التعامل مع المشكلات الفنية للتدريس، وتشجيع المناقشة وتبادل الخبرة.

- تنمية روح التربية المستمرة لدى المعلمين وتكوين اتجاهات إيجابية نحو الرياضيات ونحو المهنة.

- العمل على تمهين برنامج التدريب أثناء الخدمة لمعلمي الرياضيات، وربط الجوانب الأكاديمية والتربوية والثقافية لهذه البرامج بحاجات المعلمين في مواقف التعليم.

- زيادة الاهتمام بتدريب المعلمين على تشخيص صعوبات التعلم لدى الطلاب، وأساليب تخطيط الخبرات الملائمة للتدريس العلاجي لهؤلاء الطلاب.

- إتاحة الفرصة للمعلمين خلال هذه البرامج للتدريب على الطرق الجديدة في التدريس، إذ لا يجب أن نتوقع أن يغير المعلمون من أساليبهم في التدريس بشكل فعال إذا ما تعلموا الطرق الجديدة عن طريق القراءة أو التلقين.

- إن الاهتمام في تطوير المنهج بالجوانب التطبيقية وما يمكن تسميته بالرياضيات المفيدة للطلاب، إلى جانب الدعوة إلى تبني المداخل القائمة على الكشف وحل المشكلات تقتضي تضمين هذه الجوانب في برنامج إعداد المعلمين وتدريبهم، وأن نتاح لهم الفرصة لممارستها خلال برنامج التدريب.

(10) ومن جهة أخرى ما زالت الدعوة إلى تطوير طرق التعليم وتقنياته مستمرة، مع الاتجاه إلى توظيف التقنيات الحديثة في تعليم الرياضيات وتشجيع التعلم الذاتي للطلاب. وفي هذا الصدد يتصدر الاهتمام بطريقة حل المشكلات قائمة الاهتمامات، إلى جانب التوظيف المتزايد لطرق البحث الرياضي في التدريس.

إن التدريس الناجح للرياضيات ينبغي أن يقوم على إتاحة الفرصة للطلاب للتعامل مع موضوعات المادة بوصفها مشكلة تواجههم، وأن يدرسا على استخدام الملاحظة والتجربة والتحليل - وغيرها من طرق البحث الرياضي - لتتمسك التحل لهذه المشكلة. إن تعلم الرياضيات بهذه الطريقة تحت إشراف المدرس الكفء وتوجيهه يكون قائماً على الفهم، كما يحمي الفرصة لتنمية التفكير الابتكاري للطلاب، وتكوين حسرة صحيحة لدى عن الرياضيات، إلى جانب أنه يستثير اهتمام الطلاب بالمادة ويزيد من فرص الاستمتاع بها.

وقد كان هذا تحليلاً موجزاً لبعض معوقات تدريس الرياضيات في العقد الأخير من القرن العشرين كما يعاني منها الكثير من الأنظمة التعليمية في العالم، مع إشارة إلى بعض الاتجاهات التي بطرتها المتخصصون في محاولة لتجاوز هذه المعوقات .

وآمل الباحث أن يكون بعض الأفكار الواردة في هذه الورقة منيراً للمزيد من المناقشات، ولعله يكون خطوة في الاتجاه الصحيح على طريق تطوير تعليم الرياضيات لأبناء هذا الجزء من الوطن العربي بشكل يزيلهم لانحسار الحدييات القاسية والمرتبطة على مشارف القرن الحادي والعشرين .

قائمة المصادر المستخدمة

أولاً: المصادر باللغة العربية:

- 1 - أحمد الطويل (1988). التربية والتعليم كيف يعملان بنجاح؟ في: دورات المعلمة، العدد 5 المجلد 29. عمان - وزارة التربية والتعليم.
- 2 - أحمد خالد محمد بيخيت (1977). اتجاهات حديثة في تدريس الرياضيات. أسوط.
- 3 - أحمد خالك محمد بيخيت (1989). «ملاحظات حول بعض قضايا التعليم في الوطن العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين». بحث مقدم إلى المؤتمر التربوي الأول حول التعليم في المجتمع الجماهيري - بنغازي 16 - 18 / 5 / 1989.
- 4 - جوزيف س. فوناشير (1987). مسؤولية معلم المرحلة الابتدائية عن مادة الرياضيات، في: زوبرت موريس (إعداد) ترجمة عبد الفتاح الشراقي. دراسات في تعليم الرياضيات - الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- 5 - زوبرت موريس - (إعداد) (1987). دراسات في تعليم الرياضيات. ترجمة عبد الفتاح الشراقي. الرياض مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- 6 - فريديك عد. بل (1986). طرق تدريس الرياضيات. ترجمة محمد أمين الحضي، مطبوع محمد سليمان، نقوسيا، الدار العربية للنشر والتوزيع، ج 1.
- 7 - كين كليمنس (1987). مصادر الصعوبات التي يعاني منها المتعلمون الصغار فيما يتعلق بمفاهيم الرياضيات. في: زوبرت موريس (إعداد). مرجع سابق.
- 8 - معصومة كاظم وآخرون (1970). أساسيات تدريس الرياضيات الحديثة القاهرة، دار المعارف، ط 2.

٧- هيلاري شوارز (1987). اتجاهات معاصرة في رياضيات المرحلة الابتدائية.
في: روبرت موريس (مُعدِّد): مرجع سابق.

٧(أ): المصادر باللغات الأجنبية:

1. D'Ambrosio, U. (1985). Environmental Influences. In: Reber - Morris (ed.). Studies in Mathematics Education, Vol. 3, UNESCO, Paris.
2. Damerow, P. et al (eds.) (1984). Mathematics for all. UNESCO, Science and Technology Education, Document Series 20, Paris.
3. Damerow, P. Westbury, L. (1984). Conclusions drawn from the Experience of the New Mathematics Movement. In: Damerow, P. et al (eds.), op. cit.
4. Golobava, Z.Y., Ostroumova, N.G. (1989). «The reform of School and Quality of Education in the U.S.A.» J. of Soviet Pedagogy No. 3 MOSCOW, Pedagogika (In Russian).
5. Martin, J.C. (1984). A Necessary Renewal of Mathematics Education. In Damerow, P. et al (eds.), op. cit.
6. Mikhail P.L., Mina, F.M. (1985). The In-Service Education of Secondary School Mathematics teachers. In: Robert Morris (ed.). Studies in Mathematics Education, Vol. 4, UNESCO, Paris.
7. Morris, R. (ed.) (1981). Studies in Mathematics Education, Vol. 2, UNESCO, Paris.
8. Quadling D.A. (1985). Algebra, Analysis, Geometry. In Morris, R. (ed.) Studies in Mathematics Education, Vol. 5, UNESCO, Paris.
9. Roganovsky, N.M. (1989). «Problems of Development of Mathematical Education». J. of Mathematics in the School. No. 5 MOSCOW, Pedagogika (In Russian).
10. Vostrenenkova, N.M., Milina, Y.S. (1989). «renewal of the content of Education in the schools of capitalistic countries». J. of subject pedagogy No. 9. Moscow, pedagogika (In Russian).
11. Wessinger, I. (1969). the characteristic features of mathematical thought. In Sany T.L., woyl, P.J. (eds.) The spirit and the uses of the mathematical sciences. Mc Graw Hill Company.
12. Wheeler, D. (1986). The Teaching of mathematics in primary and secondary schools. in David Layton (ed.) Innovations in science and technology education, vol. 1 UNESCO, Paris.

التلوث البيئي
وتأثيراته المختلفة على المدن

بقلم

د. فتحي أحمد الهرام
استاذ بكلية الآداب والتربية

أ. محمد عبد الحميد
معاشر مساعد، بكلية الآداب والتربية

جامعة طرابلس

بنغازي

التلوث البيئي وتأثيراته المختلفة على المدن

د. قصي أحمد الهرام
أ. محمد لاس

المقدمة:

يعتبر التلوث من أهم المشكلات البيئية التي تواجه الإنسان في الوقت الحاضر ومع ذلك لم يكن التلوث أمراً جديداً بالنسبة إليه، نظراً لإحتواء بيئته على العديد من الملوثات الطبيعية التي صاحبت منذ بداية حياته والتي لم تشكل خطراً كبيراً على الكائنات الحية، إلا أن الخطر الأكبر يتمثل في الملوثات ذات المصدر البشري (غير الطبيعية) ويرجع ذلك لحدوثها في البيئة وتعدد أنواعها وشدة تركيزها في المناطق الأملفة بالسكان وعدم تأقلم الأجهزة البيئية معها.

لقد أدى تطور الخدمات الطبية (الثورة الصحية) التي أعقبت الثورة الصناعية إلى انخفاض معدلات الوفيات مما رفع معدلات الزيادة الطبيعية لسكان العالم، فضلاً عن ما صاحب الثورة الصناعية من تقدم تقني وحركة الهجرة الواسعة نحو المدن الأمر الذي أدى إلى نمو المدن وزيادة حجمها مما نتج عنه اختلال في التوازن البيئي للمدن والمناطق المجاورة لها، حيث أحدثت الملاحظات البشرية التي يمارسها الإنسان العديد من التأثيرات لي

النظام البيئي، فتمركز الصناعة في المدن تبعه العديد من الأنشطة الاقتصادية من تجارية وتعليمية وصحية... إلخ فضلاً عن عامل الهجرة، كل ذلك أدت إلى العديد من المشاكل الاجتماعية والصحية وتحولات البيئة في كثير من المدن الكبرى وخاصة الصناعية منها إلى بيئة ملوثة بالكربوهيدرات والدخان والضباب والفضاضة وغيرها، وقد انعكس ذلك على صحة الإنسان ونشاطه وقدرته على العمل، كما امتد التلوث في السنوات الأخيرة إلى جميع مجالات الحياة مما أدى إلى خلق حالة من التدهور البيئي جعلت الإنسان يعيش دوامة من التلوث والاضطرابات لأن كل شيء حوله أصبح ملوثاً: الهواء، الماء، التربة.

لقد أدى الإخلال بالتوازن البيئي إلى اهتمام دول العالم بمشاكل البيئة منذ زمن ليس ببعيد، حيث تعتبر نهاية الستينات من القرن الحالي وعلى وجه التحديد عام 1969 م البداية الحقيقية للاهتمام العالمي بمشكلات البيئة، فعند ذلك التاريخ أصبحت هذه المشكلات تناقش باستمرار في المجالس الدولية، ففي عام 1971 م اجتمع حوالي 2200 عالم في مدينة أمستردام الفرنسية لبحث في مشكلات بيئة الإنسان وفي يونيو (الصيف) 1972 م عقد مؤتمر استكهولم للبيئة بالسويد بإشراف الأمم المتحدة بحضور 113 دولة واشترك فيه 1000 ممثل لهذه الدول، ويعتبر هذا المؤتمر من أهم التجمعات العالمية التي دعت نائوس الخطر من عواقب تلوث البيئة من ناحية وموضحة أهمية الاعتبارات البيئية في التنمية من ناحية أخرى.

وفي عام 1977 م وخلال الفترة من 27 أغسطس (آب) إلى 3 سبتمبر (الفتح) عقد في مدينة نيروبي بكينيا مؤتمر الأمم المتحدة حول ظاهرة التصحر ونتائجها وثيقة موجهتها، وأخيراً وخلال النصف الأول من شهر يونيو (الصيف) 1992 م شهد العالم قمة الأرض في مدينة ريو دي جانيرو بالبرازيل التي حضرها ممثلو 180 دولة لمناقشة بيئة الأرض وتمثلت في تلوث البحار والمحيطات والأنهار ونهرها وتدمير طبقة الأوزون والتصحر والجفاف.

وقد أصبحت العديد من دول العالم تهتم بمشكلات البيئة حيث سنت القوانين والتشريعات التي تضمن حماية البيئة وقامت بإنشاء أجهزة وإدارات ومراكز ومراكز وكليات لهذا الغرض، وقد اعتمدت الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى بالبيئة حيث صدر القانون رقم (7) لسنة 1982 م بشأن حماية البيئة وقرار اللجنة الشعبية العامة لسنة 1984 م بإنشاء المركز الليبي لحماية البيئة.

وهذا البحث يستند إلى فلسفة علم الجغرافيا القائمة على الكشف والربط والتحليل للمشكلات البيئية المعقدة وإيجاد الحلول لها، فلتجذري في دور مثير وحميم بالتعاون مع غيره من المتخصصين في علوم البيئة لحل مشكلات الإنسان في بيئته، ومن ثم فإن هذا البحث هو محاولة متواضعة لتفهم هذه الظاهرة البيئية الخطيرة وعمل درجة من الوعي البيئي يسهم في إيجاد علاقة متوازنة بين الإنسان وبيئته، حيث يتناول مشكلة تلوث البيئة بأبعادها وأسبابها وتطبيقاتها المختلفة في (الهواء، الماء، التربة) والآثار والإنعكاسات البيئية الناتجة عن كل نوع من أنواعه في بيئته اتمدنية، كما يتطرق إلى أهم الحوادث والتهدي البيئية التي سببها التلوث في كثير من مناطق العالم، ثم يختم بأهم الطرق والأساليب التي يمكن اتباعها للحد من خطورتها.

لتفهم أي ظاهرة بيئية لا بد لأي دارس أو قارئ الإلمام ببعض المفاهيم الأساسية للبيئة حتى يستطيع فهم ومتابعة كل ما يتعلق بأنظمة البيئة، وبناء على ذلك رأينا من الضروري أن نعطي نبذة موجزة عن المفاهيم والمصطلحات البيئية تيسيراً لاستيعاب الجوانب الواردة في هذا البحث.

البيئة Environment وعلم البيئة Ecology :

يعزج أحياناً في اللغة العربية بين مصطلح علم البيئة Ecology والعلوم البيئية Environmental Science، فعلم البيئة هو فرع من علم الحياء (البيولوجي) يختص بدراسة العلاقة بين الكائنات الحية من جانب والعلاقة

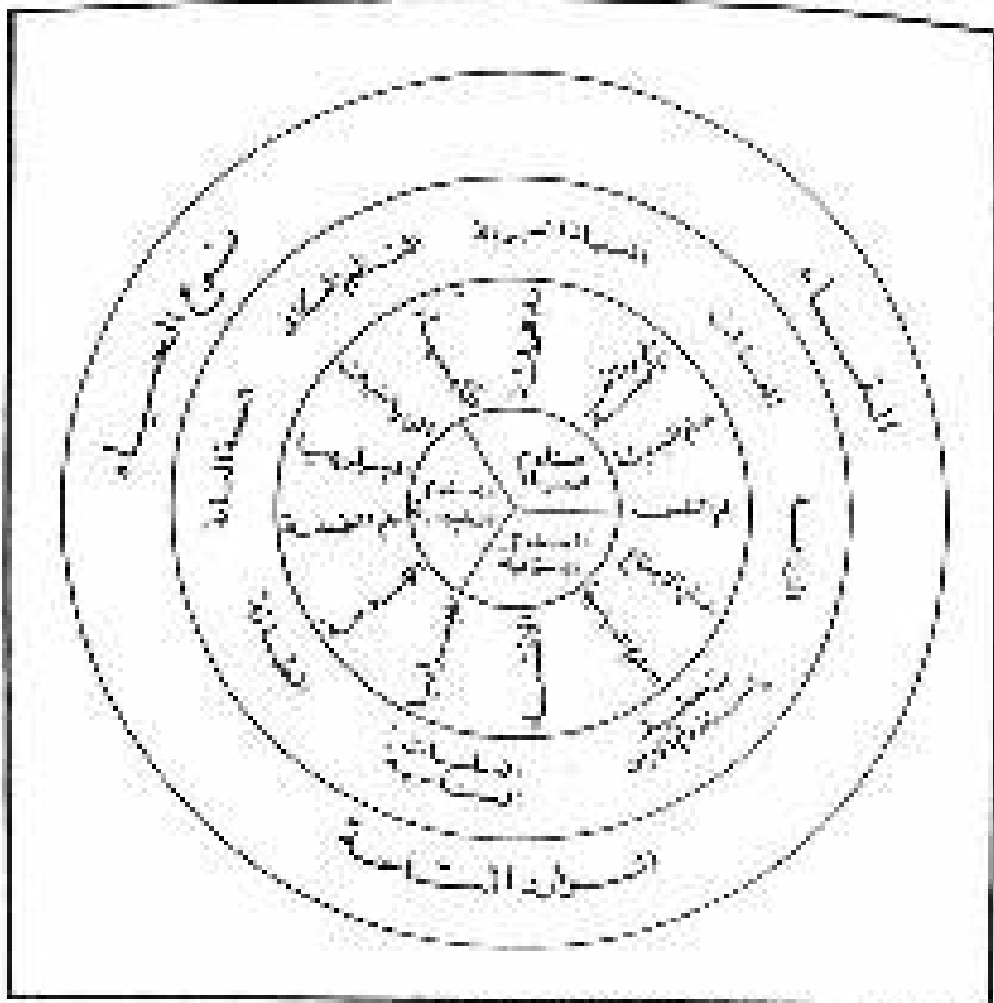
بينها وبين الوسط البيئي الذي تعيش فيه من جانب آخر⁽¹⁷⁾، ويرجع الفضل في وضع كلمة Ecology إلى عالم الأحياء إرنست هيكل Ernst Haeckel الذي قام بدمج كلمتين يونانيتين «Dikuso» ومعناها مسكن و«logos» ومعناها علم، وعرفها بأنها العلم الذي يدرس علاقة الكائنات الحية بالوسط الذي تعيش فيه وترجمت إلى العربية بعبارة علم البيئة⁽¹⁸⁾ أما العلوم البيئية Environmental Science فهي عبارة عن مجموعة من العلوم تسعى عملياً لإدارة البيئة ودراسة الحالات والظروف والعوامل التي تؤثر في المحيط الحيوي Biosphere⁽¹⁹⁾، ويدخل علم البيئة Ecology ضمن هذه العلوم ويعتبر أحد الأنظمة التي تشكل أساس العلوم البيئية، بالإضافة إلى العلوم الطبيعية والإنسانية مثل الحيوانية (علم الأرض) والكيمياء والطب والرعاية الجغرافيا والاقتصاد والعلوم السياسية وعلم الاجتماع... الخ (شكر 1).

وقد حدد مؤتمر الأمم المتحدة الذي عقد في استكهولم عام 1972، مفهوم كلمة البيئة Environmental بأنها كل شيء يحيط بالإنسان؛ واستناداً إلى ذلك قسمت البيئة إلى قسمين هما: (البيئة الطبيعية Physical Environment والبيئة البشرية Human Environment)⁽²⁰⁾، والبيئة بهذا المعنى تشمل جميع المكونات الحية وغير الحية التي تؤثر بالفعل على الكائن الحي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

المحيط الحيوي (الكرة الحية) Biosphere :

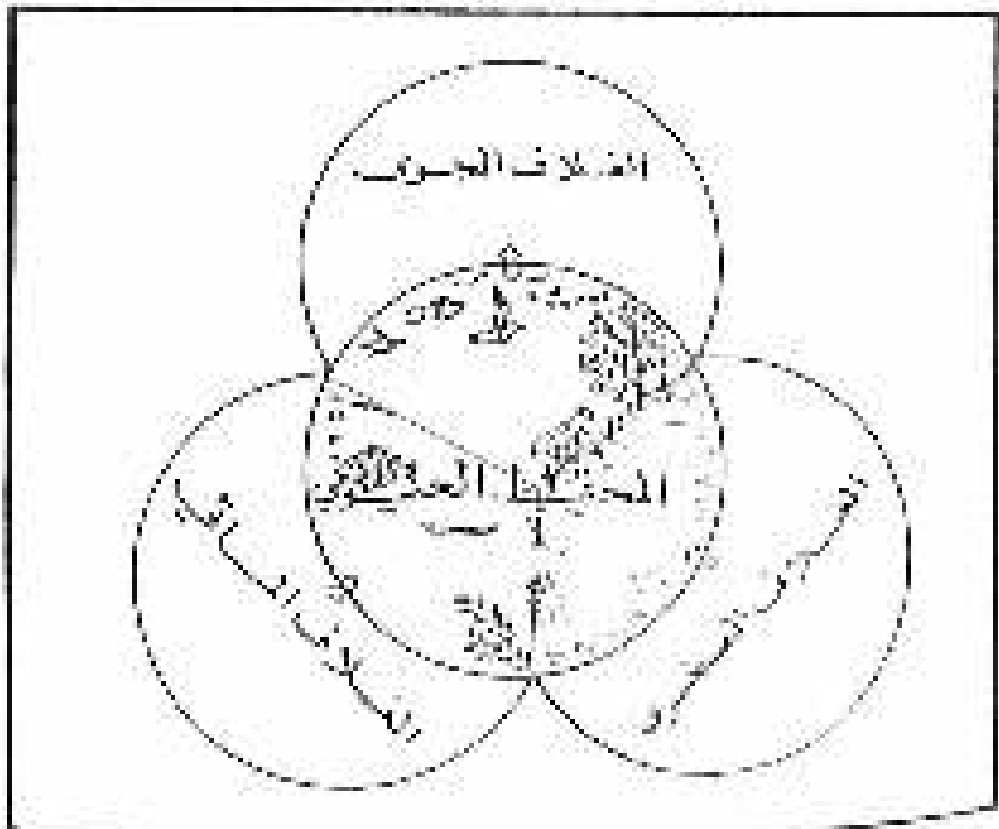
هو المكان الذي تتواجد وتتركز فيه الكائنات الحية المختلفة في الكرة الأرضية وهو ناتج عن اتحاد الأغلفة الثلاثة (الهوائي والنائي والصخري) (شكل 2)، ويحدد العلماء حدود هذا المحيط بين 30 - 50 متر فوق سطح الأرض وبين 10 - 12 متر في باطنها كما يشمل كامل صفيح البحيرات والبحار يتراوح ما بين 350 - 400 متر في البحار والمحيطات، وتتميز الحياة الحيوي بأنه المكان الذي تجري فيه التغيرات الفيزيائية والكيميائية التي تعبرها

(شكل 1) العلوم البيئية



المصدر: Environmental Science, p 3

(شكل 2) المحيط الحيوي البحرية العذبة



على المواد غير الحية من الكرة الأرضية، وهذا المحيط بأجزائه الهوائية والمائية والتربة هو الذي يعاني من التلوث في الوقت الحاضر (٢).

النظام البيئي (الجهاز البيئي) Ecosystem :

هو أية مساحة من الطبيعة بما تحويه من كائنات حية نباتية أو حيوانية أو كائنات دقيقة ومن مواد غير حية تتفاعل مع بعضها وما تولده من تفاعل بين الأجزاء الحية وغير الحية ومن أمثلة الأجهزة البيئية الطبيعية (غابة - نهر - مستنقع - بحيرة) وتختلف الأجهزة البيئية عن بعضها من حيث الموقع الجغرافي ونوعية الكائنات الحية البرية أو المائية أو برمائية.

مكونات النظام البيئي :

يتألف كل نظام بيئي من المكونات التالية :

١ - مكونات غير حية Abiotic Components

وتشمل الآتي :

- أ - الطاقة وتشتمل في ضوء الشمس وأثره على الكائنات المنتجة حيث يساعدها في أداء دورها الطبيعي بصورة طبيعية، وبذلك تأتي زيادة أو نقصان في هذه الطاقة تؤدي إلى تغير الجهاز البيئي.
- ب - الدورات الجيوكيميائية وتشتمل في دورات الكربون والأوكسجين والنيتروجين والفسفور، فأي انقطاع في هذه الدورات أو تغير معدلها بالزيادة أو النقصان أو إضافة بعض المواد الكيميائية يؤثر سلباً في الجهاز البيئي.
- ج - العناصر الجوية وتشتمل في الحرارة والرياح والأمطار والرطوبة بالإضافة إلى التربة والمعادن، فأي تغير في هذه العناصر يؤدي إلى إصابة الجهاز البيئي بالخلل.

2 - مكونات حية Biotic Components

وتشمل الآتي :

- أ - الكائنات الحية المنتجة (Producers) وهي كائنات حية ذاتية التغذية تستطيع بناء غذائها بنفسها من مواد غير عضوية بسيطة بواسطة عملية التمثيل الضوئي ومعظم هذه الكائنات من النباتات الخضراء والطحالب الخضراء .
- ب - الكائنات المستهلكة (Consumers) وهي كائنات حية لا تستطيع تكوين غذائها بنفسها أي غير ذاتية التغذية (Heterotrophic) وتضمن الكائنات الحية التي تغذى مباشرة على النباتات مثل الحشرات والأرانب والأبقار وغيرها وكذلك الكائنات التي تعيش على حساب الكائنات الحية الأخرى .
- ج - كائنات مفككة (Decomposers) وهي كائنات حية غير ذاتية التغذية وتعتمد في غذائها على تفكيك جثث وبقايا الكائنات النباتية والحيوانية وتحولها إلى مركبات بسيطة تستخدم منها النباتات في تغذيتها ومن أمثلتها البكتيريا والفطريات وغيرها⁽¹⁶⁾ .

وبنشاط اختلال التوازن البيئي عندما يحدث أي تغير في مكونات النظام البيئي التي سبقت الإشارة إليها، كما يحدث نتيجة لتدخل الإنسان المباشر في تغير ظروف البيئة الأمر الذي يترتب عليه نشوء العديد من المشكلات البيئية والتي يعتبر التلوث أبرزها وأخطرها .

مفهوم التلوث Concept of Pollution

التلوث هو الإخلال بالنظام البيئي مما يؤدي إلى تغير كمي وكيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية الأمر الذي يترتب عليه الإضرار ببيئة الإنسان⁽¹⁷⁾ أو غيره من الكائنات الأخرى حيوانية أو نباتية أو قد يسبب تلفاً في العمليات الصناعية أو اضطراباً في الظروف المعيشية بوجه عام .

ويعرف التلوث أيضاً بأنه إضافة أو إدخال أي مادة غير بالرفقة إلى أي

من الأوساط البيئية (الماء، الهواء، التربة) وتؤدي هذه المادة عند وصولها لتركيز ما إلى حدوث تغيير في نوعية وخواص تلك الأوساط، وغالباً ما يكون هذا التغير مصحوباً بتأثير ضارة مباشرة أو غير مباشرة على ما هو موجود في الوسط البيئي¹⁸¹.

أما التعريف الشائع لتلوث قهر إلقاء النفايات بما يفيد جمال البيئة وهذا التعريف يتخذ من جمال البيئة ونظافتها مقياساً لذلك¹⁸².

يعرف قانون حماية البيئة في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية المظني التلوث بأنه حدوث أية حالة أو ظرف يتسبب عنه تعرض صحة الإنسان أو سلامة البيئة للخطر نتيجة لتلوث الهواء أو مياه البحر أو المصادر المائية والتربة أو اختلال توازن الكائنات الحية بما في ذلك الفوضاء، والفحيج والاهتزازات والرياح الكريهة وأية ملوثات أخرى تكون ناتجة عن الأنشطة والأعمال التي يعارضها الشخص الطبيعي والمعنوي¹⁸³.

والتلوث بالمعهوم العلمي هو أن يتواجد في البيئة أي من المواد والعوامل الضارة بكميات محددة زمنية قد تؤدي بطريق مباشر أو غير مباشر وحدها أو بالتفاعل مع غيرها إلى الإضرار بالصحة أو تسبب بأي طريقة من الطرق في تعطيل الأجهزة البيئية وذلك بشكل فاعلية هذا الجهاز حيث يتوقف عن أداء دوره الطبيعي على سطح الكرة الحية، وتعاني كل دول العالم من مشكلة التلوث إلا أن درجات تأثيره تختلف من منطقة إلى أخرى لشكله وشدته، وذلك حسب نوعية الأنشطة البشرية التي تمارس في البيئة ويظهر الفرق واضحاً بين الدول المتقدمة والنامية في هذا الخصوص.

المواد الضارة للبيئة

مثل ذكر العناصر التي تطلق في الغلاف الجوي أو تقذف في الغلاف الحائي أو تشر فوق سطح الأرض، وهي إما أن تكون من مواد صلبة ككتابات المصانع المشتعلة في مخلفات المواد الخام المستعملة في الصناعات أو

القمامة التي تتراكم مع نمو السكان من ناحية وزيادة معدلات الاستهلاك من ناحية أخرى، أو تكون من مواد غازية ممتلئة في الغازات الضارة التي تطلقها سيارات أو مداخن المصانع ووسائل التدفئة وحرق القمامة وغيرها أو من مثل الكيماويات التي تطلقها المصانع في المجاري المائية وتصريف مياه الصرف الصحي والبيئات الحضرية⁽¹⁾.

وأهم الملوثات التي تنتشر في الدول المتقدمة والنامية، الغازات مثل أول أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت وأكسيد النيتروجين وكبريتيد الهيدروجين والأمونيا والفلور والكلور وغيرها، والبرومات والكيميائية مثل مركبات الزنك وفلوريدات الهيدروجين والنيومين والمعادن والمعادن مثل الرصاص والزنك والكاديوم والزرنيخ والحديد والنحاس والسموم مثل البيدات الحشرية المتنوعة ومبيدات الحشرات ومبيدات الفطريات، ومبيدات الفواحة ومبيدات النيماتودا الخيطية ومبيدات القوارض، بالإضافة إلى المخلفات الأدمية ومياه الصرف الصحي والأسنة بأنواعها الكيميائية والطبيعية والمواد المشعة والظروفاء والحرارة الزائدة⁽²⁾. وتوزع تلك الملوثات من الناحية الجغرافية إلى مجموعتين أساسيتين هما:

1 - ملوثات قابلة للتحلل (غير مقاومة):

وهي الملوثات التي يمكن أن تتحلل بسرعة من تلقاء نفسها أو بواسطة ميكائكية مثل محطات معالجة مياه الصرف الرئيسية ومن أمثلة هذه الملوثات المخلفات الأدمية نصف الصلبة والسائلة والقمامة... الخ ويصبح هذا النوع من الملوثات ضاراً عندما يفوق معدل دخولها إلى البيئة معدل تحللها واحتوائها.

2 - ملوثات غير قابلة للتحلل (مقاومة):

وهي الملوثات التي لا تتحلل أو تتحلل ببطء شديد في الظروف البيئية العادية ومن أمثلة هذه الملوثات أملاح المعادن الثقيلة مثل أملاح الرصاص

الزئبق، المركبات العضوية طويلة السلسلة، والمبيدات الحشرية الكلورية أي التي تحتوي على عنصر الكلور كمادة فعالة، وعلب زجاجات الألومنيوم المبردة مثل علب المياه الغازية بكافة أنواعها والمشروبات الأخرى وزجاجات وعلب البلاستيك الفارغة... الخ وأحياناً قد تتحد هذه الملوثات المتناثرة مع بعض المركبات الأخرى الموجودة في البيئة مكونة مركبات أخرى سامة⁽¹³⁾.

العوامل التي تتحكم في درجة التلوث :

يمكن حصر العوامل التي تتحكم في درجة التلوث في النقاط

الآتية:

- 1 - بعدد ما يطرحة الإنسان والحيوان والنبات من هذه الملوثات بمجالاتها المختلفة (الهواء، الماء، التربة).
- 2 - نوعية هذه الملوثات ودرجة خطورتها وتركيزها.
- 3 - استمرارية هذه الملوثات وقابليتها للتحلل البيولوجي والكيميائي.
- 4 - مدى قدرة الجهاز البيئي على التعامل مع هذه الملوثات بدون أي اختلال في التوازن البيئي، وتعتمد هذه القدرة على التعامل مع حجم المحيط البيئي الذي تصرف إليه الملوثات.
- 5 - العوامل الطبوغرافية والمناخية المختلفة.

درجات التلوث :

يقسم التلوث في تأثيره على الجهاز البيئي إلى ثلاث درجات هي :

1 - التلوث المحقول أو المطبوق :

هو درجة محدودة من درجات التلوث لا يصاحبها عادة أية مشاكل أو أخطار واضحة للأحياء على سطح الأرض، بل أحياناً تكون هذه الدرجة من التلوث مطلوبة كما هو الحال بالنسبة للماء.

2 - التلوث الخطر:

وهي المرحلة التي تتعدى فيها كمية الملوثات خطر الأمان وتؤثر تأثيراً كبيراً في توازن الجهاز البيئي، وتصل بنا إلى الحد الخطر الذي يؤثر تأثيراً ضاراً في الأحياء وغير الأحياء بشتى أشكالها وأنواعها، وقد برزت ارمصاصات هذه المرحلة الخطرة بقيام الثورة الصناعية وما صاحبها من ملوثات كثيرة وصديدة أثرت في الكرة الحية.

3 - التلوث القاتل أو المدمر:

وهو أخطر أنواع التلوث حيث تتعدى فيه الملوثات حد الخطر لتصل إلى الحد القاتل أو المدمر، وقد بدأت ارمصاصات هذه المرحلة في بعض المناطق منذرة ومعلنة البشرية بالخطر الحسيم إذا لم يتحرك العالم لخطورة هذه المشكلة خلف خط الأمان⁽¹⁴⁾.

أسباب التلوث:

ينشأ التلوث لسببين أو عاملين هما:

1 - العامل الطبيعي:

وهو العامل الذي لا دخل للإنسان في وجوده وتنتج ملوثاته عن مصادر طبيعية مختلفة مثل الملوثات الهوائية الصلبة أو الغازية، وهذه النوع من الملوثات يصعب التحكم فيها إلا أن حسن الحفظ جعل أضرارها ليست جسيمة بالرغم من كمياتها الهائلة، ويمرر ذلك إلى امتصاص رقعة انتشارها وتلف الأجهزة البنية المختلفة على هذا النوع من الملوثات ومن أمثلة الملوثات الهوائية الطبيعية ما يلي:

أ) أكاسيد النيتروجين الناتجة عن التفريغ الكهربائي، في السحب الرعدية.
ب) غازات ثاني أكسيد الكبريت وفوريد الأيدروجين وكثيرة الأيدروجين المتصاعد من البراكين.

ج) الأصلاح التي تنتشر في الهواء بفعل الرياح والعواصف والاشعاعات الشمسية على البحار والمحيطات والبحيرات المالحة.

د) نواتج الاحتراق ذات المنشأ الطبيعي مثل حرائق الغابات التي ينتج عنها أول وثاني أكسيد الكربون.

هـ) الأتربة التي تثيرها الرياح والعواصف وثلث التي تحملها المنخفضات والجيئات الجوية وتيارات الحمل الحرارية من التريبات العارية.

و) الفطريات والبكتيريا والميكروبات المختلفة التي تنتشر في الهواء سواء كان مصدرها التربة أو نتيجة لتعفن الحيوانات والطيور الميتة والفضلات البشرية.

ز) تساقط الأتربة المختلفة عن الشهب والنيازك إلى طبقات الجو السطحية.

ح) العواء ذات النشاط الإشعاعي كتلك الموجودة في بعض تريات وصخور القشرة الأرضية، وكذلك عن تأمين بعض الغازات الجوية بفعل الأشعة الكونية⁽¹⁵⁾.

2 - العامل البشري :

وهو العامل البشري الناتج عن نشاطات الإنسان وإسهاماته المختلفة في البيئة وبالرغم من قدرة الإنسان على التحكم في مقدار وانبعث هذا النوع من الملوثات وخاصة الهوائية منها إلا إنها تسبب أضراراً بالغة بأشكال الحياة المختلفة لأنها حديثة التواجد في البيئة من ناحية ولأن الأجهزة البيئية لم تتألم معها من ناحية أخرى، كما يرجع ذلك إلى تعدد أنواعها وشدة تركيزها في المناطق الأهلة بالسكان كما سبق وأن ذكرنا.

وأهم مصادر الملوثات الناجمة عن نشاط الإنسان في البيئة ما يلي :

أ) الانفجار السكاني :

نقد كان لتطور الخدمات الطبية (الثورة الصحية) التفضل الكبير في انخفاض معدلات الوفيات في العالم حيث أمكن القضاء على كثير من

الأمراض التي كانت تقضي على أعداد كبيرة من السكان، فقد انخفضت معدلات الوفيات في الدول الأوروبية حتى وصلت إلى أقل من 0.7% وتتمتع الدول المتقدمة حالياً إلى الوصول للزيادة الصغرى للسكان وذلك بتخفيض معدلات العوائد بها، بينما ظلت معدلات المواليد في الدول النامية مرتفعة إلى حد كبير الأمر الذي زاد معدلات الزيادة الطبيعية، وقد وصلت تلك الزيادة في بعض الدول حوالي 4% كما في فنزويلا، 3.8% في الفلبين.

وإذا ما أخذنا معدل النمو السكاني العالمي (1905 - 1990 م) والذي بلغ 1.7 (جدول رقم 1) يتضح أن سكان العالم سيتضاعف عددهم من 4.5 إلى أن يصل إلى 8.5 ألف مليون نسمة في عام 2025 م (شكل رقم 4).

ويمكن أن نتصور أبعاد هذه المشكلة إذا علمنا أن سكان العالم بلغ نحو عام 1980 4.4 ألف مليون نسمة وبتزايد هذا الرقم العالمي بمعدل شخصين كل ثانية، و 200,000 نسمة كل يوم وحوالي 6 مليون نسمة كل شهر وحوالي 74 مليون نسمة كل سنة.

ويمثل هذا النمو السكاني المتزايد مشكلة بيئية، حيث يصاحبه زيادة في مطالب السكان وحاجياتهم ومخلفاتهم المتنوعة وزيادة احتراق الوقود بأنواعه المختلفة من حطب وسائل وغاز، كما ازداد التوسع في مساحة الرقعة الزراعية بإزالة الكثير من الغابات والنباتات واستهلاك كميات كبيرة من الأسمدة والمبيدات الحشرية لمحاولة إنتاج أكبر كمية من المحاصيل الزراعية لسد احتياجات الزيادة السكانية، كما تطلب الأمر أيضاً تربية الناضية بأعداد كبيرة لمواجهة متطلبات الأزداد من الطعام والكساء وضرورات الحياة، وبالطبع صاحب كل ذلك ظهور نوع جديد من الملوثات مثل الأتربة المنطلقة أثناء العمليات الزراعية المختلفة والمعازات المتنوعة الناتجة عن حرق الأشجار والغابات والمخلفات النباتية في الحقول بالإضافة إلى المخلفات البشرية والحيوانية⁽¹¹⁾.

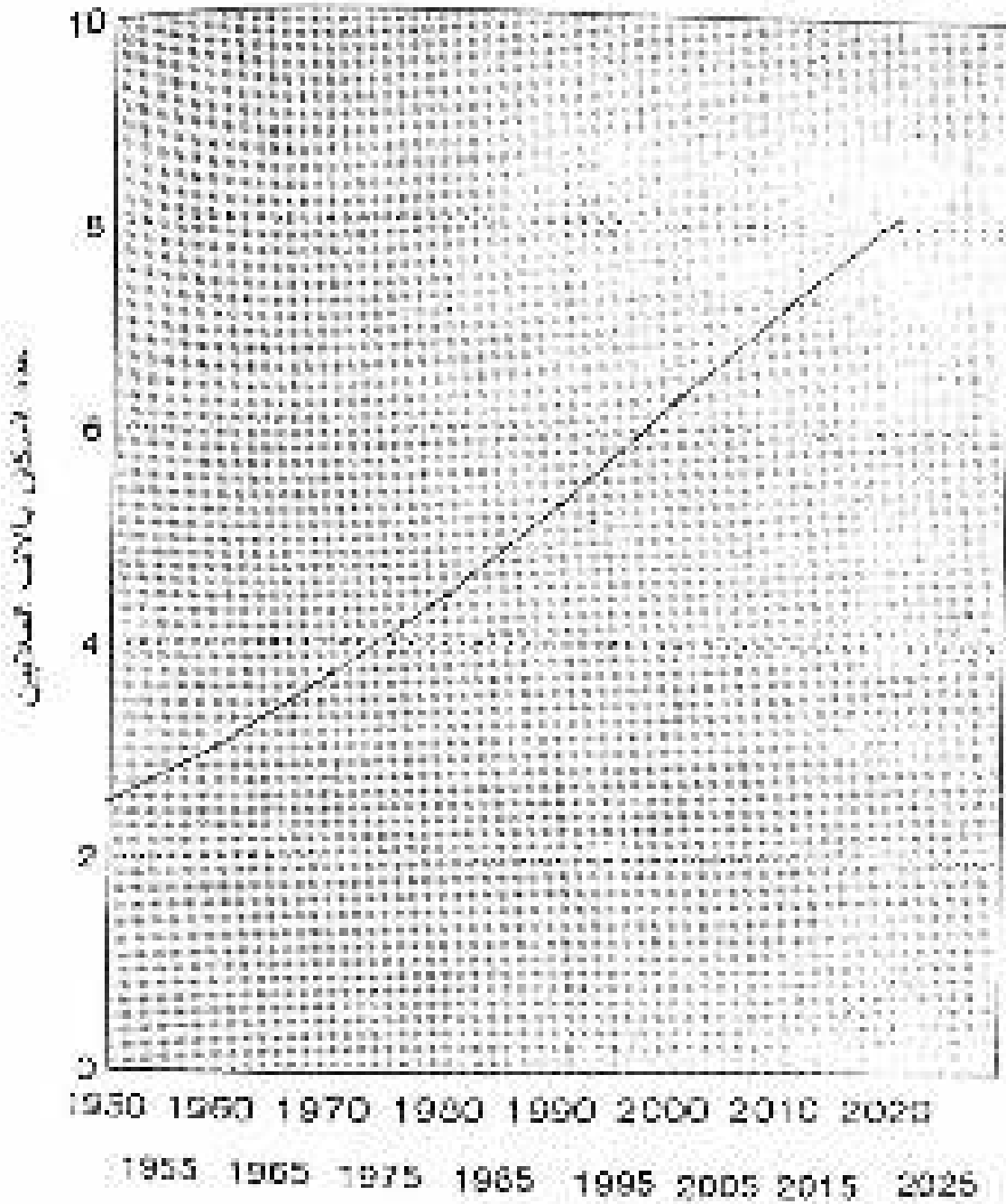
جدول رقم (1)
معدلات الزيادة والنمو لسكان العالم
م 1950 - 2025 م

معدن النمو السنوي بالنسبة المئوية	الزيادة السنوية بالملايين	السنات
1,8	47	1955 - 1950
2,1	72	1970 - 1960
1,7	74	1980 - 1975
1,7	88	1990 - 1985
1,6	98	2000 - 1995
1,0	83	2025 - 2020

المصدر:

World Population Monitoring 1991, Population Studies, United Nations
New York 1992; No. 126, Table 13, P. 30

(شكل 4) نمو سكان العالم الحالي والمتوقع (1950 - 2025)



ب) النشاط الصناعي والعمليات الصناعية:

أدى التقدم الصناعي وتطوره إلى تعدد المصانع وتنوع طرق تشغيلها وإنتاجها مصانع الحديد والصلب والغزل والنسيج والورق وتكرير النفط والبتروكيماويات ومصانع السكر... الخ وتنوعت المصانع في ملوثاتها التي تصل إلى الجهاز البيئي وتلوثه فهناك الملوثات الغازية والسائلة ونصف الصلبة والصلبة التي تختلف في طبيعتها، ومع التطور الحديث أصبحت هناك آلات ومعدات خاصة التي تستخدم الطاقة النووية وهذا بدوره أدى إلى تنوع جديد في الملوثات التي تنتج عن هذه الآلات⁽¹⁷⁾.

ج) نمو المدن:

لقد ترتب على نمو المدن وزيادة حجمها زيادة حادة مشكلة التلوث، ويشهد العديد من دول العالم حركة تمدن كبيرة (جدول رقم 2) ويقوم التمدن لمز العديد من الدول وخاصة النامية منها على أسس غير مدروسة مما أدى إلى نتائج سلبية ومشاكل لا حصر لها في بيئة المدينة.

د) عوامل أخرى:

تتمثل في وسائط المواصلات المختلفة: (النشاط التجاري، النشاط الزراعي، العمليات الزراعية، استخدام الفحم والغاز الطبيعي والمواد النشطة كوسيلة للوقود في المصانع والمباني والأغراض المعيشية الأخرى، للنشاط الإشعاعي بسبب التفجيرات النووية واستخدامات الطاقة النووية)⁽¹⁸⁾.

جدول رقم (2)
نمو السكان الحضر في بعض مناطق العالم
1960 - 1980 م

عدد المدن التي يزيد سكانها عن نصف مليون نسمة		الدول أو المنطقة
1980	1960	
278	110	دول الدخل المنخفض والمتوسط
28	3	إفريقيا جنوب الصحراء
102	46	شرق آسيا
49	15	جنوب آسيا
43	22	أوروبا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا
44	20	أمريكا اللاتينية والكاريبي

المصدر:

البيك الدولي للإحصاء والتعمير، تقرير عن التنمية في العالم 1990 م مطابع الأمم
التحزمية، القاهرة، 1990 م، جدول رقم (31) ص 271.

أنواع التلوث:

يتم التلوث على أساسين إما على نوع البيئة (هواء، ماء، تربة) التي
يحدث فيها فتور تلوث الهواء، تلوث الماء، تلوث التربة، أو بناء على
نوع الملوث الذي يسبب التلوث فنقول التلوث بغاز أول أكسيد الكربون

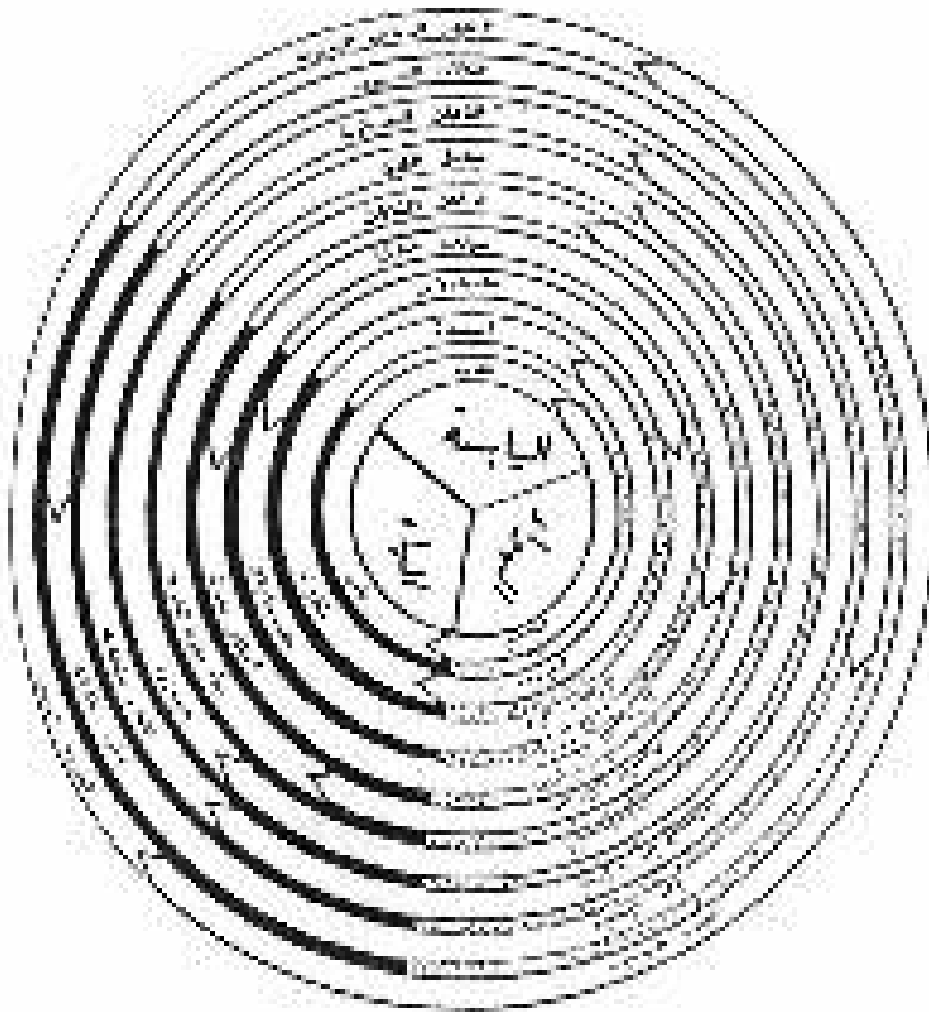
وتلوث بالزئبق أو الرصاص أو الحبيبات الحشرية أو النفايات تصلبة أو تلوث الحراري أو التلوث التلوث الضوئي أو الإشعاعي ... الخ وأحياناً يلمس التلوث إلى تلوث طبيعي وتلوث صناعي (بشري) (19) ويفضل النوع الأول وهو تقسيم التلوث بناء على نوع البيئة وهو ما سنتبعه في هذا البحث (شكل 5).

أولاً: التلوث الهوائي Air Pollution

هو عبارة عن تواجد مواد ملوثة في الهواء ولمدة زمنية كافية لإلحاق الضرر الطبيعي بصحة وحياة الإنسان والحيوان والنبات، كما يحدث تلوث الهواء عندما يحدث تغير عام في نسب الغازات المكونة للغلاف الهوائي وتؤدي هذه التغيرات إلى تأثيرات ضارة مباشرة وغير مباشرة على المكونات الحية أو غير الحية المكونة للنظام البيئي، فمن المعروف أن نسبة الأكسجين في الهواء حوالي 21% والنيتروجين 79% في حين يشكل ثاني أكسيد الكربون نسبة 0.03% ويحار الماء من 1 - 4% بالإضافة إلى حوالي 1% غازات خاملة، فأي زيادة أو نقصان في هذه النسب يعتبر اختلالاً بالتوازن البيئي وتوعداً من التلوث (20).

يتلوث الهواء سهل الإدراك لدى الإنسان وخاصة لمن يعيش في المدن الكبرى والمناطق الصناعية، وتشعر بتلوث الهواء عندما تلتهب عيوننا وتتهيج وفات وتعمل صحتنا أو عندما يكون له آثار غير مباشرة على النبات أو عندما يحيم لظباب الدخان SMOG فوق المدن، فالهواء من أرقص مواد البيئة ولكنه أفسنها في الوقت نفسه فهو من الحياة حيث لا تستطيع الكائنات الحية أن تسعني عنه وخاصة الإنسان للحفقات معدومة، بينما يستطيع أن يعيش بدون ماء لمدة أيام ويشرب غذاء لمدة أسابيع.

(شكل 5) أنواع التلوث



المصدر: الصحاح في الوطن العربي، ص 13

تلوثات الهواء ومصادرها:

1- ملوثات من مصادر طبيعية.

تمثل هذه الملوثات في الغبار الناتج عن عمليات هدم التربة وحركة الرياح والحرائق والبراكين والغبار الكوني الذي يصل إلى الغلاف الجوي من الفضاء الخارجي، كما يحتوي الهواء على حبوب الطلع Pollen Grains التي تزداد كميتها في الهواء بشكل ملحوظ في الربيع وتسبب أمراض الحساسية الربوية لكثير من الناس، كما يتواجد في الهواء أنواع مختلفة من البكتيريا، أما الإنسان فهو الآخر مصدر طبيعي من مصادر تلوث الهواء خاصة في المدن الكبرى والأماكن المزدحمة حيث يطلق يومياً حوالي عشرة أمتار مكعبة من هواء الزفير الذي يحتوي على 4% من غاز ثاني أكسيد الكربون والعشبع بينما الماء كما يقرز الشخص الواحد من 600 - 900 جرام من الماء بواسطة عملية العرق.

2- ملوثات من مصادر بشرية:

يمكن اجمالاً ملوثات الهواء الناتجة عن مصادر بشرية في الآتي:

أ) الملوثات الناتجة عن احتراق الوقود:

ينتج عن الاحتراق الكامل للوقود غاز ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء وكميات قليلة من أكاسيد الكبريت والنيتروجين، أما الاحتراق غير الكامل للوقود فينتج عنه غازات ومركبات مختلفة ملوثة للهواء أهمها أول أكسيد الكربون، ثاني أكسيد الكربون، الهيدروكربونات، مركبات الكبريت، أكاسيد النيتروجين، والجزيئات PARTICULATE كالتهاب (السخام) SOOT.

ب) الملوثات الناتجة عن النشاط الصناعي:

نتج الصناعات المختلفة العديد من الملوثات، فلاحظ أن نتيجة حرق الفحم الحجري في محطات الطاقة الكهربائية يؤدي إلى زيادة الطلاق بعض

المعادن مقارنة بما يجري في الطبيعة بعشرات العرات، فالرليز يرد
 به 8700 مرة والزرنيخ به 125 مرة واليورانيوم به 60 مرة والكاديوم به 40
 مرة، ويؤدي إنتاج واحد من حديد الزهر إلى تلوث الهواء به 4.5 كيلوجرام
 من الجزيئات و 2.7 من ثاني أكسيد الكبريت و 0.5 كيلوجرام من السجيز
 إضافة إلى مركبات الزرنيخ والفوسفور والرصاص وأبخرة الزئبق وغيره
 وتطلق صناعة النفط أكاسيد الكبريت والنتروجين والشاير وأول أكسيد
 الكربون وكبريتيد الهيدروجين، كما تطلق صناعة الألومنيوم والأسمنت
 الفوسفاتية غاز فلور الهيدروجين (HFC) وغيرها من مركبات الفلور كما ينبع
 عن صناعة الأسمدة غازات مدمرة ناتجة عن احتراق الوقود وسيلكون
 وكميات كبيرة من الغبار.

ج) ملوثات ناتجة عن حرق وإعادة استعمال النفايات البترية والصناعية⁽²⁴⁾:

الأثار والانعكاسات البيئية لتلوث الهواء :

تأتي وسائل النقل في الصدارة من بين مصادر التلوث الهوائي في المدن
 الكبرى، ويرجع سبب تلوث الهواء بعوادم السيارات في المدن إلى عدة
 أسباب منها كثرة عدد المركبات وكثافة الحركة على الطرق والممرات
 وارتفاع المباني على جانبي الطرق مما يقلل من التهوية الطبيعية، وعدم
 تخطيط اتجاهات الشوارع بحيث يمكن الاستفادة من اتجاهات الرياح، من
 عيانة السيارات⁽²⁵⁾ وتعتبر مدينة القاهرة أكثر المدن العربية تلوثاً في
 السياق، حيث وصلت معدلات التلوث إلى درجات عالية وخطيرة إذ يحتوي
 جو المدينة على نسبة عالية من العناصر الثقيلة والمادة مثل الرصاص
 والكاديوم والنيكل وغاز ثاني أكسيد الكبريت الذي يتصاعد من المداخن بعد
 حرق بعض أحماض الوقود التي تحتوي على نسب عالية من الملوثات (كبريت)
 تلك النسب في جو القاهرة كالتالي :

- أول أكسيد الكربون 52 %
- ثاني أكسيد الكبريت 10 %
- مواد هيدروكربونية 12 %
- غبار ومواد صلبة 01 %

وقد أدى التعرض للملوثات المنتشرة في الجو من عوادم السيارات إلى تضرار صحة أصيب بها رجال المرور الذين أوضحت بعض الدراسات بأن حوالي 40 % منهم يشعرون بضيق النفس وأن أكثر من 42 % من الأشخاص بعد الدراسة يعانون من أعراض وحلقات الشهاب أغشية العين والشهاب للوزن والحلق والجزء الأعلى من الجهاز التنفسي والصداغ ويشكو بعضهم من ارتفاع ضغط الدم⁽²⁴⁾، وفي مدينة حلوان ترتفع معدلات التلوث نتيجة لتركز صناعة الأسمت والحديد والصلب وما يرتبط بها من صناعة فحم الكوك حيث يعمل معدل سقوط الأتربة في منطقة حلوان ككل والمنطقة الصناعية بصفة خاصة أكبر من معدل في أية منطقة أخرى في انعام، طمثلاً يبلغ معدل أماب الأتربة السدرة فوق المناطق الصناعية في الولايات المتحدة 9 طن/كم² شهرياً وفي المناطق السكنية بكندا 7 طن/كم² شهرياً وفي مدينة جدة بالسندكة العربية السعودية 50 طن/كم² شهرياً.

بينما يبلغ في المنطقة الصناعية بحلوان 303,34 طن/كم² شهرياً⁽²⁵⁾ وفي مدينة بنغازي بليبيا يتشر القيار من مصانع الأسمت بالمدينة في كل اتجاه وبعد المرافق القريبة من المصانع أكثر تضرراً من غيرها ويختلف تسرب القيار من مصانع المدينة من مصنع لآخر حسب أقدميتها، لمصنع بنغازي يسرب 300 ملجم/م³ بواقع ثلاث خطوط إنتاجية، أما مصنع الهواري يسرب 100 ملجم/م³ ويعني ذلك أن مصنع الهواري أقل تسريباً للقيار من مصنع بنغازي الذي تواجهه بعض المشاكل الفنية تتمثل في عدم مرشحات

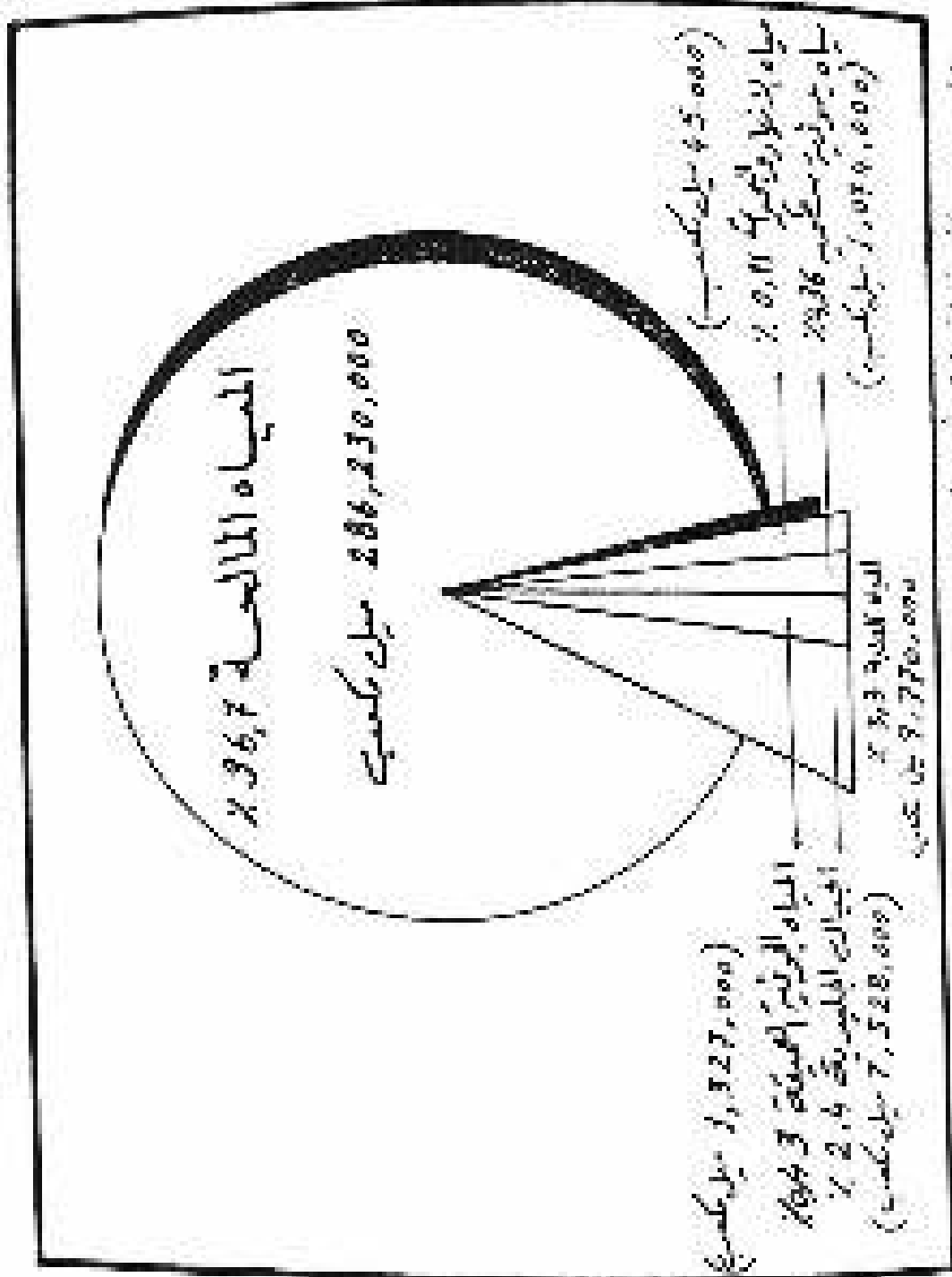
الغبار وصغر حجمها، وليس الغبار هو المصاحبة الوحيدة فقط التي تصاحبه من مداخن مصانع الأسمدة في المدينة بل هناك غازات أخرى تسبب الضرر بالصحة العامة مثل غاز ثاني أكسيد الكبريت وأول أكسيد الكربون أما عن الأثر المترتبة عن الغبار المتصاعد فيعتبر الإنسان أول المتأثرين به وخاصة العاملين بالمصنع حيث يمكن تعرضهم لأمراض الجهاز التنفسي وكذلك التهابات العيون والجلد، كما أن النباتات والتربة الزراعية تتضرر من غبار تراكم جزيئات الغبار على الأوراق ومع وجود العوامل الجوية الأخرى مثل الحرارة والرطوبة تصبح عملية التمثيل الضوئي صعبة الحدوث الأمر الذي يؤدي إلى إيقاف نمو النباتات في المنطقة، ولم تقف الأضرار عند هذا الحد بل تعدت إلى التأثير على الحيوانات التي تعيش في المنطقة.

ثانياً: التلوث المائي Water Pollution :

هو عبارة عن إحداث تغيير في الصفات الطبيعية للماء وذلك بان تغير خصائصه الطبيعية فيصبح غير صالح للاستهلاك البشري مثل اكتساب الرائحة الكريهة واللون والمذاق، أو الكيميائية حيث يصبح الماء ذا تأثير سام نتيجة وجود مواد سامة كيميائية مثل مبيدات الفطريات والزرنيخ أو المعادن الثقيلة أو نتيجة وجود ميكروبات الأمراض بالمياه فيسبب عند شرب الأمراض السمية مثل التيفوئيد والكوليرا وغيرها (٢٠٠٤).

وتشكل المحيطات والبحار وبعض البحيرات والممرات المائية حوالي 97% من حجم المياه الكلي على سطح الكرة الأرضية وهي مياه مالحة، أما المياه العذبة فيمثل الجزء الباقى الذي يصل إلى 3% وتتركز هذه المياه في الأنهار والبرك ومعظم البحيرات والجليد الجليدية ويأمن الأرض 1% (شكل رقم ب).

(شكل 6) توزيع المياه على سطح الأرض



الملوثات المائية ومصادرها:

يعتبر تلوث المياه بدرجة بسيطة أمراً مقبولاً لأن المياه النقية تكون أكثر وفرة وتوجد في المعامل فقط، وليس هناك مياه طبيعية نقية تماماً، ولكن بشرط ألا تتعدى الملوثات الدرجة الآمنة حفاظاً على النظام البيئي الذي يرجع أسباب تلوث المياه إلى مصدرين أساسيين هما:

1 - ملوثات ذات مصدر طبيعي:

التلوث الطبيعي للحياة أمر موجود بشكل دائم، فقد احترق الماء عن المخلفات العضوية منذ ظهور الكائنات الحية النباتية والحيوانية على سطح الأرض، حيث تأخذ المخلفات الطبيعية لأجسام الكائنات الحية والموت العضوية الميته طريقها إلى الماء، وساهم الإنسك في كثير من الأحيان في زيادة التلوث الطبيعي عندما تنقل مياه الأمطار المبيدات الحشرية والمبيد والأسمدة وغيرها من المواد الكيميائية، من الحقول إلى الأنهار والبحار والبحار.

2 - ملوثات ذات مصدر بشري:

تعتبر العوامل البشرية والتي يتحمل الإنسان مسؤوليتها أكثر العوامل تسمية بتلوث المياه، ويمكننا إجمالها في الآتي:

أ) الملوثات الناتجة عن النشاط الصناعي:

تلوث المياه بالمواد الكيميائية الناتجة عن الصناعات المختلفة وأهم هذه الملوثات المعادن الثقيلة (الرصاص، الزئبق، الكاديوم، النحاس والزنك وغيرها) ومخلفات صناعة الورق التي يستهلك نصفها كميّات ضخمة من الأكسجين وتعطي طمباً غير مستساغ ورائحة كريهة فضلاً عن تلوثها الماء وزيادة هذه الكائنات النقية.

ب) المبيدات الكيميائية:

تؤدي المبيدات الكيميائية إلى أضرار بالكائنات المائية وبمختلف تأثير الكائنات المائية بالمبيدات حسب النوع، فيتأثر التعشيل الضوئي في الطنات النباتية بتركيز قليلة جداً من الـ DDT كما أن المبيدات الكيميائية دائمة على إقالة نحو بيض السمك وهي لا تزال ضمن السحب الجيني.

ج) التلوث الحراري:

يحدث التلوث الحراري حينما توجد محطات توليد الطاقة الكهربائية والمصانع التي تحتاج إلى ماء للتبريد وقيورها، ومن ثم تعمل على تصريف تلك المياه ذات درجات الحرارة العالية إلى المسطحات المائية وتؤدي إلى أضرار بالحياة النباتية والحيوانية.

د) النفط:

يعتبر النفط ومشتقاته واحداً من أهم الملوثات المائية التي تتميز بانتشارها السريع حيث يصل إلى مسافة تزيد عن 300 كم من مصدره، ويكون النفط طبقة رقيقة عازلة تعوق التبادل الغازي بين الهواء والماء مما يجعل عملية تشبع الماء بالأكسجين عملية صعبة وهذا يؤدي إلى حرمان الكائنات المائية من الأكسجين.

هـ) النفايات السائلة:

تعتبر النفايات السائلة مصدراً هاماً من مصادر تلوث الماء، وأهم هذه المواد الكيميائية المنظفات والتي أساسها محوم هيدروجينية غير قابلة للتحلل الحيوي كما أنها سامة للكائنات الحية، وتصدر النفايات السائلة من المستشفيات ومصانع الأدوية والألياف الصناعية وغيره⁽²⁹⁾.

الآثار والانعكاسات البيئية لتلوث المياه:

تتأذى البحار والمحيطات من خطر التلوث نتيجة لما يلقى فيها من كميات كبيرة من نفايات المصانع وبنفط وكيمائيات، فالبحر المتوسط يتلقى 2 مليون طن من النفط، وماكة طن من الزيت السام سنوياً، وتتأذى الأنهار أيضاً من خطر التلوث ومن الأمثلة الحية على ذلك نهر النيل (في الأراضي المصرية) فقد أكدت الدراسات أن المصانع الحكومية التابعة للقطاع العام مسؤولة عن إلقاء النفايات الصناعية والملوثات العضوية في الترع ومياه السرى وخاصة مصانع الحديد والصلب بحلوان وشركة أير زيجل للأسمتة ومصرى كفر الزيات للمبيدات وشركة مسطرد لتكرير النفط ومصانع شبرا الخينا لتسيج بالإضافة إلى إنشاء حوالي 80 مصنع مهايكة للألومنيوم مع القطاع الخاص ظهرت بلا تخطيط كما إن معظم المصانع تستخدم السولار ثم تفرج مياه التبريد عن طريق تدفق المياه في مجرى النيل وتحتوي مياه التبريد على مواد عضوية ملوثة⁽³⁰⁾.

تؤكد التقارير أن نهر النيل في مصر يتلقى 56.8% من نفايات الصرف الصناعي و 21% من المصارف الأخرى الملوثة بالمبيدات والأدوية و 13% من المجاري العامة، و 8.8% من المياه الجوفية والبحيرات وبقاً للإحصائيات فإن الصناعات الغذائية تحتل المرتبة الأولى حيث تلقى حوالي 277 مليون متر مكعب من مخلفاتها دون أية معالجة، ثم صناعات الكيماوية 98 مليون متر مكعب ثم الغزل والنسيج 88 مليوناً متراً مكعباً، ثم الصناعات المعدنية 60 مليون متر مكعب والتعدين 14 مليون متر مكعب والهندسية 12 مليون متر مكعب، وتحتل القاهرة النسبة الكبرى في صرف المعادن على مستوى الصناعة ككل، وتصرف أيضاً ما يعادل 93 طناً يومياً من الزيوت والشحوم و 17 طناً يومياً من المواد العالقة شديدة التسمية.

وليس النيل وحده الذي يحضر بل هناك البحيرات وخاصة البحرا

المزلة وهي إحدى مصادر الثروة السمكية في مصر والتي تستقبل مياه مجاري شرق القاهرة غير المعالجة حيث يبلغ ما يلقى بها من مجاز بنحو 1700 مليون متر مكعب في العام وأن هذا الصرف يحتوي على تركيزات عالية من الأمونيا وأخطرها الكاديوم والنحاس والزنك المتراكم في قاع البحيرة⁽³¹⁾، ويرجع بعض العلماء حالات الإصابة بأمراض الكلى والبلهارسيا في مصر وغيرها من الأمراض بارتباط ذلك بتلوث المياه بالمبيدات الكيميائية والمعادن الثقيلة فضلاً عن سوء استخدام المضادات الحيوية ومضادات الروماتيزم والمسكنات⁽³²⁾.

وفي دراسة أخرى عن مدينة بنغازي اتضح أن مياه الصرف الصحي بسحطة التنقية بضاحية القوارضة لا تجري لها أية معالجة أولية من مصادرها الأصلية إذ يتم ضخها مباشرة للمحطة وهذا ما جعل المياه غنية بالجراثيم والميكروبات النشطة والطفيليات المرضية وبكتيريا (أستيريوتوكوما) التي تسبب في تدمير خلايا كرات الدم الحمراء وكذلك بكتيريا (كلوستيريديم) التي تسبب في التسمم الغذائي وسمونولا تايفاي التي تسبب حمى تلوث المياه والتي تؤدي بالتالي إلى نزلات معوية والتهابات المسالك البولية والمعدة من الأمراض الأخرى⁽³³⁾. وتعرض بعض المدن لتلوث المياه الجوفية التي تستخدم للأغراض البشرية المختلفة وخاصة الشرب، ويحدث ذلك نتيجة لعدم إجراء أية عمليات خاصة بالتنقية الأمر الذي يؤدي إلى انتشار التلوث وتعرض السكان للعديد من الأمراض المعدية مثل الالتهابات المختلفة والدوسنتاريا والتسمم وغيرها.

لذلك: تلوث التربة Soil Pollution:

يقصد بتلوث التربة إدخال مواد غريبة فيها، وتسبب هذه المواد تغيراً بالحوامس الضريبية أو الكيميائية أو الحيوية (البيولوجية) للتربة. . . . وينتج

عن استخدام المبيدات والأسمدة الكيميائية والفضلات البشرية والحيوانية
بمراحله كما تلعب مخلفات المصانع والنفايات الإشعاعية والأمطار الحمضية
التي تغير الرقم الهيدروجيني للتربة دوراً كبيراً في هذا التلوث.

المقصود بالتربة:

يلتص بالتربة هنا التربة والبيئة الأرضية المحيطة بالإنسان، والتربة
الزراعية هي أي نوع من الأرض يمكن أن تنمو عليه النباتات وغالباً ما تحتوي
هذه الأرض على عناصر وأملاح معدنية ومواد أخرى تساعد على نمو
النبات، وتتركز هذه العناصر والأملاح عادة في الطبقة السطحية من التربة
والأعمق مختلفة قد تصل إلى عمق كبير يتمكن من الحصول على ما يحتاج
منها خلال المجموع الجذري الذي يفسد في التربة لمسافة ٥٠، تختلف من
نبات لآخر (١٥٢).

يستخدم بعض الباحثين والدارسين مصطلح التلوث الأرضي أو تلوث
اليابسة كبديل عن تلوث التربة، والمقصود بالمصطلحين تلوث الغلاف
الصخري الذي ترتبط به بصورة أو بأخرى، حيث يعتبر المسرح الجغرافي
الذي يحتضن وينشر العديد من الملوثات البيئية.

أنواع ومصادر تلوث التربة:

١ - التلوث الكيميائي للتربة:

تعتبر المبيدات والأسمدة الكيميائية المصدرين الأساسيين لتلوث
الكيميائي وذلك من خلال الآتي:

(أ) المبيدات:

وهي عبارة عن مركبات كيميائية تستخدم لمقاومة الآفات الزراعية
التي من أهمها الحشرات والحشائش والفضريات وبعض الأحياء الأخرى لها
تعيش في التربة.

ب) الأسمدة الكيميائية :

لجأ الإنسان إلى استخدام الأسمدة الكيميائية بدل الأسمدة العضوية التي كانت تستخدم في الماضي، وذلك نتيجة للزيادة المستمرة في عدد السكان وقلة المساحة المزروعة وذلك لكي يوفر أكبر قدر من الغذاء، وقد أدى الإسراف في استخدام الأسمدة الكيميائية إلى تلوث التربة وزيادة ناعديتها كما أدى ذلك إلى الإسراف في استخدام الأسمدة مما سبب عدم التوازن القائم بجميع عناصر غذاء النبات، وتشير الإحصائيات إلى أن استخدام الأسمدة الكيميائية قد ارتفع ارتفاعاً ملحوظاً على المستوى العالمي في الفترة من 1970 م حتى عام 1981 حيث قفزت الأسمدة الأزوتية (النيتروجية) من 32 مليون طن إلى 61 مليون طن، والأسمدة الفوسفاتية من 21 مليون طن إلى 31 مليون طن، ومركب البوتاسيوم من 16 مليون طن إلى 24 مليون طن، كما أدى استخدام الأسمدة الأزوتية إلى ظهور خطر جديد وهو التلوث بالنترات المر الذي يؤدي إلى تلوث التربة وتلوث المياه⁽³⁵⁾.

2 - التلوث بالقضلات الحيوانية والقمامة :

وتشمل الآتي :

أ) الفضلات البشرية والحيوانية :

ويقصد بها المواد البرازية وروث المواشي في كثير من القرى والأرياف وبعض المدن خاصة في البلاد النامية حيث تشر تلك المواد في الشوارع والطرق.

ب) القمامة المنزلية :

وهي التي يكون مصدرها المنازل وتمثل مشكلة خاصة في المدن الكبيرة التي تصف بالزيادة المستمرة في عدد السكان والتوسع العمراني

وتختلف كميتها ونوعيتها من مكان لآخر كما تختلف طبيعتها وأخرائجها من المنازل وسنوك المواطنين تجاه هذه الصنعية .

3 - تلوث التربة بالمواد الصلبة :

نقصد بالمواد الصلبة هنا تلك المواد المقاومة للتحلل أو تتحلل ببطء شديد مثل أجزاء وهياكل السيارات وإطاراتها المستعملة والأجهزة الكهربائية البائدة مثل الثلاجات، الدفايات، الأفران، أدوات الطبخ، فوارخ المشروبات والمواكيل والنزيت المتنوعة من صفيح الألومنيوم والزجاج والبلاستيك ومخلفات البناء والهدم من قطع خشبية وأجزاء معدنية وكتل خرسانة وعمليات حفر الطرق وأثرية الشوارع ومخلفات المتاجر .

4 - تلوث التربة بالأمطار الحمضية :

تعرض بعض الأراضي الزراعية للأمطار الحمضية، ويؤثر هذا النوع من الأمطار وما تحويه من أحماض... مثل حمض الكبريتيك وحمض النتريك على الكائنات الدقيقة في التربة فيخل بالتوازن بين هذه الكائنات كما أنه يغير من الرقم الهيدروجيني للتربة ويؤدي إلى فقد بعض الملاح والعناصر الهامة الموجودة في التربة وذلك بتفاعلها وإذابتها في المياه الحمضية وجعلها من التربة إلى المياه المسضحية مثل الشرب والأنهار والبحيرات والمياه الجوفية .

5 - التلوث الإشعاعي :

تحتوي بعض التربة بطبيعتها على مواد مشعة مثل احتواء بعض المعادن على عناصر مشعة ضمن مكوناتها وأكثر هذه العناصر شيوعاً اليورانيوم والثوريوم والتكاليوم 48، وتشمل هذه العناصر تلوث إشعاعي طبيعي للتربة .

وهناك مصادر تلوث إشعاعي غير طبيعية مثل المخلفات والمولدات النووية الناتجة من صناعة الوقود النووي، ونقيا النظائر المشعة المستعملة في المجالات الطبية أو الزراعية أو الصناعية أو الأبحاث العلمية

المختلفة فقد تجت هذه المواد المشعة طريقها إلى التربة بوسيلة ما وتلوثها (36).

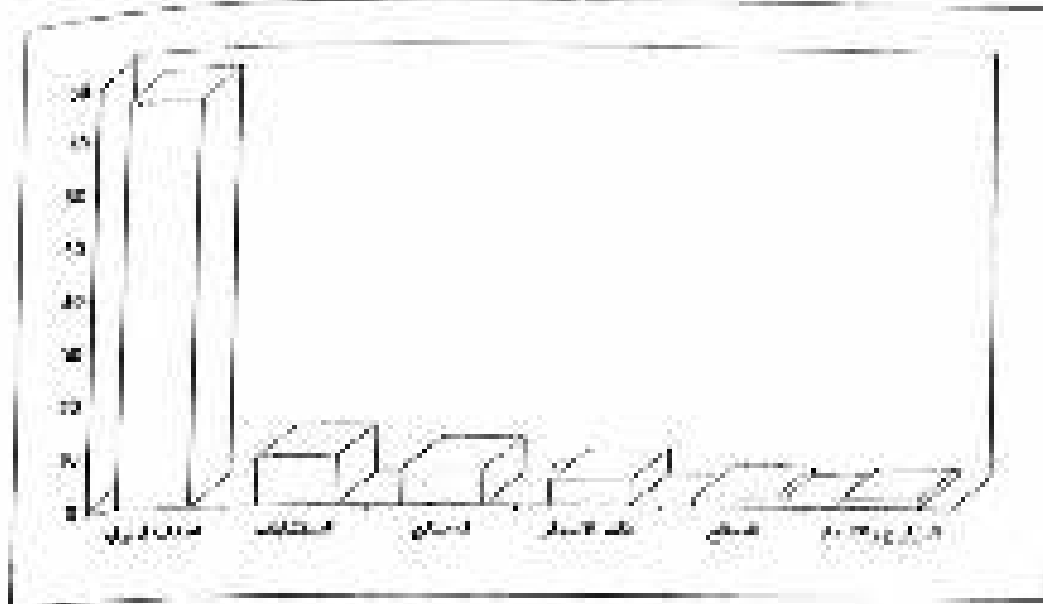
الآثار والانعكاسات البيئية لثلوث التربة :

بالإضافة إلى ما تمت الإشارة إليه من آثار بيئية ضارة كانعكاس استخدام العبيدات والأسمدة الكيميائية وأثر الأمطار الحمضية والنفايات الصلبة، فإن المدن على وجه الخصوص تتعرض لمشاكل يومية نتيجة لتزايد وتنامي كمية النفايات المنزلية (القمامة) والنفايات الصلبة الأخرى، حيث تنتشر في الشوارع والطرق والميادين أكوام كبيرة من تلك النفايات والتي تزداد بزيادة السكان، وتعتبر المدن العربية في صدارة مدن العالم التي تتأثر بهذا المشكلة، فقد وصلت نسبة النفايات المنزلية فيها ما يزيد على 78% من مجموع النفايات الصلبة في المدن العربية باستثناء مخلفات العياني كما أن متوسط إنتاج الفرد اليومي عال حيث وصل إلى 1037 جرام وهو معدل مرتفع نسبياً عن متوسط إنتاج الفرد اليومي في كثير من الدول الأوروبية التي لم يتجاوز الإنتاج اليومي فيها 750 جراماً.

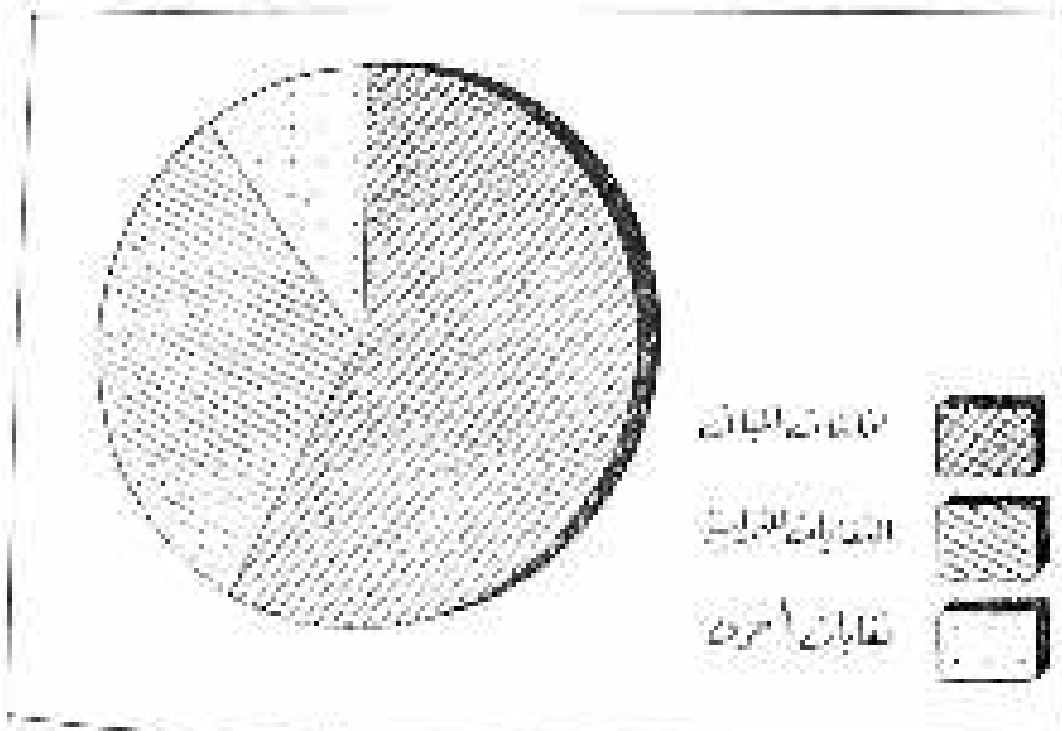
وفي مدينة بنغازي مثلت نسبة النفايات المنزلية في عام 1987 م ما نسبته 71,7% من مجموع النفايات الصلبة المنتجة باستثناء مخلفات العياني (37) (شكل رقم 7) بينما وصل متوسط ما ينتجه الفرد الواحد من النفايات المنزلية 1411 جراماً يومياً (38) أما مخلفات العياني لماثها تعال وحدها أكثر من النصف من جميع أنواع النفايات الصلبة الأخرى في المدينة (شكل رقم 8).

ويؤدي تراكم القمامة في وسط المدن وبالقرب من الأحياء السكنية إلى أضرار بالصحة العامة، وذلك ما لم يتم نقلها إلى مواقع التصريف والمعالجة للحد من خطورتها لاحتوائها على العديد من البكتيريا والطفيليات التي تسبب العدوى، فالتأخير والإهمال في عدم نقلها من مواقع إنتاجها بسرعة وبصورة مستمرة من محطات التجميع القريبة من الأحياء السكنية يؤدي إلى تكاثر الجرذ والذباب وهي من أكثر الكائنات التي تساعد على نقل الأمراض

(شكل 7) نسب العتوية للقطاعات السكنية في مدينة بنغازي عام 1987 بلادي
مخلفات المباني



(شكل 8) نسب العتوية لأنواع النفايات الصلبة المنتجة بمدينة بنغازي عام 1987



للإنسان، ومن أهم الأمراض التي تنقل بسبب انتقال البعوض المنزلي والجربان وبرافيت الجربان RATS FLEAS اشتراكها في نقل مرض الطاعون وحمى التيفوس إلى البشر⁽³⁹⁾ بالإضافة إلى تلك الأمراض هناك أمراض أخرى ينقلها البعوض المنزلي من خلال العضوى وهي التيفود والباثيفود والتوليرا والتوسنتريا الجامبية والأميبيا والإسهال الصيفي والرمم الصليدي والجديري لكاذب والحجرة الخبيثة والجزام - بويضات بعض الديدان المعوية كعثبان البطن والشودة الخيطية - العدوى الصليدية للجروح⁽⁴⁰⁾.

بالإضافة إلى الأنواع الرئيسية للتلوث التي تم الترخي إليها هناك نوع آخر من التلوث أردنا الإشارة إليه لأنه من أكثر أنواع التلوث الأخرى الذي تعاني منه المدن وبصفة مستمرة وهو التلوث الضوضائي ويطلق عليه (NOISE OR SOUND POLLUTION) فالمدن وخاصة الكبرى منها تخرج دائماً بفجيج السيارات وهدير الطائرات النفاثة في طريقها إلى المطارات أو خارجة منها، ويقاس الضجيج أو الضوضاء عادة بالديسيبل (DECIBEL)، يؤدي التلوث الضوضائي الشديدة إلى فقدان مؤقت لحاسة السمع، وعندما تكون مستويات الضوضاء منخفضة حتى منسوب من 50 - 55 ديسيبل فإنها قد تؤثر أو تؤثر في نوم الإنسان وتؤدي إلى الشعور بالإرهاق عند اليقظة، وعندما تصل مستويات الضوضاء إلى 90 ديسيبل قد تسبب تأثيرات بالجهاز العصبي، كما أن الضوضاء تعد من عوامل الإحابة بالأمراض الناجمة عن التوتر مثل القرحة وضغط الدم⁽⁴¹⁾ وتعتبر وسائل النقل المختلفة من أهم مصادر الضوضاء في المدن، وتشهد مدينة القاهرة تزايداً في المركبات حيث تجاوز عددها من 150 ألف مركبة عام 1976 م إلى 280 ألف مركبة عام 1986 م وإلى 500 ألف مركبة عام 1987 م وتمثل المركبات الخاصة 70 % منها⁽⁴²⁾ وتعدني القاهرة من الأزدهم البشري المصحوب بالضوضاء لمختلفة بأوراق السيارات وأصوات المدرة ومكبرات الصوت التي ترتفع ارتفاعاً كبيراً حتى عند الحديث العادي وتلك الموسيقى التي تنطلق من

المدايح وأجهزة التسجيل والإذاعة المروية فضلاً عن المقاهي التي تبسج على
مظاهر الضوضاء.

حوادث ومآسي التلوث البيئي :

شهد العالم العديد من الحوادث والمآسي البيئية من جراء التلوث وقد
كانت تلك الحوادث نتيجة عوامل بشرية، أي إن الإنسان هو الذي تسبب لها
وخلق حالة من التدهور البيئي انعكست آثاره سلباً على السكان وبالأخص
سكان المدن والمناطق الصناعية، وفيما يلي نستعرض بإيجاز بعض الحوادث
المؤسفة التي سببها التلوث في مناطق العالم :

حادثة ميوسي 1930 م :

تقع هذه البلدة في بلجيكا، حيث أدى تراكم الملوثات الصناعية في
البحر نتيجة الهدوء وقلة الرياح إلى وفاة 60 شخصاً وأصيب الكثيرون بأمراض
مختلفة مثل الالتهابات وضيق التنفس.

حادثة درانو (دورانوا) 1948 م :

وهي قرية في ولاية بنسلفانيا تعرضت إلى تلوث الهواء، وذلك في
ظروف حوية سادها الهدوء والاستقرار وانعدام الرياح مما أدى إلى وفاة 20
شخصاً وإصابة عدة آلاف آخرين بأمراض الجهاز التنفسي.

مأساة مدينة لندن 1952، 1962 م :

تعرضت مدينة لندن في الفترة من 5 - 10/12/1952 لتلوث هوائي
كثيف من الدخان والضباب والملوثات الأخرى حيث أدى إلى وفاة 4000
شخص بالإضافة إلى إصابة عدة آلاف آخرين بأزمات تنفس حادة فيما
تضررت الكثير من الحيوانات أيضاً، وفي عام 1962 م تكررت الحادثة ولكن
الأضرار كانت أقل من الحادث الأول حيث أدى إلى وفاة حوالي 40 شخصاً.

بإصابة آخرين بأضرار صحية مختلفة، وتعتبر المدن التي تقع على
 لمحدبات أكثر عرضة لأخطار التلوث حيث يتراكم الضباب (FOG) مع
 الدخان (SMOKE) وخاصة في فصل الخريف مكونة الضبخان (SMOKE)
 (الكل رقم 9) وهو أخطر أنواع الملوثات الهوائية ناتج من اتحاد أكاسيد
 النتروجين والهيدروكربونات مع وجود أشعة الشمس مكونة الأكاسيد
 الكيميائية الضوئية ومع جزيئات الهباء يكون الضبخان الأسود.

أكاسيد النتروجين + مواد هيدروكربونية ضوء الشمس جزيئات الهباء الضبخان الأسود.

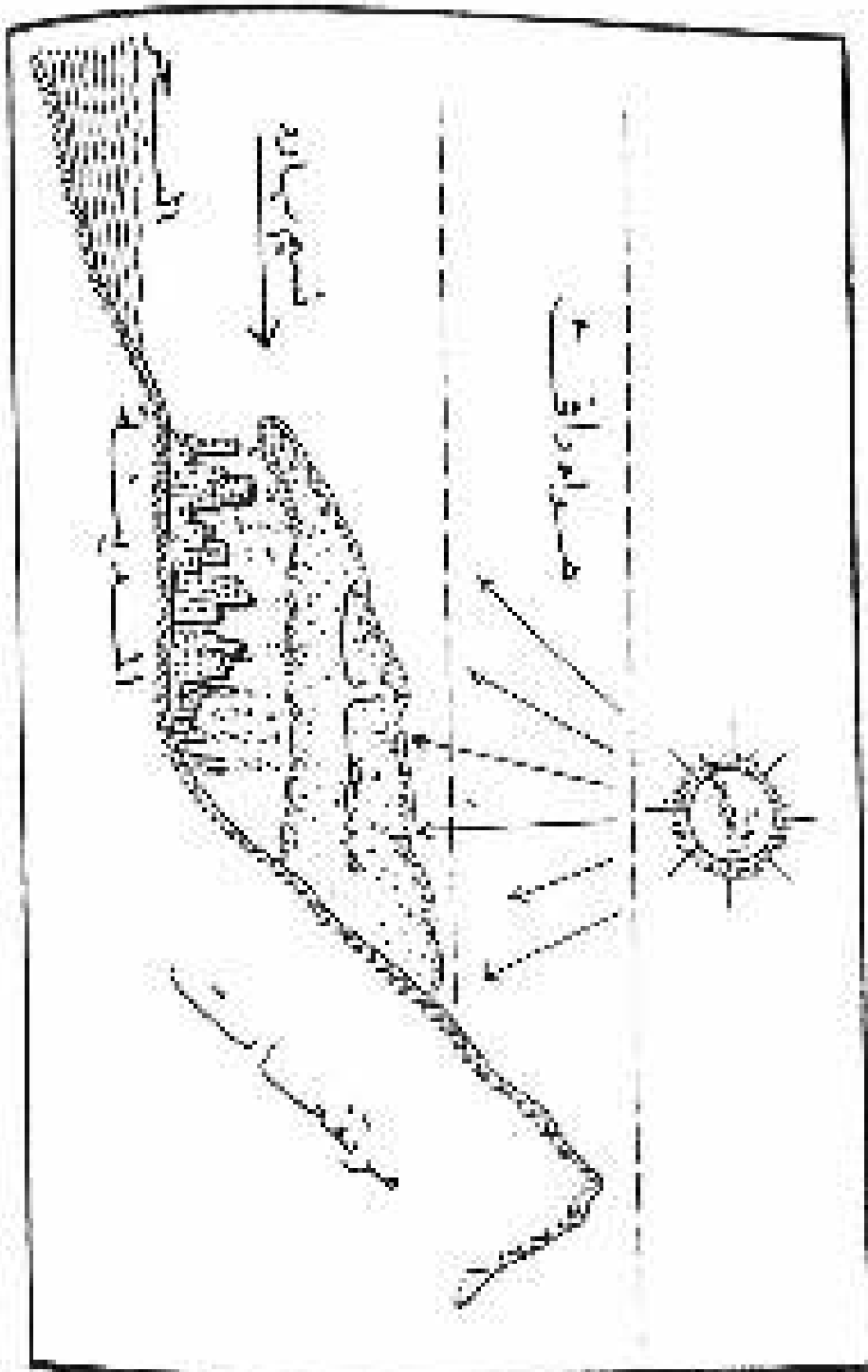
دراسة منظمة يورباي الهندية 1989 م:

شهدت هذه المنطقة انفجار المصنع الكيميائي في شهر ديسمبر
 (الكلود) 1989 م حيث مثل أسوأ كارثة في تاريخ الصناعة الحديثة، أدى
 الحادث إلى وفاة أكثر من 2500 شخص وإصابة حوالي ربع مليون آخرين
 بتلوثات وجعهاست مستديمة من المعى وتلف بطانة الرئتين . . . الخ.

حادث مناغل شيرنوبل:

وقع هذا الحادث في شيرنوبل بالاتحاد السوفيتي السابق في الثمانينات
 من هذا القرن حيث تم إجلاء سكان المدينة عنها نظراً لتلوث الجو وإصابة
 النبات والحيوان بأضرار: وقد انتشر التلوث إلى مسافات بعيدة وأصاب
 المناطق المجاورة، وقد قدرت الخسائر الاقتصادية 358 بليون دولار،
 ولكن مشكلة هذه الملوثات ليس في الأشخاص الذين أصيبوا بإصابات بالغة
 ولكن فيما يترتب على هذه الإصابات من أمراض مزمنة وأمراض سرطانية يظهر
 تأثيرها بعد عدة سنوات وقد يتوارثها الأطفال (15).

(شكل 9) كيفية حدوث الفيضان في اليمن



حرق آبار النفط في الكويت:

أدى حرق آبار النفط الكويتية نتيجة حرب الخليج إلى تلوث الجو بملوثات جديدة غير موجودة في البيئة المحلية أساساً مثل السخام (SOOT) إضافة إلى مواد هيدروكربونية مختلفة في حالة غازية وسائلة وحالقة ترسب على أسطح وواجهات المباني كذلك ارتفاع نسب الكلور وثاني أكسيد الكبريت وأول أكسيد الكربون^(٤٤).

الحد من التلوث:

يرى البعض أن حل مشكلة التلوث يكون بالتخلص منه والقضاء عليه، إلا أن ذلك يعد من الأمور غير الممكنة، فالعادة كما هو معروف لا تفي ولا تخلو من عدم، ونظراً لكون التلوث مقترن بحياة الإنسان منذ بدايتها ومرتبطة بنسطة الإنسان المختلفة في البيئة، لذلك فإن الحل يكمن باتباع خطوات وخطى للحد من التلوث، والعمل بشتى الوسائل للتخفيف من حدته وجعل أثره وأخطاره محدودة كلما أمكن ذلك.

وهناك عدة طرق وأساليب يمكن اتباعها للحد من التلوث أردنا إنجازها في خاتمة هذا البحث وهي:

- 1- محاولة تعيين ومعرفة دراسة جميع أنواع الملوثات ومصادرها الأساسية.
- 2- محاولة تعقب حركة انتقال الملوثات في الهواء واتساعها والأرض وأيضاً درجة تركيزها عند مرورها في السلسلة الغذائية.
- 3- معرفة ودراسة جميع أنواع التفاعلات الثانوية الجديدة الناتجة عن هذه التفاعلات.
- 4- مقارنة المشاكل الناتجة عن استخدام المواد الحامضة للملوثات بدرجة

الاستفادة التي أدت إلى استخراجها واستعمالها في الأوساط المختلفة.

- 5 - معرفة درجة التركيز الخطيرة لكل ملوث.
- 6 - الاستفادة الاقتصادية من الملوثات وخاصة الصلبة منها سواء باسترداد بعض محتوياتها وإعادة تصنيعها مرة أخرى أو تحويل بعض موادها إلى ألياف القابلة للحرق إلى أسمدة عضوية ذات قيمة غذائية عالية للنبات، إمداد إلى هذه طرق تقليدية لتحدد من الملوثات الصلبة مثل الحرق والتدفئة ودرء الأماكن المنخفضة.

فالحد من التلوث هو نوع من حسن إدارة الإنسان وعلاقته بالبيئة الحيوي والتعامل الحكيم مع البيئة، فالتلوث الهوائي يمكن الحد من أخطاره إذا تم اتباع بعض الأساليب مثل تطبيق الطرق الحديثة في المصانع لتخلص من الغازات والأبخرة المتصاعدة، ووضع الفواجر واللوارج التي تحدد مناطق إقامة المصانع - كما يجب أن يتضمن التخطيط العمراني للمدن توافر الحدائق والشوارع والحدائق الواسعة التي تغير متنفساً للسكان، وإلزام شركات صناعة السيارات بوضع ضوابط تنويع السيارات عن طريق إضافة محولات مسعدة، كما يستوجب ضرورياً أن تلتزم الجهات المختصة ومالكي السيارات القديمة التي تصاعد منه الغازات بكثافة بصيانتها.

أما التلوث المائي فيمكن الحد من أخطاره بوضع المعايير لمخلفات الصناعة التي يمكن استقبالها في محطات تنقية مياه الصرف الصحي أو المسطحات المائية على أن يؤخذ في الاعتبار نوعية الصناعة، كما يجب تبنى الأسس العلمية لإنشاء شبكات لرصد نوعية المياه والتغيرات التي تطرأ عليه ومعالجة ذلك أولاً بأول، كما يجب حظر إلقاء أية مخلفات في البحاري المائية دون معالجة والتفتيش الدوري على الناقلات والسفن وإلزامها بأعمال الصيانة لمنع تسرب الزيوت والوقود منها.

أما تلوث التربة فيمكن الحد من أخطاره باتباع بعض الطرق والأساليب أهمها إلزام جميع المؤسسات والهيئات والشركات باتباع اللوائح الخاصة بسلامة البيئة وزيادة الوعي بالنظافة العامة، وإعادة استخدام النفايات المنزلية وإقامة صناعة جانبية عليها مثل الأسمدة العضوية، وحظر استخدام المبيدات والأسمدة الكيميائية إلا في الضرورة القصوى واستبدالها بالمكافحة البيولوجية (الحيوية).

الهوامش والمراجع

الهوامش :

- 1 - علي زين العابدين عبد السلام، محمد بن عبد العريض عرفات، تلوث البيئة لمن المدينة، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1992 م، ص 17.
- 2 - أحمد رشيد، هناء الحسن رشيد، علم البيئة: معهد الأبحاث العربي، بيروت، 1976 م، ص 10.
- 3 - CLARE & ANTONSON, ENVIRONMENTAL SCIENCE CHARLES E. NIRELL - 48 SELF COMPANY, LONDON 1981, p. 2.
- 4 - زين الدين عبد المنصور، البيئة والإنسان علاقات وتشكلات، نشر المدارف الإسكندرية، 1981 م، ص 7.
- 5 - محمد سعودات، تلوث وحماية البيئة، دار الأبحاث للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1988 م، ص 39.
- 6 - نفس المرجع، ص 11.
- 7 - دمي المنقوب، آثار تلوث البيئي على العيشي: مجلة العلمية العربية، العدد 70، العدد العربي، العدد (50) سبتمبر أكتوبر، طباعة الكويت، 1981 م، ص 70.
- 8 - عبد السلام، عرفات، تلوث البيئة لمن المدينة، المرجع السابق، ص 11.

- 9 - عبد المقصود، البيئة والإنسان علاقات ومشكلات، المرجع السابق، ص 97.
- 10 - مؤتمر الشعب العام، قانون رقم (7) لسنة 1982 م بشأن حماية البيئة الجريئة الرسمية، العدد (24) السنة (20) أغسطس 1982 م من 410 - 815.
- 11 - عبد المقصود، المرجع السابق، ص 20.
- 12 - عبد السلام، عرفات، المرجع السابق، ص 20.
- 13 - نفس المرجع، ص 21.
- 14 - عبد المقصود، المرجع السابق، ص 102 - 103.
- 15 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الإنسان، البيئة، التنمية، أعمال الحلقة الدراسية عن الظروف البيئية وعلاقتها بخطط التنمية في الدول العربية التي عقدت بالخرطوم، من 5 - 12 فبراير 1972، مطبعة التقدم 1973 م، ص 367 - 368.
- 16 - عبد السلام، عرفات، المرجع السابق، ص 13.
- 17 - نفس المرجع السابق، ص 16 - 17.
- 18 - الإنسان، البيئة، التنمية، المرجع السابق، ص 367، 368.
- 19 - عبد السلام، عرفات، المرجع السابق، ص 25.
- 20 - إحسان علي محاسنة، البيئة والصحة العامة: دار الشروق، عمان 1991 م، ص 54.
- 21 - عبد المقصود، المرجع السابق، ص 115.
- 22 - العودات، التلوث وحماية البيئة، المرجع السابق الصفحات 44 - 45 - 51 - 52.
- 23 - محمد عبد السميع عبد، «مظاهر التلوث» مجلة المدينة العربية، منظمة المدن العربية، العدد (53) مارس إبريل، الصفحات الكويت، 1983 م ص 41.
- 24 - نفس المكان.
- 25 - جمال إسماعيل شاوور، «تلوث الهواء بمدينة حلوان كرد فعل لتدمير الإنسان لبيئته» المحلة الجغرافية العربية، الجمعية الجغرافية المصرية، العدد (19)

السنة (18) القاهرة، 1987 م، ص 80.

- 26 - حيدر عبد الرزاق كبريتا، «تلوث المياه وأثره على البيئة السكنية» مقال
المدينة العربية، منظمة المدن العربية، العدد (6) السنة (2) ديسمبر، العدد
- الكويت، 1982 م، ص 36.
- 27 - عبد السلام، عودات، المرجع السابق، ص 133.
- 28 - عبد المقصود، المرجع السابق، ص 133.
- 29 - العودات، المرجع السابق، ص 130 - 139.
- 30 - محمد عبد السميع، مجلة المدينة العربية، المرجع السابق، ص 42.
- 31 - يوسف سعد، «تلوث يفتك بالمصريين» صحيفة الشعب، حزب العمال،
العدد (717) السنة (14) القاهرة، بتاريخ 16/2/1993، ص 2.
- 32 - محمد القنواطي، «تلوث يحاصر الإنسان المصري ويسبب قتل الكلوي»
صحيفة الأهرام، مؤسسة الأهرام، العدد (39026) السنة (118) القاهرة،
بتاريخ 12/10/1993 م، ص 15.
- 33 - محمد عبدالله لاما، «تلوث البيئي بالفضلات الصلبة في مدينة بنغازي» رسالة
ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافية - كلية لأداب والدراسات
تاريخية، 1990 م، ص 167.
- 34 - عبد السلام، عودات، المرجع السابق، ص 183.
- 35 - نفس المرجع، ص 184 - 186.
- 36 - نفس المرجع، ص 215 - 210.
- 37 - محمد لاما، المرجع السابق، ص 9 - 109.
- 38 - نفس المرجع، ص 110.
- 39 -
FRIDMAN & ANDERSON, CP, LLC, P 361.
- 40 - سرور أحمد منصور، الصحة والمجتمع، دار العربية للكتاب، بدون تاريخ
ص 315.
- 41 - محمد عبد الرحمن الشرنوبلي، الإنسان والبيئة، مكتبة الأنجلو المصرية
القاهرة، الطبعة الثالثة، 1989 م، ص 216 - 217.
- 42 - محمد عبد السميع، المرجع السابق، ص 44.

43 - جمال سليمان الجروشي، «حماية المدينة العربية من التلوث» مجلة
المدينة العربية، منظمة المدن العربية، العدد (50) ديسمبر/أكتوبر: الصفح:
- الكويت، 1992 م، عن 9 - 10.

44 - أمانة للتدريج، «آثار التلوث البيئي على المباني في الكويت» مجلة المدينة
العربية، منظمة المدن العربية، العدد (51) نوفمبر/ديسمبر 1992 م، عن
63.

المراجع:

- * بنك الدولي للإنشاء والتعمير، التنمية في العالم، مطابع الأهرام التجارية،
القاهرة، 1990 م.
- * حولي، محمد وضوان، التصحر في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة
العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1985 م.
- * عبد الجواد، أحمد عبد الوهاب، تلوث الهواء: الدار العربية للنشر والتوزيع،
القاهرة، 1991 م.
- * عيد، عاطف «التشريعات اللازمة للسيطرة على ملوثات الهواء» مجلة التنمية
والبيئة، العدد (14): القاهرة، نوفمبر 1987 م.
- * مصيلحي، فخري محمد «تلوث الهواء بالمدينة السعودية» مجلة دراسات
الخليج والجزيرة العربية، العدد (46) السنة (12) إبريل، 1986 م.
- * منظمة المدن العربية، المعهد العربي لإنشاء المدن، النظافة العامة والتخلص من
النفايات في المدن العربية، دراسة استطلاعية، المجلد الأول، الرياض
1985 م.

* Aron H. Hantey Man and Environment, New York, 1975.

* El Ghandour, M.f. Studies on Air pollution From Construction plants in
Fehwan Industrial Area: I - Total Dust Deposition Over the Area, Vol.
17, No. 2, 1983.

* John F. Kolars and John D. Nystuen Geography, the study of landscape.

- values and environment, New York, 1974.
- Lois Esher «Study calls For new approach to environmental problems, Chemical and Engineering News, January, 1989.
- Robert G. Adamson, Pollution and Biological approach, Detroit, 1973.
- World Population Prospects 1990 (United Nation publication, Sales, No. (E. 91.XIII.4).
- World Population, Monitoring 1991 Population Study. (United Nations New York 1991) No. 126.

الترجمة الأدبية

بقلم

د. علاء الدين أحمد حسين

أستاذ - مشارك

قسم الترجمة والتعريب

كلية الآداب والتربية

جامعة فارسيونى

بنغازى

الترجمة الأدبية

يميل بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن الترجمة قرأ عليهم تهديف إلى نقل الآداب الأدبية من لغة إلى أخرى. وعليه، فإن المترجم فنان منهم يُسبغ إهانة وشفافية إحتسابه في نقل روائع الآداب العالمية من منظوم أو منثور من لغة إلى أخرى. ويتجلى دور الترجمة كفن في الترجمة الشعرية أكثر من في ترجمة النثرية، حيث يحتاج المترجم في الأولى إلى قريحة شعرية متفحذة وإحساس مرهف لا يتأتى إلا بشاعر أو مؤهوب⁽¹⁾. لهذا السبب فقد اعتقد بعض الأدباء والفقهاء باستحالة ترجمة الشعر كما يؤكد على ذلك (أبو عمرو الجاهلي) مثلاً، حين يقول: «إن الشعر لا يجوز عليه النقل» أي استحالة ترجمته. وفي نفس هذا المعنى يؤكد (داني): «الكل يعلم بأنه لا يمكن نقل ما آلت بينة عزائم الفن من لغة إلى أخرى دون تحطيم إنشائه وعذوبته»⁽²⁾. وهذا هو السبب الذي حال دون ترجمة شعر هوميروس من اليونانية إلى اللاتينية كما ترجمت كتاباتهم الأخرى التي بين أيدينا. وهذا هو السبب أيضاً في خلو مزامير داود من عذوبة الموسيقى والإنشاق لأنها ترجمت من العبرية إلى اليونانية ومن اليونانية إلى اللاتينية وفي أول ترجمة تلاشت كل تلك العذوبة⁽³⁾.

ويغزى سبب تغذّر الترجمة الشعرية إلى الوزن والقافية والبدعي
والاستعارات والتشبيهات وحرية التصرف في النص الشعري، (أي ضرورة
الشعرية)، الأمر الذي يكون أقل حدة في الأساليب النثرية. لهذه الأسباب
أصبح من الواجب على من يتصدّى لترجمة الشعر أن يكون شاعراً لأنه مهما
كانت براعة المترجم ومعرفة بأسرار النظم فإن الترجمة لا ترفع إلى
المستوى الرفيع ما لم يملك هو نفسه موهبة الشعر والإحساس الموهب
الشعري الذي يجعله ينظر إلى الأشياء بعين الشاعر الأصيل أو أن يقتصر
شخصية الشاعر في (ال.ص) ويعتمد في توجيه الشعري على ما يتفاد من
وحي الشعر الذي يؤسّس إتياناً. هذا يعني أن الترجمة الشعرية هي التواء
للشعر المترجم ذاته؛ وحي والهائم وموهبة وقريحة لا يتقوى عليها إلا من
يؤسّس إليه من وحي الشعراء. وكما أشرنا سابقاً: فليس الوزن وحده هو الذي
وحدّها ما تجعل أمر الترجمة الشعرية أمراً مستحيلاً، بل هناك أسلوب نظمي
وطريقة سبك الأفكار والعواطف وسرعة تلاحقها وما يجتذّها الشاعر من
اللفظ إيحائية واستعارات وغزرها من أساليب البديع حلابة على العروة في
التصريف والاستطراد بما يجوز للشاعر دون غيره، وحليته، فإن المترجم الذي
تغزّره المنكحة الشعرية ويتجزّأ على الترجمة الشعرية تراء يتوه نخت عنه
النص الشعري في الوقت الذي نرى فيه المترجم شاعر يرتفع فوقه. إن هذا
يفسر لنا السبب الذي حدّا ببعض المترجمين شعراء إلى المغالاة في حرية
التصرف والتشبيب وإعادة الصّف عند تضديهم لترجمة الشعرية حتى يؤدوا
إلى ضياع في المعنى حيث يستفاد الشعر إمكانيات وشخصيات اللغة كافة.
الأمر الذي حدّا بالمترجم المتمرّس والشاعر الفذ (فروست Frost) إلى النطق
قائلاً: الشعر هو العنصر الوحيد الذي لا يمكن ترجمته إن هذا يعترك
سبب وجود عدّة ترجمات لفصيدة واحدة ولعل خير مثال على ذلك نصيلاً

رباعيات الخيام للشاعر الذائع الصيت غياث أبي الفتح عمر بن إبراهيم النخعي
البيضاوري . إن رباعيات هذا الشاعر ، الذي كان كذلك وحيد عصره ولم يذ زمانه
في جلتى الفلك والفلسفة ، دخلت نهائياً في جداد كنوز الأديب العالمي ودرره ،
نظراً منقر في القرن الماضي خمس وعشرون طبعة من ترجمتها إلى الإنكليزية
وختماً ، هذا علاوة على ترجمتها إلى جميع لغات العالم الأخرى كذلك .

يرى عدد الرباعيات على الألف رباعية ، رغم أن هناك من يعتقد أنها لا
تجاوز مائتين وأربعين وخمسين رباعية . وقد كُتبت باللغة الفارسية على وزن
الذوبيت وهو على إيقاع (لا حول ولا قوة إلا بالله) (١٥) . لقد تناول (الخيام)
في هذه الرباعيات أغنى المشكلات الفلسفية وأصعبها ألا وهي الحيرة أمام
الوجود الذي يثير تساؤلاً وقلقاً مبرحاً في ذهن الشاعر . يحاول (الخيام) أن
يعرض أحوال من فتوا من الناس عقولهم وضعيفهم ، خيلهم وفقيرهم
ويحاول أن يتخلص آثارهم : (هذا قصر جسيدي الذي لا يد عمر طويلاً حاطلاً
بالأفراج والليالي السراح يرتع فيه العباب وينات آرى الآن يملا عواذها آثاره
المتروكة . . . و (بهرام كور) الذي كان يصيد بقر الوحش في غنابات قصره
صادة قبرة أخيراً من قصره) إن هذا التراب والحق الذي تطؤه فئناؤه هي بقايا
رفات من ترخوا عن وجه البسيطة . . . فهذه كاشفة ربما كانت تخر حسنة ،
والكور الذي يظنعه الخراف كان يوماً جسداً جسيدياً كذلك لأن جسداً
الخراب سيؤول حيناً قريباً كهذا الكور . . . إن (١٦) .

وكأي منكوب أفقده الرعب صوابه من تلك النهاية الباردة والموت
المفزع فأنه يتجزأ على عتاب خاليه بتشيع معزج بالسخط ويسأله : لم يوقع
هكذا بمخلوقاته المسكينه؟ بيد أنه سرعان ما يعود إلى وعيه ويعتذر لخالفه
اعتذاراً لطيفاً حيث يقول : يا الله إنك تزني نحالي وترحمك ستمهني ولن

بَسْوَةٌ وَجْهِي بِمَا تَجْرَأُ وَبِحُثِّهِ سَابِقاً... إِنْ كَرِهْتَكَ وَعَقْرُكَ أَكْبَرُ مِنْ
 خَطِيئَتِي... وَمَنْ ذَاكَ الَّذِي هُوَ مَعْصُومٌ مِنَ الزَّلَالِ؟ أَلَمْ يَأْتِ اللَّهُ... وَهَذَا الَّذِي
 لَمْ يَطْلُغْ فِيكَ يُوْخَلِ الْمَعَامِي كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَعِيْنَ؟... لِي لِي؟ وَإِذَا
 اقْتَرَفْتَ الْمَعْصِيَةَ فَعَانَيْتَنِي بِمِثْلِهَا... طَائِلُ فَرْقِي يَتَقَى بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ...؟ قُلْ لِي؟
 اعْتَرَفْتَ نَكَ... إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ أَهْلَيْتُ فِي طَاعَتِكَ، وَلَمْ أَتَقَضَّ عَنْ
 كَاهِنِي عُيَاظَ نَخِيلَتِي قُلْتُ وَتَمِيمًا مِنْ نَيْصِ كَرِيمِكَ... أَسَلَوْتَنِي فِي ذَلِكَ لِي
 لَمْ أَشْرَفْ بِكَ... وَأَمَنْتُ إِيمَانًا مُتَعَلِّقًا بِوَحْدَانِكَ؟⁽⁸⁾

لقد وجدت (الرباعيات) كل قبول واستحسان من كل المترجمين
 العرب والأجانب على حد سواء وكان أول من اضطلع بترجمتها من
 الإنكليزية إلى العربية شعراً هو الشاعر (رديغ البستاني) وتلاه (محمد
 السباعي)، وبعد وقت قصير تصدى لترجمتها من الفارسية السيد (محمد
 الهاشمي) ترجمة شعرية. وبعد ذلك اضطلع الشاعر (أحمد رامي) بترجمتها
 شعراً من الفارسية إلى العربية وكذلك فعل الشاعر العراقي (عبد الحق قاسم)
 في كتابه (نور الحيام)، وترجمتها مؤخراً شاعران عربيان آخران هما الشاعر
 المصري (أحمد زكي أبو شادي) والشاعر العراقي (أحمد الصافي النجفي)
 كما ترجمتها إلى الإنكليزية ترجمة حرة الشاعر الإنكليزي المتروك (إدوارد فيتزجيرالد)
 (Edward Fitzgerald).

ويرى نقاد أن ترجمة (أحمد الصافي النجفي) أقرب ما تكون إلى
 النص الأصلي فتوقد أن ترجمة (أحمد رامي) رغم العربية التي شفع فيها
 بها، فإنها أكثر التراجم عبثية وأحلاماً نغماً وموسيقاً. واليك نموذج من
 ترجمة الشاعر (أحمد الصافي) وترجمة الشاعر (أحمد رامي) مع مقارنة لها
 بترجمة الشاعر (إدوارد فيتزجيرالد).

Dreaming when Dawn's left hand was in the sky,
I heard a voice within the Tavern cry,
«A wake, my little one, and fill the cup,
Before life's liquor in it's cup be dry».



Alas, that Spring should vanish with Rose
That Youth's sweet - accented Man - script should close
The Nightingale that in the Branches sang⁽²⁾,
Ah, whence, and whether flown again, who knows?



Into this Universe, and why not knowing,
Not whence. Like water - willy - nilly flowing
And out of it, as wind along the Waste,
I know not whether, willy - nilly blowing⁽³⁾.



2 - الترجمة العربية للشاعر أحمد ماضي التجني :

يا خليعاً قد هائمٌ بالمحاناتِ	جاء من حانئنا النداءُ سَجِيراً
فيل أنا ثقيلٌ كوسن الحياةِ	ثم لكي نملأ الكؤوسَ شداماً



رييحُ أفراسي فتاةٌ مُجديها	فدا نظري مطر الشبابِ واعتدي
نسي أنني وأبي وعشرونا	لهنسي يطيرُ كعادَ يزغى بالضبابِ



تزدبسي إلا حيرةً وتغيبُ	أمر بي لهذا الكونِ مضطرباً قلمُ
لماذا أيتك الكونُ أو ليم الذهبُ	وعدت عليّ ثم ولست أدر أنني



3 - الترجمة العربية للشاعر أحمد رامي :

صوتك صوتاً هائلاً في الشجر
فكبروا أملاً وانكسرت الطليق
نادى سن الخبان خلفه البصر
قبل أن تقضم ثمن العبر تحت الشجر

* * *

طسوت نداء الأقدار من غير الثياب
وقد شدا طير العيبا واختفى
رطوخك تلك الغصون الرطاب
متى أتى؟ يا لهما أين غاب؟

* * *

أنت شوب العيش لم أنتفض
وسوف أفضو الشوب عنى وتم
وحربت يديس شتى لفتك
أذرك لعدا اجت؟ أين العفر؟

* * *

ولي الترجمة الشعرية في الصعوبة ترجمة الشرائع الإيقاعية لها فيه سراً
وميقى وتماثي وتقابل وتكرار إيقاعي للحفاظ على وحدة النظم في الشعر
الشعري بأكمله. ويمتاز هذا الأسلوب بكثرة التكرار وعليه فسنجد المترجم
والخاتمة هذه أن يكون عذراً بالاعتراضات التي يراعى ترتيب الكلام وتساها
بشكل يفتق وأسلوب اللغز (د. م.) (د. م.). ويوقف هذا النوع من لفظ
عادة في الخطب السياسية والمفالات ذات الشخصيات الوطنية كما في خطبة
المرشد جاتام Lord Chatham عن أمريكا التي أختبرية منها ما يلي :-

"I cannot, my Lords, I will not join in congratulations and disgrace.
This, my Lords, is a perilous and tremendous moment. It is not a time
for jubilation. The smoothness of flattery cannot now avail-cannot serve
us in this rugged and awful crisis. It is now necessary to instruct the
House in the language of truth. We must dispel the delusion and
darkness which envelope it, and display in its full danger and true
nature the ruin that is brought to our doors. Can ministers still

presume to expect support in their infatuation? Can parliament be so dead to its dignity and its duty to give support to measures thus obtruded and forced upon us-measures, my Lords, which have reduced this late flourishing empire to scorn and contempt».

الترجمة:

ألا استطيع ولا أريد أيها اللوردات أن أشارك في التهنئة على سوء الحظ والفضيحة أنها - أيها اللوردات - لحظة عظيمة هائلة وليس الوقت وقت جدل وابتهاج. لنعمومة المداينة لا نستطيع أن نجدنا نقماً - لا نستطيع أن نبتلنا من هذه الأزمة الرهرة المخيفة. علينا الآن أن نرشد العرش بلغة الصلح. ينبغي علينا أن نهدد التضليل والظلام اللذين يكتنفانه ونعرض الخراب الذي وصل إلى أبواب دورنا، بخطر الكمال وألوانه الحقيقية. ألا يزال بوسع الوزراء أن يفترضوا توقع المساندة في هواهم العابر هذا؟ أيمكن للبرلمان أن يكون ميتاً إلى هذا الحد أزام كرامته وواجبه بحيث أنه يناحصر إجراءات قويت علينا طرغاً وأرغمنا على قبولها؟ إجراءات أنزلت، أيها اللوردات، هذه الأباطورية التي كانت مزدهرة إلى عهد قريب إلى درك الرزية والتخاروقة؟⁽¹⁾

وقرب من الشر الإيقاعي من حيث صعوبة الترجمة الإيجاز الإيقاعي أو الثغرات Lacerive Brevity وهو أسلوب منقول مكثف خال من التحشو بحيث لا يُمكنك إضافة نغمة أو حذف آخر دون أن تُخلُ بجمال تركيبه وروحه معناه وغيره مثال على هذا النمط من الأسلوب هو القرآن الكريم ذو البيان الساحر والأسلوب المُعجز. الأمر الذي خذى بالكثير من الباحثين المسلمين إلى القطع باستعالة ترجمته إلى اللغات الأخرى وُحجَّتهم في ذلك أن الرسول (ص) تعدى بلغة العرب وأساطين اللغة أن يأتوا بآية من مثله في

الإيجاز والإعجاز اللسني فختاروا عاجزين فكيف إذا أردنا ترجمة إلى لغتين
 أعجمية أخرى؟ وفي هذا السياق لرى ابن لبيبة يفتي في عدم جواز ترجمة
 القرآن حين يشرح قائلاً: «الناس العربي شعار الإسلام وأهليه، واللغات من
 أعظم شعائر الأمم التي بها يتسوّرون، ولهذا كان كثير من الفقهاء أو كثيرهم
 يكرهون في الأدعية التي في الصلاة والذكر أن يدعى الله أو يذكر بغير العربية
 ولا يمكن مترجم أياً كان أن ينقله إلى لغة أخرى... لأن اللغات غير العربية
 ليست غنية بتبلاغة كقناة العربية...» (12).

إن إحدى مشاكل ترجمة القرآن تعود إلى الإخذة العضوية المتعددة
 الموجودة بين الشكي والمصري والقاري، والمستقبل لهما. إن لغة القرآن لا
 تسير بالجمال والفضاحة فصلي كالكثير من أمهات كتب الأدب وشره وقد
 هي لغة تتوحد في أعماق القاري العربي المسلم وتنفذ إلى روحه لينفذ
 معها تفاعلاً لفظياً حتى لو جهل معانيها. إضافة إلى التوسيع الروحي
 والماتية التي تربط القاري العربي المسلم بالقرآن التي يستحيل وجودها
 يظنّها عند ترجمته إلى لغة أخرى وخاصة إلى اللغات الأريبة، فهناك
 مشكلة غموض معاني القرآن وكثرة الشريك اللفظي وتشتت دلالاته
 المتخيلية. فلا خيار للمترجم أزاء هذه المشكلة غير اللجوء إلى الشروح
 والتفسير للقرآن الكريم التي هي نفسها تختلف وتتضارب في بيان المعنى
 الدقيق لهذه المفردة المعجمية أو تلك ودونك الأمثلة التي اختلف المترجمون
 في ترجمتها وذلك لاختلاف الشروح والمصريين العرب أنفسهم (13) ولتوضيح
 ذلك نصرت الأمثلة التالية: - «والسوايات عُرْفًا» (4 - 1: 77) (14).

Palmer: By those sent in a series.

Pickthall: By the emissary winds, (sent) one after another.

Dell: By those that sent gently.

Arberry: By the loosed ones successively.

Sher Ali: By the angles who are sent forth with goodness.

وذلك الآية الكريمة:

﴿والنشرات نشرًا﴾.

Pickballi: By those which cause earth's vegetation to revive.

Sher Ali: And by the forces that spread the truth, a good spreading.

Palmer: And by the dispersers abroad.

Bell: By those that scatter abroad.

Arberry: By the scatterers scattering.

وذلك الآية الكريمة:

﴿أولئكَ فَأُولئِكَ﴾ (34: 75)

Hell: Nearer to thee, and nearer.

Sher Ali: Woe unto thee and woe again.

Dawood: Well have you deserved this doom; well have you deserved it.

Z. Khan: Ruin upon thee and ruin again.

إن الأسلوب في النصوص اللغوية كالقرآن الكريم مثلاً يكون هو المعنى ذاته كما يشاهد في نفس السماع من عاطفة جياشة وروحانيات سامية وهذا يصحّ بقرائن الصوت اللغوي هو المعنى. وعلى سبيل المثال لا الحصر قلوب فرمن على الفاريء العربي المسلم «By the fig and the olive» ترجمة ذلالية ﴿أولئكَ والزبور﴾ وبخاصة إذا رُتلت على نساء الفاريء الدائع الصبي (عبد الباسط عبد الصمد) مثلاً، فإنه أي الفاريء العربي، سهجاً الترجمة الإنكليزية ترجمة مبتدئة ولامثلة وعقيمة وذلك لأنها لا تحصل له أية إعادات نصية أو روحية كما أنها تعفن في تحقيق الوحدة العضوية بين الشكلي

والفخوي والقاريء المسلم كما هو في النسخ القرآني إذا ما وقف في اللغة العربية، ذلك لأن المفردة المعجمية olive و fig لا تُشير إلى غير العنبر إليه أعني (شجرة التين) أو (شجرة التين) أو (شجرة الزيتون) أو (شجرة الزيتون)؛ هذا في الوقت الذي تحمل فيه الآية الكريمة لتقاربه إلى المستمع العربي لحداثه عاطفية وروحية موعظة في عطفه ولغته وذاته وفدائه وذكره ذلك لأن من المألوف أن القرآن الكريم يوتل في المجتمعات العربية الإسلامية في مناسبات عدة في الأفراح والأفراح. وعنده، فإن سماع آية قرآنية كريمة يرد في نفس مناجها ذكريات حبيبة قد تعود إلى صباه أو شبابه أو قد تثير في ذمته ذكريات مهيبة تنزع من ريبه أصف ويتواظف ويتواظف ويتواظف مع أحداث قد تكون حزيناً لا ينجوا من حياة اليومية من المسلم به أن تقاربه العرب المسلمة قد اعتاد سماع الآية الكريمة «التين والزيتون» وتسمها سمعها نيك بترام به وتشتد بوقع قوة خرابته لأنها لا تثير في عطفه وذمته المشارة إليه (شجرة أو ثمرة) بقدر ما تثير عاطفته ووجدانه ونسوة بروحه. فنحن إلى القول: إن القرآن وقاربه العربي لشكل وحده عظيمة ذات دلالة مقصود بين الشكل والمضمون والقاريء المسلم، تلك الإحدا التي تُضاد بالعطف والابتلاء عند ترجمته إلى لغة أوروبية أخرى وذلك لاختلاف الأبعاد اللغوية والنسبية بين العالمين العربي المسلم والأوروبي المسيحي أو المتلحد.

ولا غرو في ذلك، لأن معنى المفردة المعجمية «قرآن» هو الترتيل وقد يعني أن الأذن تستطرب لسماعه وكذلك القلب وتعتق. إن الصوت اللغوي المُشكّل في الإيقاع والفواصل المنظمة المنطقية والسجع ترفع هو الذي يشكل المعنى للقاريء العربي المسلم وهو ما لا يُمكن ترجمته بطلاقة. إن السورة القصيرة في القرآن الكريم التي تعتمد أساساً على الإيقاع المنظم والإيقاع ذي العزم المُرْتَجَم، هي أكثر الآيات القرآنية قوة وذكر أن الخطيب

والروح وهذه يستحيل ترجمتها لي أدق الترجمات خبيرة وحكيمة واحساناً
ودونك الآيات الكريمة التالية لتوضيح ما ذهبنا إليه في ما يقابلها من ترجمات:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (8 - 7 . 99)

Then who so has done an atoms weight of good shall see it.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ .

And who so has done an atom weight of evil shall see it.

وكذلك الآية الكريمة : (11 - 9 . 93) .

﴿وَإِذَا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزَأْ﴾
As to orphan, do not oppress him,

﴿وَإِذَا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَزْ﴾
And as for the beggar, scold him not,

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْبِرِّكَ فَعَدِّتْ﴾ .
And as for thy Lord's blessing, declare it .

إنَّ بُشَخَاتِ السَّمَاتِ الصَّوْتِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قُوَّةٌ رُوحِيَّةٌ تَلْقَدُ إِلَى
أَعْيَاقِ الرُّوحِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ . بِشَكْلِ عَامٍ وَالْعَرَبِيَّةِ بِشَكْلِ خَاصٍ . إِنَّ تَكَرُّرَ
الْأَصْوَاتِ فِي الْقَافِيَةِ وَالسَّجْمِ وَتَكَرُّرَ الْعَقْدَاتِ الْمَعْجَمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ وَاللُّوْازِمِ
حَتَّى تَصِيحَ الْأَفْكَارُ مَقْنَعَةً وَدَقِيقَةً فِي لِقَائِهَا وَتَكَرُّرِهَا تُضْفِي عَلَى أُسْلُوبِ
الذِّكْرِ الْكَرِيمِ مَسْحَةً تَأْتِيهِ طَافِحٌ عَلَى رُوحِ الْعَرَبِيِّ الْمُسْلِمِ وَالسَّامِعِ لَهَا ، خَيْرٌ
مِثْلَ ذَلِكَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ التَّالِيَةِ :

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾
When heaven is split open

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ﴾
When the stars are scattered

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾
When the seas swarm over

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾
When the tombs are overthrown

﴿قَلْبَتْ نَفْسٌ مَا نَدَبَتْ وَأَخْرَتْ﴾
That a soul shall know its works, the
former and the latter (Arberry, 82: 1-5)

وكذلك :

By the starting charges

﴿والعاديات ضيحا﴾

By the strikers of fire

﴿فالموريات قدحا﴾

By the dawn - rousers

﴿فالمغيبرات ضيحا﴾

(Arberry, 100: 1 - 4)

ولاحظ كذلك التوظيف الأثيري مستحضره للصوت (س) وتجسده لتصور
المطلوب في الآية الكريمة: (5 - 1 - 100)

Say: I take refuge with the Lord of men

﴿قل أعوذ برب الناس﴾

The king of man.

﴿فإنك الناس إليه الناس﴾

The God of men, from the evil of
its slinking whisperer

﴿من شر الوسواس الخناس﴾

Who whispers in the bosoms of men

﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾

Of Ila and men

﴿من الجنة والناس﴾

إضافة إلى التوظيف العفري للصوت الأثيري والتركييب ذات
القياسات والأبعاد الدينية في القرآن الكريم، فهناك توظيف آخر ولابد من
توجيه للمفردات المسجومة ذات الدلالات الغريبة وغير المألوفة لغاري،
والاستمع العربي نسيب فما يثلك بالغاري الأرومي زخم أنها تلي في نفس
الأولي روعة رهبة وخوقاً وخشوعاً غريباً يسمو بروح السامع ويهذب من

ويجيد الأمر الذي من المستحيل ترجمته إلى أية لغة أخرى ودونك الأمثلة
إتالية توضيح ما قلبيته:

﴿طيراً أبابيل﴾ (3: 105)

Pickball: Swarms of flying creatures

Hell: birds in flocks

Arberry: birds in flights

﴿ويلٌ لكل مُغزٍ مُغزٍ﴾ (1: 104)

Arberry: Woe unto every backbiter, slanderer

Bell: Woe to every maligner, scollar

Rawell: Woe to every back biter, defamer.

وهناك سمة أخرى تزيد من إعجاز أسلوب القرآن وسحره ألا وهو دقة
اختيار المفردات المعجمية ومهارتها والاقتصاد في التوظيف الأسلوب
واستخدامه لمقوله «غير الكلام ما قل ودل» غير استخدام وحلى سبيل المثال
الآية الكريمة:

﴿ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ (1: 19).

التي تم فيها ربط خمسة أسماء عن طريق الإضافة المفعولية مبدعاً
لملك تعبيراً آية في الإعجاز والإيجاز اللغوي يستحيل عمل ما ينافره في اللغة
الإنكليزية ودونك الترجمتين التاليتين لهذه الآية الكريمة:

Rawell: A recital of thy Lord's mercy to his servant zachariah.

Arberry: The mention of thy Lord's mercy unto His servant zachariah.

وكذلك الآية الكريمة:

﴿نَادَى إِلَهًا وَنُقِيَّتَاهَا﴾ (18: 19).

Dell: The she - camel of Allah, and her drink.

Arberry: The she - camel of God; Let her drink.

Y. Ali: A she - camel of God,

And (bar her not from) having her drink.

إن مثل هذه السمات الأسلوبية الفريدة من نوعها ومبناها بما لم نلتقي إليه مثل بلاغة استعمال الاستعارة والمجاز اللغوي والحذف النحوي العنبري يجعلُ ترجمة القرآن إلى اللغة الإنكليزية أمراً مستحيلاً كما خبر عن ذلك البروفسور آربري الذي قضى زهاء خمسة عشر عاماً بين الحين والحين مترجماً على مصر كي يعيش الأحياء الإسلامية وسلمهم روح القرآن ويجعلُ إيضاحه ونطقه مستقر في روجه، ولكن بعد رحلة طويلة من البحث الدائب صرح قائلاً باختصار: «إن بيان بلاغة وإيقاع العربية العرفنة في القرآن ذو قوة وتعبير وفعالية وعاطفة جياشة بحيث أن أية عملية نقل في طبيعتها يمكن أن تؤول إلى شبح سواه وتلاؤ الأصل. وتعلُّ العنبري الشائع «المترجم عنك» بعد أحسن تطبيق لكل من تصدى لهذا الإعجاز اللغوي»¹⁴.

وبعض النظر عن طبيعة النص الشعري العنبري ترجمته فونك قواعد عامة يجب على المترجم مراعاتها عند تصديده لترجمة نص شعري فوجزاً بما يلي:

1 - تحسب الترجمة كلمة بكلمة أو جملة بجملة بحسب واهلكت أن تنظر إلى الوحدة العضوية للنص قبل الترجمة أولاً ومن ثم تقوم بتجزئته إلى أقسام مسكدة تفنك يا ترى ما المعنى العام الوظيفي الذي يحمله كل جزء¹⁵.

2 - يجب عليك لتبني ترجمة العبارات الاصطلاحية والثقافية بما يخدم سياق (ل - م) لأن ترجمة العبارة الاصطلاحية «fish and chips» ترجمة جزئية

بـ (سك ويطاطا) إلى العربية هي ترجمة ذكيّة وتدعّر إلى الرثاء
 والشخيرة ذلك لأنها لا تحمل المعنى الاصطلاحي الوظيفي لـ
 (ن. ص) وعليه فعليك تطويح ترجمتها بما يُخديم سياق (ل. م) على سبيل
 المثال: انزل وطمعية) ويورد «هيلر بينوك» مثلاً عن صيغة تعجبية
 يونانية وهي «بالكلب» التي إذا ترجمت حرفياً إلى الإنكليزية فإنها
 تتحمل معنى مضحكاً ومبتذلاً، وعليه فنراه يقترح صيغةً متألّفة بما يخدم
 سياق (ل. م) وهي «ياظها» وعلى نفس هذا المنوال، لأن ترجمة سوناتا
 شكسبير «To His Love» «إلى حبيبته» التي يقارن فيها حسن حبيبته
 وتكون بخيرها بصيف سمردي إلى الثقاللة العربية حيث الصيف قاطعاً
 وخائف سوزي إلى ترجمة مبتذلة ومضحكة وعليه، فعلى المترجم أن ي
 ان يُلَوِّح النص بما يُخديم وظيفة (ن. م) ودونك سوناتا «إلى حبيبته»
 لشاعر والكاتب المسرحي شكسبير مع ترجمة لها من قِبلِ الشاعرة لطيفة
 الدب التي كما ستري قد أخفقت في تطويح الأبعاد الثقافية في القصيدة
 بما يُخديم السياق الوظيفي في (ل. م) (17).

TO HIS LOVE

Shall I compare thee to a Summer's day?
 Thou art more lovely and more temperate:
 Rough winds do shake the darling buds of May,
 And Summer's lease hath all too short a date:
 Sometime too hot the eye of heaven shines,
 And often is his gold complexion dimm'd:
 And every fair from fair sometime declines,
 By chance, or nature's changing course, untrimm'd
 But thy eternal Summer shall not fade
 Nor lose possession of that fair thou owest

Not shall death brag thou wanderst in his shade,
 When in eternal lines to time thou growest:
 So long as men can breathe, or eyes can see,
 So long lives this, and this gives life to thee!¹⁵¹



إلى حبيبتيه

من ذا يقارنُ حُسنك المعري بصيفٍ قد تجلى
 وفورُ سحرِكَ قد بدت في ناظري أسنى وأغلى؟
 تحني الرياحُ العاتياتُ على البراعمِ زهني جلالِي
 والصيفُ ينضبي مُسرعاً إذ عقدهُ المعدرُ وتلى



كم أشرقنتُ عينُ السماءِ بعزمها تنهبُ
 ولكم خبا في وجهها الذهبي نورٌ يُتربُّ
 لا بدُّ لنخسِ اليهني عن الجميلِ مُتذقُبُ
 كالسدمِ تُفيموُ والطوارِ الطبيعةُ قُتُبُ
 لكن حبيبتك سرمدِي ما أحرزاةُ فيرُكُ
 لن يفتقدَ الحسرةُ الذي تُنكيتُ فهو يُخيلُ
 والموتُ لن يُزهرَ بظنك في حمأةِ بحولُ
 شعاصرينِ الدلمز في شغري وطيبك أنورُ



ما دامت الأنفسُ تصمدُ والعيونُ تُحدقُ
 سيقظنُ شغري خالماً وعليكُ حُضراً يُفدقُ¹⁵²

3- ترجيحاً مُرضٍ (ل.ح.ص) بما يواظب من غرضي لمي (ل.م) حتى لو تطلب
 ذلك إسالة مفرداتٍ وعبارةٍ غيبٍ موجودةٍ في (ل.ح.ص) بغية تحقيق
 التكامل الوظيفي في (ل.م).

4- تجنب الأطناب والحشو والزخرفة اللغوية في (ل.م).

5- لا تسيء أنك تتحمل مسؤولية أدبية ومعنوية أزاء سباق (ل.ح.ص)
 ومسؤولية أزاء فاروق وعليه، عليك أن تُوازنَ بينك بما يحترم قسمة
 المطلوب (ل.ح.ص) كذلك تحويره وتطويقه بما يحترم ذوق قراء (ل.م)
 ولسرتها.

6- عليك بذل قصارى جهديك في ترجمة القيمة الجمالية أو الحليفة الشعرية
 لصوت شعري ما التي تعتمد على ما يأتي:

أ- الرخلة العصبية: وهي مخطط النص أو القصيدة بأكمله وشكل
 الحمل القردية فيه وطرقت توازينا ودلالاتها وإحاديثها الخاصة من
 التوازي والنظام والأنسجام والتقابل... الخ.

ب- الاستدارة: وهي الصور البصرية التي قد تثير في الإنسان الصوت
 واللحن وحتى المنم والذوق وأحياناً.

ج- الصوت: وشكل التجانس الاستهلاكي والتجانس الصائبي والإيقاع
 والصور، ومن ثم الوزن والقافية والإيقاع الشعري²²¹.

إن الإعلان يأتي من المعايير الجمالية هذه سوف يُضغف المعنى ويريكه
 بشبه البشري وينسج تحقيقه الشعرية.

الهوامش

- 1 - مخلوصي، صفاء، فن الترجمة، دار المعرفة، بغداد، 1956، ص 18
وتنظر كذلك الصديقي، عبد الباقي، الترجمة بين النظرية والتطبيق، دار
الطباعة الحديثة، بصرة عراق، 1974 م ص 33.
- 2 - الجاحظ، أبو عمرو بن عثمان، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون،
بغداد، 1961 م، جزء 4، ص 76.
- 3 - Herbert, J.C. Grierson, Verse Translation, Oxford, 1945, P. 2.
- 4 - مخلوصي، صفاء، فن الترجمة، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، 1982
م ص 37.
- 5 - Newmark Peter. Approaches to Translation, Pergamon, 1982 P. 38
- 6 - داود، أحمد يوسف، الغيام العائم والشاعر، المعرفة، العدد، 269،
تموز 1984 م ص 76.
- 7 - المصدر السابق ص 83.
- 8 - المصدر السابق ص 84.
- 9 - Edward Fitzgerald, Rubaiyat of Omar Khayyam, New York, P. 23
- 10 - الصديقي، عبد الباقي، الترجمة بين النظرية والتطبيق، دار الطباعة،
الحديثة، بصرة عراق، 1974 م ص 34 - 35.
- 11 - مخلوصي، صفاء، فن الترجمة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1982 م
ص 74.

- 12 - محمد عبد الغني حسن، فن الترجمة في الأدب العربي، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، 1966 م من 145.
- 13 - Shamma, Najoh, A linguistic Analysis of some problems of Arabic to English Translation, unpublished D. Phil. Thesis, Oxford, 1973 p. 255.
- 14 - يوجد دليلاً ما لا يقل عن خمس عشرة ترجمة للقرآن الكريم وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على أهمها وهي :-

- All, Maulana Muhammad, The Holy Quran, Lahore, 1951.
- Ali, Maulana Shac, The Holy Quran, Kabwah, 1971.
- All, A. Yusuf, The Holy Quran, 2 vols, Lahore, 1937.
- Arberry, A.J. The Koran Interpreted, London, 1964.
- Bell, R. The Quran, 2 vols. Edinburgh, 1927.
- Dawood, N.J. The Koran penguin classics, 1956.
- Khan, M. Zafarulla, The Quran, London, 1975.
- Palmer E.H. The koran, London, 1928.
- Pick thall, M. The Glorious Koran, London, 1976.
- Radwall F.M. The Koran, London, 1957.
- Sale, G., The koran, London, 1980.
- 15 - Arberry, A J. The koran interpreted, London, 1964, P. 5.
- 16 - Susan Bassnett, Mc Guire, Translation Studies, London, 1980, P. 116.
- 17 - المصطلح السابق، من 118.
- 18 - Sonnets No. XVIII, W. Shakespeare.
- 19 - لصافي، عبد الباقى، الترجمة بين النظرية والتطبيق، دار الطباعة الحديثة، بغداد، العراق، 1974 م من 38.
- 20 - Newmark, Peter, Approaches to Translation, Pergamon Press 1963 P. 65.

استحسان الشعر واستقبحه
عند الهدائي
في شرح القصيدة الدامغة

بقلم

أ. د. هادي عطية مطر الهلالي

جامعة بغداد - كلية التربية للبنات (سابقاً)
وجامعة قارون - كلية الآداب والتربية
قسم اللغة العربية

استحسان الشعر واستقباحه عند الهمداني

المختار في كتابنا نشأة الدراسات النحوية والمفوية في اليمن وتطورها^(١) ذرأ الهمداني النقدية، وأكدنا رأيه في استخدام اللفظ المطلوب الذي يؤدي المعنى المراد داخل التركيب اللغوي، وبيننا موقفه من السرائر الشعرية التي تقع اضطراباً المقبولة منها، والمردودة، وتبنيه على تكيف الشعر وإصلاح عيوبه^(٢). وإنما سيكشف هنا استحسانه للشعر واستقباحه.

وبين كشفه لسرقات التي غير حنفا بأخذ الشعراء بعضهم من بعض سواء أخذوا اللفظ، أو المعنى، أو اللفظ والمعنى معاً.

ونورد ما ذكره من حياء، وفخر، ورتاء، ومديح.

وعدي علي الخليل بن أحمد شعره بل عند ضعيفاً لا نفس له لأنه كلام مرتك وليس الشعر عنده إلا ما سمع به طبع، فخرج البيت على كماله مثل السهم العاروق من الرمية^(٣) أي: المنبعث عن عاطفة جياشة وقت التائر.

وأول من هلل الشعر، وطوله هو عدي مهلهن بن ذبيعة، وإنما سمي

(١) نشأة الدراسات النحوية والمفوية في اليمن، 167 - 162.

(٢) التصديفة، 563.

سهلًا لأنه أول من علمه⁽¹⁾ كما يعتقد الهمداني.

وهلق الهمداني على لون الطرماح في بني أسد⁽²⁾:

(سيف)

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ خَايَةً مِنْ تَخْلِيهِ خَفِيَتْ عَنَّا بِشْرَانِي

قَاتِلًا - فَرَهْنَا مِنَ الْهَجَاءِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ⁽³⁾

والطرماح بن حكيم شاعر أعجب به أقرانه من الشعراء قبل إغراب

الغزاة والغزيرين.

وأورد ابن نية أن محمد بن سهل أنشد الكُمَيْتَ قول الطرماح⁽⁴⁾:

(طويل)

إِذَا بُيِّضَتْ نَفْسُ الْمُرْمِحِ أَخْلَقَتْ عَزَى السَّجْدِ وَاسْتَرْغَى مَبَاكُ الْقَضَائِرِ

فَقَالَ الْكُمَيْتُ: يَا وَيْلَهُ وَجَدْتُ الْخَطْبَةَ وَالرَّوَابِقَةَ⁽⁵⁾.

فمن كلامه أنه سهر بن الخطبة، والرواية إضافة إلى أنه مالك زمام

القضايد ويروي لنا زُوَيْدُ: أَنَّ الْكُمَيْتَ وَالطَّرْمَاحَ أَخَذَا مِنْ الْغَرِيبِ لِأَنَّهُ رَجَدَا

أَخَذَاهُ مِنْ فِي شَعْرَتِهِمَا⁽⁶⁾.

وامتدحه الأصمعي قوله في صفة التَّطْلِيمِ: وَفِي صِفَةِ الْبُورِ⁽⁷⁾:

(1) النسيبة / 426.

(2) النسيبة / 51، والشعر والشعراء 2 / 585، والطرماح بن حكيم 275.

(3) النسيبة / 51.

(4) الشعر والشعراء 2 / 585.

(5) المعجم السابق 2 / 586.

(6) المعجم السابق 2 / 506.

(7) المعجم نفسه 2 / 390.

وأورد الهمداني قوله في هجاء بني تميم⁽¹⁾:

(طويل)

تَيْمٌ يَطْرُقُ اللَّوْمَ أَقْدَى مِنَ الْقَطَا وَرُ مَسَكَتْ سَبْلَ التَّكَاوِمِ خَسَاتِ
وَعَدَّ بَيْنَ لَتِيْبَةِ هِجَاؤِهِ مِنَ الْإِفْرَاطِ -

وأورد الهمداني ما قال قبيهم⁽²⁾:

(بسيط)

تَوَّعَلْ وَرَدَّ تَيْمٌ ثُمَّ قِيلَ تَهَا: حَوَّضُ الرَّمُوسِ خَلَّتْهُ الْأَزْدُ ثُمَّ تَرَدِ
أَوْ تَرَنُّنُ اللَّوْمِ وَخِيَا أَنْ يُعَلِّيَهَا إِنْ لَمْ تَعُدْ كَيْفَانِ الْأَزْدِ لَمْ تَعُدِ

ويرى الهمداني أنَّ الأبيات المتقدمة غاية الهجاء التي لا وراءها⁽³⁾،
وعني ما قالوه إنَّ: «أَخْبَى بَيْتَ قَائِمِ الْعَرَبِ قَوْلَ الطَّرِمَاحِ بْنِ حَكِيمٍ»⁽⁴⁾،
ومررت التاية المتقدم الذكر. وعُدَّ البيت الثاني من الذالية من حيث
الهجاء، وهو هجاءٌ للقرظوق⁽⁵⁾:

(طويل)

رَمَا خُلِّفَتْ رَيْدٌ وَتَيْمٌ فَنَاتِيهَا وَخَشِيَتْ إِلَّا بَعْدَ بَخْلَقِ الْقَبَائِلِ

وروى الهمداني على أنه قيل لجريز بن عطية بن الحطائي: ويحك يا
جريز ألا تناضل عن أحساب قومك من بني تميم قال: أسمع طاح، وشعر
نضاح كلالا كَشَفْتُ لَهُ قِنَائِي، وأورد قولاً آخر في موضع آخر قوله: «اتركوه»

(1) القصيدة / 51، والشعر والشعراء / 587، والمقد القرظوق / 152 وفيه «قيل لهم».

(2) القصيدة / 51.

(3) المقصد القرظوق / 151، والطرمباح بن حكيم / 276.

(4) القصيدة / 51، والمقد القرظوق / 152، والطرمباح بن حكيم / 276.

يُنْفَت من القين هذا⁽¹⁾. أي: أن جريراً لم يرد على الطرماح لأنه ينادي
الفرزدق.

وبنه التهمداني على أن جريراً كان منصرفاً من طرق الشعر فيما لا يهتدي
به الكُمَيْت، فكان نكوله عن الطرماح خوفاً له، ونكوله عن عمرو بن لجا يوم
نكل عن هجائه للاستعلان له.

وأكد أنه لم يجد لابن لجا شرفاً فيضعه، ولا حسباً فيطبعه⁽²⁾ كما تقدم
ذكر ذلك، وأن ذكر ابن قتيبة ما يحالف هذا القول⁽³⁾.

ولما تقدم الطرماح الفرزدق بشعره، مثلت رجلاً من تميم إلى جرير
فقالوا له: إن الطرماح قد أسقط بني تميم فأتشأ بقول لهم وتلفرزدق⁽⁴⁾:

(طويل)

جديلة، والخي الذين هجوتهم⁽⁵⁾ براءم وث من عابلهم يحريم
أثجل يا ابن القين أوساً وخاتماً كني برجلي هذا كني ولديهم

وعنه التهمداني قوله هذا من أصحاب المعجب بشيراً إلى أنه لا يختر من
أن يكون جرير خلاف لسان الطرماح لكنه رجح أنه قد عرف فضل طيء على
تميم.

وبنه التهمداني على أن يزيد بن مفرق الحميري القنبحاني جد السيد
محمد هو الذي علم الناس الهجاء في أول الإسلام وفتح فيه معنى لم يكن من

(1) القصيدة / 52 قال الخليل «المثل: العرك في المضارحة والمضروبان».

(2) القصيدة / 53.

(3) الشعر والشعراء، 2/ 680 أورد جرير في هجاء عمر وهجد قوله.

(4) القصيدة / 53، وشرح ديوان جرير / 513 - 516.

(5) في الديوان الجديدة والفرز القين تميم... .

بعض من الشعراء - أي شعراء الجاهلية - يهتدون إليه، وأورد قولاً لأبي عبيدة
 - بن جراح - المعنى - معناه أن يزيد بن مفرغ، والسيد الحميري مشهوران
 بالهجاء، ونص قوله⁽¹⁾: «وقع الناس من هؤلاء الحميرين ما سمعوا نكرف
 إلا وضعدوه يعني يزيد بن مفرغ، والسيد بن محمد» ربه على أنه ذاق هجاء
 أبي الهول، ويحيى بن نوح، وغيرهم مؤكداً أن زيد الخيل الهجاء جيداً
 «ألفظ ثلاث قبائل بيت طاله»⁽²⁾:

فكأنك أن بدت أجبان ملكتي أذخ القوم في قسم النهاب
 زخية من تحب على غيرة وتاهية بين أخصر والزباب

رعد ابن قبية كلامه من حيث الهجاء⁽³⁾:

وكان على علماء اللغة أن يستوه يزيد الخيري، وهي تسمية الرسول
 (صلى الله عليه وسلم) له، وقوله (صلى الله عليه وسلم) فيه: «ما وصفني أحد في الجاهلية فرأيتك
 في الإسلام إلا رأيتك دون الضفة ليملك»⁽⁴⁾ يريد غيرة ولا نعني أن شاعر
 عن زيد الخيري لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أشق عليه: «أز أن شعره أبلغ من
 شعراء، ويقل الحكم مجهولاً إلى أن تخرج عواوين أبي الهول، ويحيى،
 وويل».

وأبو الهول الحميري من المحدثين المعجبين المشهورين وله
 منظومات شعرية رواها ابن المعتز في اعتذاره من الفضل بن يحيى، وكان

(1) أنبياء: 59 وانظر هجاء يزيد في ديوانه / (3، 60، 64، 76، 85، 87، 90،
 135، 150، 159، 206، 210، 221، 225، 226، 238، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249،
 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 310، 311، 312، 313، 314، 315، 316، 317، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 370، 371، 372، 373، 374، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 382، 383، 384، 385، 386، 387، 388، 389، 390، 391، 392، 393، 394، 395، 396، 397، 398، 399، 400، 401، 402، 403، 404، 405، 406، 407، 408، 409، 410، 411، 412، 413، 414، 415، 416، 417، 418، 419، 420، 421، 422، 423، 424، 425، 426، 427، 428، 429، 430، 431، 432، 433، 434، 435، 436، 437، 438، 439، 440، 441، 442، 443، 444، 445، 446، 447، 448، 449، 450، 451، 452، 453، 454، 455، 456، 457، 458، 459، 460، 461، 462، 463، 464، 465، 466، 467، 468، 469، 470، 471، 472، 473، 474، 475، 476، 477، 478، 479، 480، 481، 482، 483، 484، 485، 486، 487، 488، 489، 490، 491، 492، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 500، 501، 502، 503، 504، 505، 506، 507، 508، 509، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516، 517، 518، 519، 520، 521، 522، 523، 524، 525، 526، 527، 528، 529، 530، 531، 532، 533، 534، 535، 536، 537، 538، 539، 540، 541، 542، 543، 544، 545، 546، 547، 548، 549، 550، 551، 552، 553، 554، 555، 556، 557، 558، 559، 560، 561، 562، 563، 564، 565، 566، 567، 568، 569، 570، 571، 572، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 579، 580، 581، 582، 583، 584، 585، 586، 587، 588، 589، 590، 591، 592، 593، 594، 595، 596، 597، 598، 599، 600، 601، 602، 603، 604، 605، 606، 607، 608، 609، 610، 611، 612، 613، 614، 615، 616، 617، 618، 619، 620، 621، 622، 623، 624، 625، 626، 627، 628، 629، 630، 631، 632، 633، 634، 635، 636، 637، 638، 639، 640، 641، 642، 643، 644، 645، 646، 647، 648، 649، 650، 651، 652، 653، 654، 655، 656، 657، 658، 659، 660، 661، 662، 663، 664، 665، 666، 667، 668، 669، 670، 671، 672، 673، 674، 675، 676، 677، 678، 679، 680، 681، 682، 683، 684، 685، 686، 687، 688، 689، 690، 691، 692، 693، 694، 695، 696، 697، 698، 699، 700، 701، 702، 703، 704، 705، 706، 707، 708، 709، 710، 711، 712، 713، 714، 715، 716، 717، 718، 719، 720، 721، 722، 723، 724، 725، 726، 727، 728، 729، 730، 731، 732، 733، 734، 735، 736، 737، 738، 739، 740، 741، 742، 743، 744، 745، 746، 747، 748، 749، 750، 751، 752، 753، 754، 755، 756، 757، 758، 759، 760، 761، 762، 763، 764، 765، 766، 767، 768، 769، 770، 771، 772، 773، 774، 775، 776، 777، 778، 779، 780، 781، 782، 783، 784، 785، 786، 787، 788، 789، 790، 791، 792، 793، 794، 795، 796، 797، 798، 799، 800، 801، 802، 803، 804، 805، 806، 807، 808، 809، 810، 811، 812، 813، 814، 815، 816، 817، 818، 819، 820، 821، 822، 823، 824، 825، 826، 827، 828، 829، 830، 831، 832، 833، 834، 835، 836، 837، 838، 839، 840، 841، 842، 843، 844، 845، 846، 847، 848، 849، 850، 851، 852، 853، 854، 855، 856، 857، 858، 859، 860، 861، 862، 863، 864، 865، 866، 867، 868، 869، 870، 871، 872، 873، 874، 875، 876، 877، 878، 879، 880، 881، 882، 883، 884، 885، 886، 887، 888، 889، 890، 891، 892، 893، 894، 895، 896، 897، 898، 899، 900، 901، 902، 903، 904، 905، 906، 907، 908، 909، 910، 911، 912، 913، 914، 915، 916، 917، 918، 919، 920، 921، 922، 923، 924، 925، 926، 927، 928، 929، 930، 931، 932، 933، 934، 935، 936، 937، 938، 939، 940، 941، 942، 943، 944، 945، 946، 947، 948، 949، 950، 951، 952، 953، 954، 955، 956، 957، 958، 959، 960، 961، 962، 963، 964، 965، 966، 967، 968، 969، 970، 971، 972، 973، 974، 975، 976، 977، 978، 979، 980، 981، 982، 983، 984، 985، 986، 987، 988، 989، 990، 991، 992، 993، 994، 995، 996، 997، 998، 999، 1000.

(2) أنبياء: 59 - 60، والبيت الثاني من الشعر والشعراء، 200، 1.

(3) الشعر والشعراء، 200، 1.

(4) المعجم السابق، 206، 1.

أفضل معجباً بشعره، ومما يستحسن له موثقه للعباس بن محمد، وخزاعة،
وأما يحيى بن نوفل اليماني الحميري، فيكنى أبا معمر ويقال: إنه كان أوزياً
يشتمى إلى ثقيف، فلحقه ولي العجاج خالد بن عبدالله القسري العراقي، فمضى
يحيى أنه من جعير وكان كثير الهجاء ولا يكاد يمدح أحداً بخلاف أبي الهول
والدليل على ذلك ما رواه ابن نثية من مقطوعات تدل على أنه كان
هجاءاً⁽¹⁾.

ومما نسب إلى الإمام علي (ع) قوله⁽²⁾:

(بسيط)

الناسُ بينَ جهنِّ التَّعْطِيلِ أَكْثَاءُ	أَسْوَفُهُمْ أَقْدَمُ، وَالْأَمُّ خَوْفُ
فَإِنْ لَمْ يَطْلُبُوا فِي غَضْرِهِمْ نَبَأَ	يُشَاجِرُونَ بِهِ، فَالْبَيْتُ وَالْمَاءُ
مَا الدُّخْرُ إِلَّا لِأَنْفِ الْجِلْمِ إِثْمٌ	فَمُ هُدَاةٌ مَنْ اسْتَقْبَلُوا أَوْلَاةُ
وَوَزَنُ كُلِّ أَمْرٍ مَا كَانَ يُخْبِتُهُ	وَالْجَاهِلُونَ لِأَخْلِ الْجِلْمِ أَسَاءُ

يعنى الهمداني عنى أنه متبع من يند هذه الأبيات إلى الإمام
علي (ع)، ولا يخيب ذلك، ويرى أن نصف بيت منها بل كلمة من عجب
كلامه، وهو قوله (ع): أَيْتَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يَحْسِنُ، ويؤكد أن هذه الكلمة
توزن ثلث المحكية⁽³⁾.

(1) انظر طبقات الشعراء لابن الجوزي / 153 - 154.

(2) الشعر والشعراء / 241، 245.

(3) القسيلة / 60، والديوان المشروب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) 2 /
وفي (العتال) مكان (التطير) وصغر أناني (فإن يكن لهم من أصله شرفاً)
و (الفضل) مكان (الغز) و (استهلى) مكان (استهوا) و (قيمة المرء) مكان (أوزة)
كل أمرى ما.

(4) القسيلة / 61.

يريد أن يقول: إن بينه الأخير قد ضمنه حكمته البليغة التي عدّها تزيّن
فلك الحكمة.

وأشار التمهيدتين إلى أن أمراً القيس هو أول من فتح عين الشعر،
وافتق، وطوله، وتفنن فيه، ووصف الدمن، والفيث، والفرس، وهو أول
من نبه في شعره وغزل الغزل العجيب.

رأى أن من سبقه من شعراء اليمن لم يكن في طبقة مثل الأفره
الأودي، وغيره من شعراءهم⁽¹⁾.

وقد ذلّل على شاعرية امرئ القيس بقول الفرزدق عندما قيل له: من
شعر الناس؟ قال: الذي يقول⁽²⁾.

(طويل)

ذُو عَيْنٍ الْوَحْشِ خَوْلَ حَبَابِنَا وَأَزْجَلْنَا الْجَرْجُ الْوَيْ نُؤْتَقِبِ

وت على أنه هو القائل في تشبيه شيبين بشيبين في بيت واحد، ووصف
لذيل⁽³⁾.

(طويل)

فَأَنَّ لِلْوَبِ السَّلْبِ رَطْباً وَنَابِماً لَدَى وَكْرَهَا الْعَثَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

وذكر أنه المشبه بأربعة أشياء في بيت بأربعة أشياء في قوله⁽⁴⁾:

(1) الحميد: / 71.

(2) الحميد: / 71، ديوانه / 53. قوله: (الجرج الذي لم يقب) نب عيون الوحش لما
يهد من السواد، والياض بالخزول، وجعله غير مقب، لأن ذلك كمنى له وأمنى.

(3) الحميد: / 71 وديوانه / 38.

(4) الحميد: / 71 - 72، وديوانه / 29.

(طويل)

لَهُ أَهْلًا قَبِيحٌ وَمَنَاقِبًا تَقَامُوا تَارِخَاءُ بِسُرْحَانٍ وَتَقْرِيْبٌ تَقَلُّ
 وَمَنْ لَصِقَ شَعْرَهُ بِقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ صَدَمَا نِيلَ لَهُ: عَنْ أَصْدَقِ الْعَرَبِ فِي
 شَعْرِهِ.

قال: الذي يقول⁽¹⁾:

(كامل)

أَلَيْسَ أَتَجِدُ مَا حَلَبْتُ بِهِ وَأَبْرُ خَيْرُ حَفِيَّتِهِ الرَّخْلِ
 أراد الفرزدق أنه لم يمدح أحدا قط، وأشار إلى أنه لما شرب لبنا من
 اشعر الناس؟ فقال: صاحب القروح ثم ابن العشرين، ثم صاحب البخينة
 يعني بالأذن أشرا القيس في قوله⁽²⁾:

(طويل)

وَبَدَيْتُ قَرِيحًا ذَبِيحًا يَنْدُ حَيْكُؤُ
 قَلْبُهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جُوبِيْعَةً
 قِيَالِكَ مِنْ نَفْسِي تَدْلِيْنُ أَبْرُنَا
 وَتَكْتُمُهَا نَفْسٌ تُنَاقِطُ أَفْئَا
 ويعني بآبن العشرين طرفوق، ويعني بصاحب البخينة نفسه⁽³⁾.

وأورد الهمداني آياتا علقمة ذي جدان ذكر فيها غمدان في قوله⁽⁴⁾:

(1) التمهيد / 72، وديوانه / 238.

(2) التمهيد / 72 وديوانه / 107 وعجزه «لَعَلَّ مَنَابِتًا تَحْوَلُنِي» () والبيت الثاني صدره
 عند الهمداني «لَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ أَحْسَبِيَاءَ» ورواية الديوان «تَمُوتُ».(3) نظر الرواية في الشعر والشعراء / 1/ 189 - 190 «قال أبو عبيدة: لا نجد بمحسن
 يلقب بالكوفة...».(4) المقصد / 97 «الشيء: حزنك من عروضة الجبل» وهكذا فترجم الخليل في بعض
 / 220 مادة: «الزوم».

(والتر)

وفيدان الذي غنرت غنة بناءً شامخ في زلي يثق
 بنسوة وأفلاذ رخام كما يمدو بذروتيه فثوق
 صابيح السيط يلحن ليه بلا يفتسي كالمناهي البروق
 ونعنه التي غرمت لديه تهصر في ذراه بالقدوق

منها على أن نخلة غيدان إحدى عجائب الدنيا مشيراً إلى أن قوله:
 (نخوت غنة) لأن عاقمة كان أغنى مضموماً.

وذكر أنه رأى الناس يكثرون التعجب من الأعمى، ومن بطار بن يرد
 لما يرى أن عاقمة ذا جسد أحسن منهما تشبيهاً ولو أورد له آياتاً خير
 آيات العظمة لكان ذلك أقوى، وأفضل لأن للأعمى، ونهار قصائد
 بعد مضامينها أرفع مما تضمنته آيات عاقمة، وفيها خيال يفوق تخيله
 وعسره.

وأورد لأيام قوله آياتاً قلت في أيامهم كيوم الكديد¹⁷⁴، ويوم
 الخيل¹⁷⁵ والعمير¹⁷⁶، وغيرها منها في خاتمتها على أنه نقل لكل وقعة منها
 بين، وثلاثة لثلاث بطون كتابة، وميلاً للاختصار مشيراً إلى أنه جمع أيامهم
 في كتابه المصنف في مناقر اليمن، ووقائعها¹⁷⁷ وربما يعني كتابه الإكليل كما
 جمع نفاً من أشعارهم التي جرت في قفل عمارة في كتابه الكتاب الأيام¹⁷⁸.

ولن على أن بني أسد أحلاف لطى، مؤكداً أن حفيضة بن بدر حالف

174 نعيبة / 174.

175 نعيبة / 175.

176 نعيبة / 183 - 184.

177 نعيبة / 164.

بينهم، وكانت شعراؤهم تعدح علياً؛ ولا يسبح أحد من غيره أبداً، وكان
يشر بن أبي حازم أكثر ما ينقرب إلى آل حارثة بن أميادم فومه من بني
أمدال⁽¹⁾؛

وهو القائل لأوس بن حارثة بن أميادم في قصيدته المندحة به⁽²⁾:

(طويل)

عَيْدُ الْعَصَا لَمْ يَنْقُوكَ بَدَمَوْ مِيوِي شَيْبِ شَعْدَى إِنْ سَيْتِكَ نَائِجٌ
رَطْلٌ⁽³⁾؛

(خفيف)

قَسِي مِنْ بَنِي دَأْرِ لَمْ يَنْقُوكَ شَيْبَابٌ بَدَا فِي عُلْمَةِ النَّيْلِ خَائِجٌ
وَأَكْثُ مَحْفُوقِ دِيْوَانِهِ أَنْ شَعْرَهُ فِي أَوْسٍ كَانَ حِجَاةً وَمَدْحًا، وَأَنَّهُ يَشْفِي
حَيْرًا كَبِيرًا مِنْ دِيْوَانِهِ⁽⁴⁾؛

وأورد للأخطل بين بن ملاحه بيمالك بن مخزومة الأسيدي قوله⁽⁵⁾:

(بسيط)

إِنْ يَنْشَاعَا بَنِي مَسْجِدًا لِأَسْرِيهِ حَتَّى التَّمَامَاتِ، رِيْقُلُ الْخَيْرِ يُنْشَا
فَدُ لُنْتُكَ أَخْبِيَةُ نَيْسًا، وَالسُّوْءُ فَالْتَرِيْمَ طَيْرٌ عَرَى أَسْوَابِهِ الشَّرِيْ
وقد أخذ عليه قوله هذا لأنه مسح كالهجاء⁽⁶⁾. وأشار الحمدي إلى أن
بنيهاً كان قد بنى مسجداً. وقال للأخطل: «ويحك ما أعياك أرقت أن

(1) القصيدة / 206 - 207.

(2) القصيدة / 207، والديوان / 115 «لَمْ يَنْقُوكَ تَمْرَتَهُمْ».

(3) مقدمة المحقق / 31.

(4) القصيدة / 208، والديوان 2 / 674، والثاني في الشعر والشعراء / 468.

(5) الشعر والشعراء / 487 - 488.

بداخني بهجوتني^(١)، وعنه الهمداني من إحدى أغاليط الأخطل في الشعر.

رثاء ابن غلط ذي الرمة في بلان بقوله^(٢):

(واقر)

رَيْدُ السَّمْرِ يَشْفِقُونَ غَيْبًا فَلَئِنْ بَصِيحَ أَنْتَجِيهِ رِيلاً

ومالوا: ذو الرمة أحسن الناس شيباً: وإنما وضعه عندكم أنه كان لا

يحب البصير ولا يجيد الهجاء، ولما أشق بلان بن أبي بردة قوله المتقدم.

ذو بلان: يا غلام أعطه حبل قث بصيحه^(٣):

وبه عن أنه نولا ذكر نجعة الغيث لكان تقول الأعرى^(٤):

(الخفيف)

يَنْتَجِيهِ السَّمْرِ وَأَنْتَجِيهِ الْأَسْرُ ذَا أَهْلِ الشَّدَى وَأَهْلِ الْفَضْلِ

ويمن الهمداني على أن ذا الرمة بالرغم من موضعه من الشعر فإنه كان

لا يحب الهجاء، ولا المدح، وخله والفلاحة، والراحلة مع الغزل الذي

لا يقدر عليه أحد غيره: وهو بارع في التشبيه وحسنه.

وبه الهمداني على أنه أخذ في شعره كثيراً من شعر الأعرى الأبي منه

بين المتقدم في النجعة، وقوله^(٥):

(مقارِب)

أَعْرَى ضَلَّتْ يَطْلُ آتَةَ السُّورِ ثُمَّ رُثُوا قِيَامَهُمْ لِلْهَلَاكِ

(١) تصبوا، 206، الشعر والشعراء، 1/334 - حديد: أسم ناقذ ذي الرمة -

(٢) الشعر والشعراء، 1/344

(٣) تصبوا، 209، وديوان الأعرى، 7.

(٤) تصبوا، 209، وديوان الأعرى، 9.

فقال ذو الرمة، وأنى به في بيتين⁽¹⁾:

(وافر)

كأن الثامن حين نمر غشى صوائق لم تكن تُذغ الجمالاً
قياماً ينظرون إلى بلالٍ وبقاق الحج قابلت الهدلاً
كما تب علي أن الأعمى أخذ من طرفه، وعدي بن زيد لما أخذ
نظرة⁽²⁾:

(رعل)

نظر ذو القرم يقر نابين وعكيك المصيف إن جاء بقر
فأنى به في بيتين فقال⁽³⁾:

(مشارب)

وتكره يرد ذلك العرو من فرقك بالضيف في تيرا
وتشحن ليلة لا تنويغ شاحاً بها الخلب إلا تيرا
ثم ذكر أن طريقة أحد من أمراء القيس⁽⁴⁾:

(طويل)

وقوماً بها سخي كأن تطيهم يثولون: لا تليلك أمي وتجله

(1) القصيدة / 209.

(2) القصيدة / 209 - 210، وديوان طريقة / 53 وفيه (نظرد)، و (صائق) مكان (ساجن)، و (الليل) مكان (الضيف).

(3) القصيدة / 210، وديوان الأعمى / 95 ولي القصيدة (بالمصيف ورتقت) و (أن يذغ الكلب)، وثبتنا رواية لديوان.

(4) القصيدة / 210، وفي ديوان طريقة / 19 (علي) مكان (فان)، وديوان أمراء القيس / 9 نليله وتجله.

ويروي الهمداني أن النابغة الجعدي قد أرتج عليه الشعر ثلاثين سنة
 لهذا نزل شراجيل استخفة الجدل «أي: الفرج» فانزاحت عنه تلك الحبة،
 لعل بالشعر، فقالت: «هو جعدة: «ما نحن بأشد جدلاً في قتل شراجيل منا
 بطلاق نساء شاعرنا»⁽¹⁾.

ونار إلى أن الأسد بن ناعضة له أشعار مشهورة ربما أوردته له
 قولاً⁽²⁾:

(والفر)

قَلْتُ مَعْلَمًا زُتْرَتْ عَقْرًا وَهَشْرَةُ الْقَوَائِمِ قَدْ قَلْتُ
 لَنْتُ بَطْنَةً فِي الصَّدْرِ بِنْتُ وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ تَطْلِي عَشْتُ

يذكر الهمداني أن الأسد بن ناعضة هذا هو المشيب بخنساء، وثه
 على أنها غير خنساء أخت صخر لأنه قديم وعده شعره قاسياً لا يكاد يروي،
 ولورده قولاً للفوزاني يذكر متعة نجران⁽³⁾:

(ضوبل)

سَمِينًا لِنَجْرَانَ الْعِمَّاسِي وَأَرْضَهُ وَنَجْرَانَ أَرْضِ لِمِ تَدِينِ مَطَاوِلِهِ

عاب عليه لأنه قال: (سَمِينًا)، ولم يقل: (دَخَلْنَا).

وته على مدح النابغة لحاجبه عصاماً في أرجوزة له قوله⁽⁴⁾:

(1) القصيدة / 296.

(2) القصيدة / 286، والنظم: مثلوه.

(3) القصيدة / 200.

(4) القصيدة / 280، ديوانه / 143، وفيه (وَعَلَيْكُمْ) مكان (مَوْلَانِي)، وضميرها كان
 (مَعْنِي)، وحجز الثاني من ديوانه.

(رجز)

نَفْسٌ عِضَامٌ شُوذَتْ عِضَامًا وَغَوْدَةٌ كُكْرٌ وَالْأَسْنَانَا
وَجَعَلَتْهُ بِلَاكًا غَمَامًا حُشَى عَلَا وَجَاوَزَ الْأَسْوَامَا

وأشار الهمداني إلى أنَّ الشعراء من نزار كانت تعدح ملوك اليمن، وتهجوها وتصر على أن المنذر بن ماء السماء قد أمر حرملة بن عسلة الشيلبي أن يهجو الحارث بن جبلة الغساني وكانت أمه غسانية، فجلبه عرق التكرم إلى أن أبي، وأثنا يقول (1):

(مستقارب)

رَغْمًا كُ قَوْمٌ مِمُّ وَالْيَدِيُّ قَهْلٌ أَتَيْتَنِي ذَلِكَ عَشِيًّا
فَأَوْرَعُ بِهَا بَعْضُنَ مَن يَعْشُرِيكَ فَمَا لَهَا مِن مَقِيدِ كُنْيَا
وَإِنْ لِي خَالِي لَنَسُدُّوْخَةً وَإِنْ عَلِيٌّ بِقِيَرٍ زَيْبَا

فانزي شهاب بن الميف الميبي يقول (2):

(رجز)

الْهَمُّ إِنَّ الْحَارِثَ بِنَ حَبَّةَ ذَا عَلِيٍّ أَيْبُ ثُمَّ قُنَا
فَأَيُّ فِعْلٍ مِىءٌ قَعَلَةٌ

ثم وقع بعد ذلك في يد الحارث بن جبلة فعقد عنه .

ومدائح النعمان من النابغة، والأعشى، وزهير إن فتح شعره الذي يقول فيه (3):

(1) القصيدة / 281 .

(2) القصيدة / 281 .

(3) القصيدة / 280 . ونظر مدائح النابغة والأعشى في النعمان / 279 الطريقة:

(مترج)

بِرُّ هَيْتِي الثَّمَنَانُ وَاجِدُ قُدِّ طَان زَهْرٌ لَهَا وَتَعْتَدُ
بِعِرْقَانَةٍ تُخَضِّعُ الرَّؤُوسُ لَهَا كَأَنَّهَا الثَّلَاثُ عَوَاكُ نَقْدُ

ويضن الهمداني أنَّ الشاعر الحكيم - وهو أبو نولس الحسن بن هاربه -
ولا لي صفة العز، ومنعتها، وملوكها، وصفة بلاد خندان⁽¹⁾ :

(سيط)

تَكَلِّسُ لِحْيٌ مِنْ قَطَطَانٍ بِالتَّصْدِيقِ
بُؤْرٌ تَبِيحٌ وَالْأَقْوَالُ مِنْ تَمِينِ
فَرَمٌ إِذَا أَدْرَعُوا أُنْحَيْتَ مَصَابِرُهُمْ
فِي الرَّمُودِ وَكَانُوا كُلُّ مَصْنُوعِ
مَنْ نَخَلُوا تَرْبَةً إِلَّا زَقْدًا كَتَبُوا
بِالتَّرْوِيهِ وَتَابِ الْهِنْدِ كَتَبُهُمْ

يريد باب صدر قوله

ولا اعلم أنَّ هذه الأبيات لأبي نولس لأنه منحنا اليمن في قوله لهاشم بن
حجج لول⁽²⁾ :

بِأَنْبِيَاءٍ مِنْ تَبِيحِ لَيْمٍ قَطْرَاتُكُمْ
أَنْزَلْتُمْ فِي إِيَّامِ الْبُيُوتِ جَنَّةُ
بِأَنْبِيَاءٍ أَنْ لَيْمٍ تَعْمَرُ قَدِ قَتَلْتُمْ
أَهْلُؤُكُمْ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَجْمِ

(1) الحصيد، 208 - 269.

(2) قوله ط 2 - بيروت، 104 - 105.

ونفى الهمداني الشعر المنسوب إلى الرسول الأعظم (ﷺ)
بقوله (1):

(رجز)
قُلْ أَنتَ إِلَّا يُضِغُ ذَيْبٌ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا تَقِينُ
وقوله (2):

(رجز)
أَنَا الْبِرُّ لَا عَمَلٌ أَنَا أَيْسُّ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ
غداً هذا البيت من الرجز المشطور المشطوث، وهو المتهوك. ودل على
نفي الشعر عن الرسول (ﷺ) - وكان ما أورده له ليس بشعر - بقول
الخليل بن أحمد (3): «ليس الرجز من الشعر، وقيل زد حجتي فقد كفر. قال
الله - عز وجل - : ﴿وَمَا عَلَّمْنَا الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ (4)، وقد كان ينشد نصف
بيت طرفة ثانياً، ونسخه مقلوباً فيقول (5):

سَتَيْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتُ جَانِبًا وَبَأَيْشِكَ مَنْ لَمْ تُرَوِّدَهُ بِالْأَخْبَارِ
وقال: لو كان ابن عباس إذا أشهد هذا البيت قال: (لأنها لكلمة
نبي (6)).

وقد نصر الخليل بن أحمد على النفي قوله: «الرُّجُزُ الْمُشْطَرُ»

(1) قصيدة / 323 - 324، والمعين 65/6 (رجز).

(2) قصيدة / 324، والمعين 65/6 (رجز).

(3) قصيدة / 323.

(4) -سورة يس 36/70.

(5) المعين 64/6 - 65 (رجز) وديوان طرفة / 41.

(6) قصيدة / 323.

وَالْمَشْرُوكَ رَبِّمَا بَيْنَ الشُّعْرَاءِ وَقِيلَ لَهُ: مَا جُعِدَ؟ قَالَ: أَنْصَابٌ مُتَّبِعَةٌ. فَلَمَّا رُذِّعَ عَلَيْهِ قَالَ: لَا أُحْسِنُ عَلَيْهِمْ بِحُجَّةٍ فَإِنَّ لِمِ يَجْرُوا بِهَا غَنَمًا، فَأَسْمِعْ عَلَيْهِمْ بَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) كَانَ لَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ الشُّعْرُ.

وقيل لرسول الله (ﷺ) (1):

تَجِبِي لَكَ الْإِكْرَامُ مَا كُنْتِ جَاهِلًا وَتَبَأَيْتِ بِالْأَخْيَارِ مِنْ لِمِ تُرْوَدِ
فَكَانَ يَقُولُ - (2) -: «سُئِلِي لَكَ الْإِكْرَامُ مَا كُنْتِ جَاهِلًا، وَتَبَأَيْتِ مِنْ لِمِ
تُرْوَدِ بِالْأَخْيَارِ» قَالَ الْخَلِيلُ: «لَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ النُّصْفَ الَّذِي يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ
لَا يَكُونُ شِعْرًا إِلَّا بِتَمَامِ النُّصْفِ الثَّانِي عَلَى لِقِيهِ وَعَرْوِجِهِ فَاتْرَجُّرُ الْمَشْطُورُ
مِنْ ذَلِكَ النُّصْفِ» (3).

والرود الخليل قول النبي (ﷺ) في حفر الخندق، وأكد الله: من
لَيَطَّوِّرُ كَمَا أُرِيدُ قَوْلَهُ (ﷺ) (أَنَا الشَّيْءُ . . .) الْمُعْتَمَدُ الذِّكْرُ: وَيُرَاهُ مِنْ
الْمَشْرُوكِ مُزَكَّدًا لَهُ لَوْ كَانَ شِعْرًا مَا جَرَى عَلَى لِسَانِهِ مُتَدَلًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
فَرَمَّا عَلَيْهِ الشُّعْرُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ (4).

وذكر ما قانه بعض الغزاة لبعض اليمانية ذكراً شعراء تزار أكثر فقال
ليس كما تقول بنا الأصل لي الشعراء والفرع ما لأولكم مع أمرى، القيس
نحب بذكر، ولا لأخركم مثل أبي تواس، والضريع، ومن بعدهم من
أصحاب المعاني حظ يشهر، وعُدَّ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرْتَ فَأَسْمِعْ إِلَى مَنْ يَقُولُ،
وَأَشَأْ بِقَوْلِ شِعْرٍ (5):

(1) العين 64/6 - 65 (رجز) وديوان طرفة / 41.

(2) العين 65/6 (رجز).

(3) سيرة ابن 70/36.

(4) قصيدة / 480 - 481.

(والر)

شُرِّبْتُمْ بِالْمَقَالِ عَنِ الْفَيْحَالِ وَكُرْنَا الْفَيْحَالَ عَلَى الشَّرِ
 وَكُرَجْنَا كَجَوْرِكُمْ هَذَيْهَا وَذُو الْوَجَبَاتِ يَطْلُقُ بِالْمَعْرَابِ
 ثم أورد آياتاً لأبي نواس قد هجاهم بعيشهم إذ يقول^(١) :

(يسيطر)

أَصْحَابُ ضِرِّ زَنْبُورٍ وَتَحْتَلَّةٍ رِيْدَةٌ يَشْكُرُوا بِهَا عَلَى ضَمِيرِ
 سَوَاطِلٍ مِنْ تَعِيمٍ غَيْرِ مُتَجَبِّةٍ أهل الحَنَّا وَمحل اليُوسِ وَالْعَلْبِ
 إِنْ يَطْعَمُوا الصَّيْدَ بِأَنْوَاعٍ مَخْمُوسِينَ بِهِ وَزَانِقًا الْجَرَجَ إِنْ بَاتَتْ وَأَلَمَ نَعِيدِ
 واستحسن آياتاً من قصيدته الدامغة، فأتى على قوله^(٢) :

(راقرا)

فَتَحَبَّبُ لِلتُّوْقَمِ مُتَعَلِّقَاتِي بِأَغْلِيهِمْ يَسَا قَدْ حَبِيبِ
 رهن على أن هذا البيت، والذي يتلوه من اشعر ما لي قصيدته
 الدامغة، والذي يتلوه قوله^(٣) :

تَكَادُ إِذَا الْفَضَائِلُ مَتَّحَتْهَا بِلَا تَمَسُّ الشَّرِي بِمَا وَبَيْتَا
 لَسَانُ الْخَافِقَانِ لَهْ وَأَخْمَسِ مُلَوِّكُهُنَّ لَهُ مُنْقَبِهَا
 أَبُو حُسَيْنٍ أُنْعِدْ دُرَّ تَبَانِي وَذَلِكَ مُفْرَدٌ قِيمِ الشَّرِينَا

وذكر عنداً كبيراً من الشعراء أوائلهم أمري، القيس، والأفوه الأودي،
 زعمرو بن معديكوب، وقيس بن عبيدة، وغيرهم ويضارب من عندهم لتبابة
 والشاعرين شاعراً. وبعد ذلك ذكر عدد شعراء الدولة، ويعني شعراء الدولة

(١) القصيدة / ٤٨١.

(٢) القصيدة / ٤٣١.

ثم ذكر الهمداني ما نقله الخبير من بعض من نقل الروايتين قال:
 قلت الأصمعي، فتذكرنا لبعض محمد بن مثنى وجردته. فقال: وأين أنت
 من شعر الحارثي. قلت: والله أشعر منه. قال: إي والله ومن جوير
 رفرزوق، وكثير من المخضرمين من شعراء الجاهلية، وأنشد مرثية لأخيه
 لعينة خنجر على آخرها التي يقول فيها (٢):

(خويل)

رأه لثأبها خيرنا فاشتريناه ونحس بتفجيلي الأخطاير ولعنا

(١) المصيبة / 555.

(٢) المصيبة / 555 والخبر والمرثية في ديوانه / 69

خاتمة البحث

دلل البحث على اطلاع الهمداني ومعرفة أول من هلهل الشعر وطوره وهو عدي كما أثبت البحث أن الهمداني فاضل بين الشعراء ودل على الهجائيين منهم كالطرماح والأخطل والفرزدق ويزيد بن الحفرغ والسيد الحميري مؤكداً أن زيد الغنم أحسنهم جميعاً.

وأثبت الهمداني أن امرئ القيس أول من فتح عين الشعر ودققه وطوره وتفنن فيه ووصف الدمن، والقيث، والفرس وهو أول من شبه بي شعر، ولغزل الغزل العجيب ودل على ما ذهب إليه بأقوال الشعراء وثانهم على امرئ القيس منها علي أن عنقمة ذا جند أحسن تشبيهاً من الأعشى وبيشور.

ودل البحث على ما أخذ الهمداني على الشعراء مما يدل على لطفه وحذقه في كشف سرقات بعضهم.

كما توصل البحث إلى أن الهمداني ينتمي ما نسب إلى الرسول (ﷺ) من شعر وهو بهذا يتفق مع ما ذهب إليه الخليل بن أحمد من نفي ما نسب إلى الرسول (ﷺ) من شعر.

وتوصل البحث أيضاً إلى أن الهمداني له معرفة كبيرة بالشعراء إذ عدده ما يقارب الثمانية والثمانين شاعراً من شعراء اليمن إضافة إلى ما ذكره من شعراء الدولة العباسية.

كما نيت البحث أيضاً أن الهندي على اطلاع واسع بمجالس علماء
 إنديا من الريشي مجلساً مع الأصمعي.

رغم أن ما ذكره من ملاحظات نقدية - سواء ما استحصته من شعر
 لربما استحصه منه - لا تختلف عن ملاحظات أقرانه من علماء اللغة الأوائل
 لهذا أن له بيانات أخرى وهي ما أبرزه وأثبته من شعر شعراء يعالين كان
 برثوي من غيره به.

مصادر البحث ومراجعته

- 1 - الحارثي جهانه وشعره نومي فاخر لعللي - دار الحرية بغداد 1990 م.
- 2 - ديوان الأهلبي تحقيق محمد حسين - نشر مكتبة الآداب بالجمهورية.
- 3 - ديوان حرولة بن العبد - المؤسسة العربية للطباعة - بيروت لبنان.
- 4 - شرح ديوان جرير تقليد محمد إسحاق الصاربي - مكتبة دار الفنون العربية.
- 5 - شعر والشعراء لابن قتيبة - تحقيق أحمد سعيد شاكر دار المعارف - مصر.
- 6 - طبقات الشعراء لابن المعتز - تحقيق عبدالمنار أحمد فتاح - دار المعارف مصر ط 4.
- 7 - الفرواح بن حكيم الطائي اعزى الصالحين مطبعة الانصار بغداد.
- 8 - العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي - تحقيق د. عبد المجيد الشرجي - دار الكتب العلمية - بيروت 1407 هـ / 1987 م.
- 9 - كتاب ائمة المصنفين بن أحمد الفراهيدي ج 4 تحقيق د. هادي الحزويني و د. إبراهيم السامري مطبع كويت 1982 م.
- 10 - كتاب الفصيلة اللامعة للهملاني - تحقيق محمد علي الأخرج مطبعة العلم المحمدية بالقاهرة 1978 م.
- 11 - الشافعة الذيلبي حياته وشعره - لدارس صويحي نشر دار كرم - دمشق.
- 12 - نشأة الدراسات النحوية واللغوية في اليمن وتطورها - د. هادي عطية مطر انهلاني - أفاق عربية ومطبعة جامعة البصرة 1404 هـ / 1984 م.

المضامين الحضارية والبيئية

القديمة للصحراء الليبية
من خلال لوحات الفن الصخري

إعداد

د. إبراهيم موسى محمد

عضو هيئة التدريس

قسم الآثار

جامعة قاريونس

بنغازي

المضامين الحضارية والبيئية القديمة للصعراء الليبية من خلال لوحات الفن الصخري

لولا تقييد العلماء خواطرهم على اللوح ونقرهم آثار
الأوتل في الصخر لبطل أول العلم وضاع آخره
(البحاظ : الحنين إلى الأوطان)

تمهيد : الفن والآثار :

يمكن تعريف الفن الصخري - بصفة عامة - بأنه ضرب من التعبير الإبداعي يتجسد في لوحات جدارية قام بإنجازها الإنسان القديم على سطح صخرية داخل الكهوف وخارجها . وهو ظاهرة عالمية تكاد تكون موجودة في معظم بقاع المعمورة وإن اختلفت مضامينها وأعمارها من منطقة لأخرى . وتعود أقدم آثار هذا الضرب من الفنون إلى نحو ثلاثين ألف سنة قبل الميلاد عندما ظهرت يراكير في جنوب غرب فرنسا ولي جنوب إسبانيا⁽¹⁾ . ثم ظهر بعد ذلك في عدد من مناطق العالمين القديم والحديث خارج أوروبا . ويعتبر هذا الفن - كسائر الإبداعات الفنية الأخرى - سنة تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية . وذلك لأن النزعة الفنية أمر غريزي فيه (كان يهتم بها منذ أقدم العصور) . فحتى عندما كان يتبحر الآلات البدائية المصنوعة من الحجارة

كان يحاول جاهداً تفريقها وتفتيتها ليظهرها في شكل لا تقوى واستمر في محاولات المتكررة حتى تمكن بعد مرور الزمن من اتقان الصناعة في أربع صورها الفنية . كما نشهد له بذلك صناعة التماثيل . بل وأدخل الفن في كثير من الأنشطة التي عبر فيها عن ذاته حياً وخطها ميقاً . ومن ثم ينبغي لمن يتصدى لموضوعي الشرية الا يهمل الجانب الفني لأهميته بالنسبة للمجتمعات القديمة، ولما يتركه من لمسات في آثارها .

إن علاقة الفن بعلم الآثار قديمة قدم الدراسات الأثرية ذاتها وذلك لأن الفن يمثل شاهداً أثرياً هاماً يمكن أن يفضي بمعلومات ثرية عن ماضي البشرية كما يحوردها مصدر آخر من مصادر التاريخ، سيما وأن تطور الأمر بفترة ما قبل التاريخ ذات المعلومات القليلة نسبياً، والتي تقتصر إلى الكتابات الحدونة التي برسمها أن تثير ميل الباحثين إلى الكشف عن أوجه العدم الذي تكشف آثار تلك الفترة . وإلى جانب ذلك لأنها حبة قديمة جداً لا يوجد أفراد منها على قيد الحياة يمكن استفسارهم عن بعض ما يشكل من القضايا التاريخية . لكل ذلك يصعب فهم عضامين بعض الملحق العائدة إلى تلك الفترة إذا ما درست بمفردها دون الاستعانة ببعض فروع المعرفة الأخرى . لذلك ينجا اختصاصيو ما قبل التاريخ - أحياناً - إلى المجتمعات المعاصرة التي لا تزال تحيا حياة الشعوب القديمة ويجمعون منها المعلومات التي قد تفيدهم في دراسة مجتمعات ما قبل التاريخ⁽¹⁾ . وفي أحيان أخرى يلجأون إلى الفن الصخري يستلهمون منه أفكاراً ومغزياً تساعدهم على الكشف عن عدد من الغوامض التي تكشف درساتهم . وتعتبر العناصر الفنية اثنان من غيرها في هذا المجال لأنها تزامنت مع المخلفات الأثرية الأخرى في كثير من الأحيان . ولتقرب لذلك مثلاً بعملية صيد الحيوانات البرية في المجتمعات التي لم تنرك وثائق مكتوبة تسجل هذه العملية . فمن الناحية الأثرية يمكن إثبات وجود نشاط الصيد من وجود بقايا عظام حيوانات برية ضمن نقابات طعام مجتمع ما . ولكن يصعب تعديد الكيفية التي كانت تتم بها صيد هذه

الحيوانات هل كانت تقم عن طريق الأسلحة المباشرة أم عن طريق الانفجاح العنصرية؟ أم كانت بواسطة الحيوانات مثل الكلاب والخيول وهل كان بشاملاً جسامياً تقوم به مجموعة صيادين؟ أم كان نشاطاً فردياً يقوم بمزاوته صياد واحد؟ بينما يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة بسر في حالة وجود لوحات صخرية في هذا المجال. ولكن على الرغم من ذلك فهناك بعض الاعتبارات التي ينبغي مراعاتها عند تناول الفن الصخري كمصدر من مصادر الدرامات الأثرية ومن أهمها الاعتبارات التالية:

- 1- يعتبر الفن الصخري دليلاً ناقصاً لحد ما وذلك لأنه لا يظهر من حياة الشعوب وبيئتها إلا الجوانب التي ركز عليها الفنانون، ويفضل جوانب أخرى قد تكون هامة ولكن لم يتطرق إليها الفنانون منها ما أبقى آثاراً معروفة ومنها ما لم يبق أي أثر. فكما هو معلوم من المختلطات الأثرية الأخرى فإن هناك أنواع من الباتات والحيوانات لم يتطرق إليها الفنانون على الرغم من أنها كانت تعيش جنباً إلى جنب مع الحيوانات التي تم تمثيلها. فلا نرى صور الأسماء ولا صور الحيوانات والطيور الصخرية.
- 2- الفن عمل رمزي الدلالة يكون بمثابة علامات قد تدل على أشياء واقعية عاشها الفنان أو على أشياء رمزية تخيلها الفنان ثم عبر عنها بهذه العلامات. فمثلاً صورة البقرة تمثل علامة تدل على ذلك الحيوان، ولكن هل هي علامة لبقرة واقعية ذات «كينونة» معروفة للفنان؟ أم هي وصية ترمز إلى شيء خيالي.

أخيراً هناك الاعتبارات الشك في واقعية بعض عناصر الفن الصخري مما حدا ببعض المفكرين إلى الشك في مصداقية فن الصخري كدليل تاريخي يمكن الاعتماد عليه في إعادة تركيب حضارات الأمم السابقة. غير أنه يمكن التباحث أن يتلافى مثل هذه المشاكل الناجمة عن طبيعة اللوحات الصخرية، إذا ما اتبع في دراسته منهجاً أثرياً واضح المعالم، ويمكن أن يتم له ذلك بإخضاع الفن الصخري للمعايير الأثرية التي تلائم معه. وذلك

بدراسة المخططات الفنية في إطار خطة أثرية عامة تتناول اللوحات
والمخططات الأثرية الأخرى الموجودة معها في إطار زمني ومكاني محدد.
كما ينبغي تصنيف اللوحات الفنية بنفس الأسلوب المتبع في تصنيف
المخططات الأثرية. يمكن البدء بتصنيف الجزئيات مثل قرون الأبقار وأطلالها
ثم تصنيف فصائل الأبقار ثم تصنيف الموضوعات العامة للمشاهد التي تظهر
فيها الأبقار. كل هذه التفاصيل تساعد الباحث في تحديد أنواع الصور
ومناطق انتشارها. وربما في التعرف على عادات وتقاليد المجتمعات المنجزة
للصور. وعندما يقوم الباحث بتأريخ العضايم الحضارية للوحات، عليه أن
يعزز آراءه المستوحاة من الصور بأدلة مادية محسوسة من المخططات الأثرية
الأخرى. لأن الاستنتاج التاريخي الذي يسند أكثر من مصدر يكون أدق من
الغير.

ومن جهة أخرى فإن النهج الأثري في دراسة الفن الصخري من شأنه أن
يؤثر للباحث محيطاً ثقافياً وبيئياً أقرب إلى محيط الفنانين القدامى منه إلى
محيط الباحث. فيساعده ذلك على إقامة أفكاره ووجهات نظره مع ما مضى
هذا الفن. وبذلك ينهأ له الجو المناسب للكتابة الموضوعية والابتعاد عن
إضفاء آراء عصره ومفاهيمه الحديثة على ظواهر نية عني عليها الدهر
فيجردها من واقعها الرمزي والمكاني. وبالتالي يكسبها مضموناً حضارياً لا
يتناسب معها. كما حدث لبعض المفكرين في عصرنا هذا عندما أطلقوا
أحدهم في الستينات من هذا القرن على صور وجمال في لوحات جبارين قبل
التاريخية اسم «سكان المريخ»¹. ربما لوجود عناصر شبه بين الرجال
المصورين في جبارين الجزائرية ومرتادي الفضاء في القرن العشرين. على
الرغم مما يضل بينهم من بون زمني شاسع قد يتعدى أربعة آلاف سنة.

سيكون تاريقي لموضوع هنا البحث وفقاً لوجهة نظر أثرية أكثر منه
فنية معززاً الآراء المطروحة بشواهد من الأدلة الأخرى من غير الفنية حسب
مقتضيات صياغ البحث.

ونظراً للأعداد الهائلة من اللوحات الصخرية في الصحراء الليبية سوف أركز على نماذج منتقاة من جبال الأكادوس وروابي مدخنوش، وجبال العريبات، وعلى وجه الخصوص النماذج التي تتميز بالمضمون الحضاري وبلدية القديمة.

مواقع الفن الصخري الليبي وتاريخ البحث فيها

نشر الفن الصخري لي كثير من مناطق القارة الأفريقية حيث نجده منتائراً في مرتفعات الأجزاء الشمالية منها وفي الهضاب الصخرية في سواحل المتوسط. وفي المرتفعات المنتشرة في الصحراء الكبرى حتى نهر النيجر جنوباً. وتلك المنتشرة بالقرب من البحر الأحمر وحوض النيل، والمناطق الصحراوية إلى الغرب من ذلك حتى المحيط الأطلنطي⁽¹⁾ إلا أن مظاهر هذا الفن تختلف كلما اتجهنا جنوباً نحو الغابات الاستوائية حتى لا يكاد يرى لها وجود هناك. ولكنها تظهر مرة أخرى وفي أعداد هائلة في أقصى الجنوب الليبي.

تمثل الجماهيرية إحدى المراكز الهامة لهذا الفن إذ تحتوي سواحلها وسمحاراتها على آلاف اللوحات الصخرية البديعة شكلاً والمهمة تاريخاً. نجدها في جبل الأخضر وفي خليج مرمت، وفي الجبل الغربي وفي الدواخل وفي الواحات وفي المناطق الصحراوية. ولكن أوطر مناطقها لراء بهذا النمط التي هي صحرائها الجنوبية إذ أن فيها كثير من المواقع الهامة على المستويين المحلي والعالمي مثل مواقع تدرات الأكادوس (القرية من جبال تاميلي معقل الفن الجزائري) التي تحتوي على آلاف اللوحات الصخرية والتي بلغت أهميتها درجة رائعة جداً حدثت بمساعدة اليونسكو أن تجعل منها إحدى معاقل التراث العالمي المحسودة ورضعتها تحت حمايتها المباشر⁽²⁾ إلى جانب ذلك فهناك مواقع هامة أخرى في جبال بني قسيمة

وجبل زنككرا وفي كثير من الأودية مثل وادي الآجال (الحياة) ووادي مدجنوش ووادي الشاطيء ووادي بروجوج وفي الواحات مثل غات ومروليس واناي وتكتظ جميعها باللوحات الصخرية. وهناك معقل هام آخر ألا وهو جبل العوينات الثاري عند الحدود الفاصلة بين مصر والسودان والجمهورية وفيه توجد أعداد هائلة من مواقع الفن الصخري. كالتي نجدها في حين غصوة وفي كركور طلح وفي كركور إدريس. وفي كثير من الأودية الجديدة هناك¹⁷.

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على رفرة اللوحات في هذا القطر هو توفر البنية الصخرية الملائمة، مثل الحجارة الرملية التي تحتوي على تجاويف كهفية ذات جدران مستوية السطح وتصلح لإنجاز الفن الصخري. وإلى جانب ذلك فإن معظم المرتفعات الصخرية تقع في مناطق كانت منذ عصور ما قبل التاريخ محصنة طبيعياً وفيها المراعي الخصبة ومناهل المياه العذبة ولذلك كفلت للفنانين أسباب الاستمرار والرقي الحضاري ومكتهم من الإبداع الفني.

كل هذه المواقع العثرية الأطراف والتي تحتوي على آلاف اللوحات جعلت من الجماهيرية واحداً من أهم المراكز تليحث في هذا السجال. وقد ارتبط البحث فيها بتاريخ البحث عن الفن الصخري في الصحراء الكبرى. ولذلك تاريخ قديم يعود إلى أكثر من قرن من الزمن. وبالتحديد إلى بداية الاستعمار الأوربي لأفريقيا الشمالية وكان ذلك في عام 1847 عندما تمكنت جماعة من العسكريين الفرنسيين (الذين كانوا يحبون الصحراء الجزائرية في عمليات ترمي إلى توسيع التحكم الفرنسي فيها) من اكتشاف لوحات طية في مرتفعات وهران. وكان ذلك من طريق المصادفة. ومن ثم كانوا أول من نبه العالم الأوربي إلى وجود فن عريق في الصحراء الكبرى. وبالتالي إلى وجود حضارة أصيلة هناك. وفي ذلك دحض للمفهوم الأوربي الذي يرى أن أفريقيا قارة بلا حضارة¹⁸. وتوالي بعد ذلك اكتشاف عن الآثار والفنون الصخرية

في الصحراء الكبرى وشمل ذلك عند من المناطق بالجمهورية . وتم ذلك في ثلاثة مراحل .

كانت المرحلة الأولى استطلاعية قام بها جماعة من الرحالة الأوربيين في القرن التاسع عشر الميلادي وكان على رأسهم الرحالة الألماني هنريش بارث الذي زار فزان في عام 1850 م وقاده السكان المحليين إلى مواقع الفن الصخري حيث اكتشف عدداً من اللوحات المحفورة في وادي مرجوج . وقام بعد الرحالة الفرنسي دوقيرة باكتشاف رسوم صخرية في وادي الأجل وفي ذاتي وكان ذلك في عام 1864 . ثم تلت ذلك اكتشافات الطبيب الألماني حنظل نخيفال لمواقع الفن الصخري في غزدة وفي تسي في عامي 1869 و عام 1874 على التوالي⁽¹⁾ .

ذكر هؤلاء الرحالة اللوحات الصخرية بصورة مقتضبة . وكانوا ينظرون إليها من الناحية الجمالية ولا يهتمون كثيراً بقيمتها التاريخية . كما كانوا غير مهتمين بدراسة المخلفات الأخرى التي وجدوها في مناطق الفن الصخري والتي ربما كانت ذات صلة به . ولكن على الرغم من ذلك فإن الفضل يرجع إليهم في إثارة وانتباه الباحثين إلى وجود فن صخري أصيل في ليبيا وفي تشجيع عدد منهم لأرباب الصحراء بحثاً عنه .

وقعت المرحلة الثانية أبان الاحتلال الإيطالي لليبيا حين قام فر من الأوربيين بدراسة فنونها الصخرية . منهم الإيطالي كوارنو زولي الذي قام بدراسة عدد من اللوحات في وادي الأجل في عام 1914 . ثم عالم الأنثروبولوجيا الألماني هورينوس الذي زار عدد من مواقع الفن الصخري في الصحراء الليبية والمناطق المجاورة لها ، وسجل مشاهداته عنها بكثير من التفاصيل في عام 1933 . وبعد عام (1934) من رحلات ذلك الكاتب الألماني أولدت الجمعية الجغرافية الإيطالية بعثة علمية لدراسة الصحراء الليبية كان من بين أفرادها بلو قرازيوس الذي قام بزيارة كثير من مواقع الفن

الصخري ونشر عنها بحوث قيمة⁽¹⁰⁾.

اتسك دراسات هذه الفترة بالوصفية وركزت كسابقها على الناحية الجمالية. وإن كانت قد بدأت الربط بين المخلفات الفنية والمخلفات الأثرية الموجودة معها، مما يمكن من توفير معلومات هامة تطلقت منها الدراسات اللاحقة.

تبدأ المرحلة الثالثة في الخمسينات من قرنا هذا عندما قام العالم الإيطالي فيرديشو موري بدراسة الفن الصخري في تشرات الأندكوس. وتمكن من توثيق آلاف اللوحات فيها وأجرى عدداً من الحفريات في مواقع هذه اللوحات. وعلى الرغم من اهتمامه الشديد بالجانب الفني لهذه اللوحات إلا أنه لم يهمل دراسة المخلفات الأثرية الأخرى بل حاول جاهداً أن يربط بينها وبين الفن الصخري. وصخر كل المعطيات المتاحة له في إعادة تركيب عاضي الصحراء النبية. ولذلك جاءت دراسته نموذجاً لدراسات المتخصصة في هذا المجال. وخاصة فيما يتعلق بالبيئة القديمة. وحاول هو ومعاونوه من أمثال بيبارا باريس من إيجاد الصلة بين مضمون الفن الصخري ومخلفات البيئة القديمة ومن دراسات هذه المرحلة الهامة أيضاً تلك التي قام بها العالم البلجيكي فرانس فان نوتن بالاشتراك مع ميزون في جبال العوينات. حيث اتجهت منهج العلوم المتداخلة في دراسة الفن الصخري، وتمكنا من كشف النقاب عن معلومات بالغة الأهمية عن الحضارة والبيئة القديمة في العوينات. ومن دراسات هذه المرحلة كذلك تلك الدراسة التي قام بها لوكوليك في وادي الشاهية وحاول أن يتصور أهمية الفن الصخري بالنسبة للفنانين الذين قاموا بإنجازها واعتمد في دراسته على معلومات استقاها من مظاهر الفن الحديث عند بعض القبائل الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء. وبعد مقارنات دقيقة بين النوعين من الفنون خلص إلى أن التعبير النهائي كان يمثل عنصراً هاماً من أفكار الفنانين الذين أنجزوا اللوحات الصخرية في وادي الشاهية في عصور ما قبل التاريخ وبذلك فتح باباً جديداً في استخدام الفن المعاصر

لبنهم الفن القديم . كما قام فراهام باركر بكتابة منحصراً تركيبياً عن البحث الأثري في ليبيا ضمنه معلومات مفيدة عن الفن الصخري في ليبيا وتطرق مرزولينجي للفن الصخري في ليبيا في إطار دراسته عن الأبقار الأليفة في أفريقيا استناداً على اللوحات الصخرية . وبنه إلى ضرورة إعادة النظر في تقويم الزمنى للفن الصخري الليبي في ضوء المحترقات الأثرية الجديدة⁽¹¹⁾ .

ولعل من أبرز سمات هذه المرحلة استخدام الأساليب العلمية الحديثة وتداول اللوحات من منطلق أثري معاً يمكن الباحثين من وضع تقويم زمنى أكثر دقة من تقويم المراحل السابقة . وكما ربطت دراسة الفن بدراسة البيئة القديمة .

تجدر الإشارة هنا إلى أنه قد كتب عن الفن الصخري الليبي نفر من المؤلفين العرب منهم أحمد حسين ، ومحمد مصطفى بإقامة ، وعبد الطيف الرفهوني وجمعة العناني ، وعبد السلام شوق ، وكاتب هذه السطور⁽¹²⁾ .

محتوى الفن الصخري وأصاليه التصويرية

احتوى الفن الصخري على عدد من الموضوعات التي أنجزت في فترات متعاقبة . وعلى الرغم من اختلاف مضامينها إلا أن معظمها كان يدور حول أمر ثلاثة: الإنسان والحيوان والبيئة ، كما سنذكر ذلك بالتفصيل في موضعنا من البحث . ولقد تباينت أبعاد الصور وأحجامها إذ جاء بعضها في الحجم الطبيعي للأشياء التي يرمز إليها ، وجاء بعضها أقل حجماً من الأشياء التي يرمز إليها . وفي أحيان نادرة أنجزت الصور في أحجام مصغرة بنسبة تقل بكثير عن الحجم الطبيعي لما يراد تصويره أو كبرت بطريقة مجسمة . كما اختلفت الأساليب الفنية التي أنجزت فيها الصور وإن كان من أهمها أسلوب الحفر والرسم .

استخدم أسلوب الحفر في الصخور على الصخور المكشوفة في الصحراء . وأثبتت أدراسات بأن عملية الحفر كانت تتم بواسطة أدوات حالية ربما كانت

من الصناديق الصماء مثل الفؤوس الحجرية. والحفر أنواع: هناك الحفر الرفيع الذي يجري بالقرب من سطح الحجر، وآخر سميك قد يصل إلى عمق ثمانية سنتيمترات أو أكثر داخل جوف الحجر. وبعض الأنواع قد حزمت في شكل نقاط منقطعة، أو خطوط غير مكتملة، وأخرى في شكل خطوط عميقة ومتصلة تشمل كل جزئيات الشكل المحفور. وهناك صور بارزة نحتت على الصخور ثم صقلت صقلًا جيدًا. ربما كان الفنانون يستعملون الرمل المبلل كصنعة للصقل. وقد يلفوا في ذلك درجة رفيعة من الجودة والإتقان أبرزوا فيها التفاصيل الدقيقة كأساط تسريح الشعر والنحلي والأزياء.⁽¹²⁾

أما أسلوب الرسم فقد استخدم في الغالب في مناطق محمية طبيعيًا ضد الظواهر الهدامة التي تؤثر فيها. مثلًا داخل الكهوف وفي المخاض الجبلية. أجزت الرسوم بطريقة مباشرة على الجدران ويعتقد بأنها نفذت بأدوات تشبه القرش المصنوعة من شعر الحيوانات أو ريش الطيور أو الأخشاب المضبوغة أو أصابع اليديين. وبعضها كان دقيقاً مكن الفنان من التصوير بطريقة معبرة وفي غاية من الدقة والجمال. ولقد استخدم الفنانون هذه ألوان منها الأبيض والأسود والأخضر والأحمر والنوردي. ولقد دلت القومحس المعملية التي أجريت على عينات من هذه الألوان على أنها كانت تتركب من عدة عناصر للحصول على ألوان لامعة ومتألقة وفي بعض الأحوال صامدة للماء أو قليلة التأثير به. فمثلًا اتضح أن بعض الأصباغ كانت تعزج بمواد بروتينية مثل بياض طرفد البيض أو الحليب أو شمع حبل النحل أو دهون الحيوانات وبجرمان. بالإضافة إلى لاذب يحتوي على أكسيد الحديد، وكانوا يستخدمون ثلاثة طرق في التلوين: أولها رسم الخطوط التي تمثل إطار الصورة العام للشيء الذي يراد رسمه، ويكون ذلك بلون داكن مع ترك المسافة الداخلية بغير لون أو تلوينها بلون آخر أفتح من لون الإطار. ولديهما تلوين الصورة بأكثر من لون كأن يغطي الحيوان العنقط بلونين والأرقتن بأكثر من ذلك. وثالثها تلوين الصورة بلون واحد يشمل كل أجزائها.⁽¹³⁾

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من الدراسات الكثيرة في ساليب الفن الصخري إلا أن العلاقة بين الرسم والتحف في التصوير غير واضحة. وهناك عدد من الأسمدة المطروحة في هذا الصدد ولا تزال تتظفر الإجابة عليها بطريقة علمية. فمثلاً هل ينتمي كل من الأسلوبين إلى أنواع مختلفين أم تمثل الاختلافاً في المدارس الفنية لشعب واحداً ولكن الجميع يتفق في أهميتها معاً في تحديد عمر الفن الصخري ولذلك اتخذ كل منهما كـمقياس لتحديد عمر الفن الصخري. كما وإن التصوير في كلا النمطين قد بلغ درجة رفيعة من الدقة لدرجة تروى فيه بعض الصور وكأنها قد انتقلت بآلة تصوير فوتوغرافية. ويبدو بصفة عامة أن أقدم الصور أروعها من الناحية الجمالية، وأن هناك تضاؤل في فن التصوير في العصور المتأخرة. وأن التصوير الحفري أقدم من الرسم الملون. وأن هناك بعض الحالات الشاذة التي يجتمع فيها الأسلوبان وذلك عندما تحضر الخطوط العامة للصورة ثم تلوّن بعد ذلك.

عمر اللوحات الصخرية وأصولها

إن من أهم المشاكل التي تواجه الباحث في الفن الصخري القديم هو تحديد العمر. ونقد تخطيط الباحثون الأوائل في هذه المسألة تخطيطاً شديداً وذهبوا فيها مذاهب شتى، فمثلاً بارت يعتقد بأن الصور الصخرية في ليبيا تعود إلى العهد الكلاسيكي⁽¹⁵⁾ بينما يرى قرايوسمي أنها تعود إلى العصر الحجري الحديث⁽¹⁶⁾. وكان نتيجة ذلك أن أرغعت نقائات الصحراء بزمن متأخر جداً عن عصرها الحقيقي. وبنيت على ذلك كثير من الفرضيات المغاظة وعلى الخصوص فيما يتعلق بأصول الفن الصخري. ولكن مع تقدم البحث العلمي تمكن الباحثون من ابتكار قواعد وأسس لتعيين عمر الفن الصخري ساعدت في إجلاله كثير من قواعده. ولكن الأمر لا يزال يحتاج إلى مزيد من

البحث لتحديد هذه الأسس بنسبة أكثر. تتكون المعايير التي وضعت لتحديد عصر الفن الصخري من عناصر داخلية مستوحاة من موضوعات اللوحات المصورة. فمثلاً إذا ما وجدت صورة البقرة مغطاة تماماً أو جزئياً بصورة لحسان فإن صورة الحيران الأخير تكون أحدث عمراً من صورة الحيران الأول. كما يستفاد أيضاً من نوع العناصر المصورة في تحديد العمر. فمثلاً من المعروف أن الحصان قد ظهر في الصحراء في وقت متأخر من عصور ما قبل التاريخ. وظهر الجمل من بعد ظهور الحصان. بينما كانت هناك حيرانات موجودة في الصحراء قبل ظهور الخيل والإبل بألاف السنين وقد انقرض اليوم من الصحراء مثل التيس والكركدن. ولذلك فإذا ما وجدت صورة لثيل إلى جانب صورة حصان في لوحة واحدة فلا بد أن تكون صورة الثيل أقدم صور تلك اللوحة. كما يستفاد الباحثون من صور الأواني والمعدلات في تحديد عمر اللوحات. فمثلاً صور الأسلحة المعدنية كالتحامية والتحديدية تشير إلى أن اللوحات قد تنتمي إلى نهاية فترة ما قبل التاريخ أو بداية العهد التاريخي وقت انتشار هذه المعادن في الصحراء الكبرى.

أما العناصر الخارجية تعتمد على الربط الزمني بين المخففات الثنية والمخففات الأثرية الأخرى المعاصرة لها. ومن أهم الأمثلة في هذا المجال هو غشاء الصخور الذي هو عبارة عن قشرة سوداء داكنة تغطي سطح الصخور عندما تتعرض للغازات الجوية، والأمطار وأشعة الشمس. ويعرّف الزمن يعطي هذا الغشاء سطح الصخرة واللوحات المصورة عليها. وكلما كانت الخدوش قديمة كلما اكتسبت لون الصخرة المصورة عليها وبذلك تكون أقدم أنواع خدوش الصور هي أقرب للون الصخرة. ويعرف هذا الغشاء «بخبارة» أو «غشاء العتقة» ويمكن به التمييز بين الصور القديمة والحديثة إن كانت موجودة فوق سطح نفس الصخرة أو طريقة خارجية أخرى ذات أهمية بالغة، هي تحديد العمر بواسطة الكربون 14 المشع، وهي طريقة تعتمد على وجود صور صخرية مختلطة بمواد عضوية ملائمة لتاريخ الكربوني المقطعي.

ومن أهم الأمثلة في هذا المجال حفريات موري في أرضية كهف حوان بهيجاج بالأكاكوس حين وجدت في إحدى العقبات قطعة من كتلة صخرية برقد لوزي مخلقات أثرية وقد تم تأريخها بواسطة الكربون 14 المشع إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وعندما قليت القطعة الحجرية وجدت صورة لتورين وقد رسمت على الصفحة السفلى من القطعة. ويمكن موري من أن يثبت بأن القطعة الحجرية قد سقطت من الجدار الأعلى للكهف خلال فترة تكوين الطبقة الأثرية التي احتوت على القطعة وكان ذلك في الألف الثالث قبل الميلاد وتم له بذلك تحديد فترة سيادة صور الثيران في لوحات الأكاكوس بطريقة قطعية أي بثبوت معلومة (17).

ويجد أن أخذ موري - في الاعتبار - كلا من المعايير الداخلية والخارجية وضع جدولاً حدد فيه عمر اللوحات الصخرية في الأكاكوس. وأصبح هذا الجدول نموذجاً يحتذى في تحديد أعمار فنون الصخرية في كثير من بقاع العالم (18).

نسب موري جدول له إلى خمسة مراحل على النحو التالي :

(1) مرحلة الحيوانات الكبيرة البرية والمصورة بالحفر، أو مرحلة النيش، وهي أقدم مراحل الفن الصخري الصحراوي وتعود إلى العصر الحجري القديم. وبدايتها غير معروفة وتقدر نهايتها بحوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. وهي فترة سابقة لامتناس الحيوان.

(2) مرحلة الرؤوس المستديرة وهي مرحلة ظهرت فيها أقدام البصور لأدمية لها رؤوس مستديرة أو مائلة إلى الاستدارة. لا يعرف متى ظهرت ولكن نهايتها تقدر بفترة سابقة لسنة آلاف سنة قبل الميلاد.

(3) مرحلة البقر أو مرحلة الرعاة وهي فترة سادت فيها الأبقار الأبيضة فيما بين خمسة والثلاثة آلاف سنة السابقة للميلاد.

(4) مرحلة الحصان وتبدأ بظهور الخيول العركوبية والخيول التي تجر

العربات في حوالي الألف الثاني قبل الميلاد.

[5] مرحلة الجميل وهي آخر مراحل الفن الصخري القديم وتبدأ بطيور صور الإبل في بداية العهد المسيحي أو قبل ذلك بقليل وتنتهي بالعهد الإسلامي في الصحراء.

يرضع هذا الجدول التقريبي بأن الفن الصخري قد عرف في ليبيا منذ فترة طويلة تقدر بأكثر من اثني عشرة ألف عام. وتدعونا هذه العراقة إلى التساؤل عن أصول هذا الفن، هل جاء كمنفعة وافدة إلى الصحراء من منطقة أخرى؟ أو ولد في الصحراء الكبرى وترعرع فيها؟.

تقد تعددت الآراء في هذا الصدد منها ما ذهب إلى أنه نتاج نشأة نتيجة لتغيرات خارجية ومنها ما ذهب إلى أنه نتاج محلي ولد وترعرع في الصحراء⁽¹²⁾. والرأي الأول نقاش بأنه في واقع أقدم الرايين وقد ذهب مستقوه مذاهب أربعة على النحو التالي:

[1] إن هذا الفن أوروبي الأصل وقد أتى الصحراء من جنوب فرنسا أو من إسبانيا عبر البحر المتوسط وربما عن طريق جزيرة صقلية. نادى بهذا الرأي فردينيوس وأيده في ذلك كل من الأب بورين وغوانجيوسي، ثم أدهم كمبر، بوثر في وقت لاحق وأضاف بأن هناك شريحة مميزة من الفن الصخري يختص بحوض البحر المتوسط تشترك فيه الدول الأوروبية والدول المغربية⁽¹³⁾. وتكمن بالرغم من أن هناك بعض العناصر المشابهة في الفن الأوربي والفن الصحراوي، وأن الأوربي أقدم عمراً من الصحراوي إلا أن الصلة بينهما غير واضحة وليس هناك دليل واضح يثبت التأثير الأوربي المزعوم. بالإضافة إلى وجود اختلافات واضحة في النوعين من الفن وخاصة في مشهور كل منهما.

لما يرق الأب بورين أنه ينبغي ناول مسألة أصل الفن الصخري الصحراوي ضمن الإطار العام للفن الصخري الإفريقي إن فترة ما قبل

التاريخ، ويعيل إلى وجود روابط في أصول هذا الفن في كل من شمال القارة وجنوبها⁽²¹³⁾. ولكن هاريس هنري لوت هذا الرأي بشدة على أساس أنه ليس هناك أدلة أثرية يمكن أن تثبت هذه الصلة المزعومة. بل إن الفن الصخري الصحراوي أقدم عمراً من نظائره في جنوب إفريقيا، وهذه مؤنود في هذا الرأي⁽²¹⁴⁾.

(3) طرح إسميث رأيه متسائلاً أليس من الممكن أن يكون جنوب غرب آسيا وعلى الخصوص منطقة فلسطين مصدراً استقت منه الصحراء الكبرى فكرة الفن الصخري⁽²¹⁵⁾ ولكن مثل هذا الرأي نعوزه الأدلة الأثرية. بالإضافة إلى أن الفن الصخري في الصحراء يحبر أكثر تقدماً من الفن الصخري في جنوب غرب آسيا وربما أقدم منه عمراً.

(4) يرى فاطوي وآخرون على أن أصل الفن الصخري في الصحراء الكبرى هو مصر ونظراً لقرب وادي النيل من الصحراء وعدم وجود حواجز تمنع تسرب الأفكار بينهما فقد شاع هذا الرأي في أوساط المفكرين لفترة من الزمن، وخاصة وأن هناك تشابه واضح بين بعض اللوحات الصحراوية وبعض الأعمال الفنية في وادي النيل، مثل الشبه الشديد لبعض الأشكال البشرية الرائجة في كلتا المنطقتين. وأيضاً بعض المشاهد التي تصور الحيوانات وهي تحمل بين قرونها أقراصاً تشبه القرص الذي يحمله الكيش رمز الإله آمون رع المصري بين قرويه⁽²¹⁶⁾. ولكن هذا الرأي بدأ يفقد مكانته نتيجة للتقدم العلمي الذي أحرزته الدراسات الأثرية الحديثة وذلك للأسباب التالية:

أولاً - تعود أقدم لوحات الفن الصخري في ليبيا إلى فترة زمنية سبقت ظهور الفن الصخري في مصر بعدة قرون، ولا يمكن لعمل فني متأخر أن يكون أصلاً لعمل فني سابق له. بل العكس هو الصواب: فإن كان هناك احتمال تأثير فني بين المنطقتين فأولى بالصحراء أن تكون مصدراً لذلك التأثير كما نال بذلك محمد مصطفى بازامه⁽²¹⁷⁾. وذهب هنري لوت أيضاً إلى نفس

الرأي بعد أن تحلى عن رأي قديم له كان يقول فيه بالتأثير المصري على أصول الفن الصحراوي. يقول لوت في رأيه تجديده نافعاً للتأثير المصري على الفن الصحراوي. وقد تبين أن النقوش الكبيرة في مرحلة النيل والتي ينسب إليها الكثير من الفصوص، تقع قبل مرحلة الأبقار وتؤرخ بسنة 3500 ق.م على الأقل فتكون بناء على ذلك أقدم من كل المنتجات الفنية المصرية. ويجب أن نعلم الآن من أن الواقع هو العكس تماماً فإن التأثيرات الصحراوية قد تركت بصماتها في مصر. وقد تبين عدم وجود نقوش في وادي النيل تصور النيل القديم في العقبة المعكرة فجميع النقوش تعود إلى فترة متأخرة يظهر فيها البحر المدجج لأول مرة (126).

ثانياً - يرى شرفيشيك الذي درس الفن الصخري في وادي النيل بعناية خاصة أن الفن الصخري هناك في قائم بذاته يختلف في أصوله عن الفنون الموجودة في الصحراء (127).

وإذا استلزم الرأي القائل بنسبة الفن الصخري لعامل خارجي فعلينا أن ندلل احتمال نشأة هذا الفن وتطوره محلياً في الصحراء الكبرى. ولكن من المشاكل الكبرى التي نعثر عليها هنا الاتجاه أن الفن الصخري الصحراوي قد ظهر كفن ناضج ذي مستوى رفيع منذ أقدم العصور. وليس هناك من الأدلة التي يمكن أن تشير بوضوح إلى بدايات هذا الفن والتجارب التي مر بها الفنانون ليصلوا إلى هذه الدرجة من النضج. هذا على الرغم من أن بعض الكتب من أمثال موري يعتقد أنه ليس من الضروري أن تكون هناك بدايات فنية واضحة في الفوهات الصخرية. بل ربما كانت الممارسات الأولى تنجز في مواد قابلة للتليق لذلك نيت ولم يصل إليها شيء، أي أن الإنسان بدأ يمارس عملية التصوير لوق سطوح الصخور بعد أن حصل تجاربه فوق مواد غير جدارية (128).

يشير مضمون لوحات الفن الصخري في جنوب غرب ليبيا إلى تطور

واضح في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى العهد التاريخي. وتؤكد المكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها في مواقع الفن الصخري والمناطق التي حولها بأن العتوب الليبي منطقة ذات تقاليد حضارية عريقة تطورت فيها المظاهر الفنية والصناعية لفترة تزيد عن عشرة آلاف سنة. ليس في مقدور مثل هذه المنطقة أن تكون قد تطورت صناعاتها وفنونها محلياً؟ ويمكن تعزيز مثل هذا الرأي بالقول أن بعض الصناعات الحجرية الضارب في القدم قد نشأت وتطورت محلياً⁽¹²⁹⁾. كما وأن بعض التحولات الاقتصادية الكبرى مثل عملية إنتاج الطعام قد تكون تمت محلياً⁽¹³⁰⁾. وربما تكون بيئة هذه المنطقة الوطيرة بالخيرات عاملاً مساعداً في بلوغ هذه الإنجازات الحضارية. كل هذه العناصر تشير إلى أن الجنوب الليبي كان مركزاً حضارياً هاماً وهذا يعني أن الفن الصخري لم يتطور في فراغ بل تطور في ظروف بيئية واجتماعية تتناسب معه. وليس هناك ما يمنع هذه المنطقة من أن تكون مهداً نشأ فيه الفن الصخري وربما يكون قد تولد نتيجة لتفاعل الإنسان وتكيفه مع الظروف الاجتماعية والبيئية التي كانت تحيط به. خاصة وأن الإبداع الفني ليس حكراً لمجموعة عرقية معينة أو قاصراً على بيئة طبيعية واحدة دون سواها أو أنه من الأفكار التي لا تنبع إلا عن طريق محض خيالي.

الإنسان ومجالات النشاط الإنساني

مثل الإنسان في أشكال وأوضاع مختلفة، ظهر في بعضها واضح المعالم وفي أخرى مطموس المعالم. فمثلاً أنتجت الأشكال البشرية في بعض الصور القديمة في شكل خطوط عامة دون تحديد معالم الجسم تحديداً كاملاً أو إبراز تقاطيع الوجه. ولكن في وقت لاحق صوّرت معالم الوجه بوضوح مع إظهار الفكين والأنف وأبرزت الخصائص التي تفرق بين الجنسين كما أوضحت المعالم الأخرى مثل الأكتاف والجوانب وطول القامة

وقصرها، ونحوالة البدن وامتلاكه. وعمد الفنانون إلى الرسم التخطيطي مرة أخرى في الفترات المتأخرة. وعلى الرغم من صعوبة تحديد هوية هذه الأشكال أو معرفة العرقية التي ترمز إليها إلا أنه بناء على التلامح والتقاطع يمكن التعرف على الفصائل التالية:

(1) الأشكال ذات الرؤوس المستديرة. وهي أشكال بشرية لها رؤوس مستديرة أو مائلة إلى الاستدارة مع خلو كامل للعلامح الوجه. ظهر هذا النوع في الغالب بالتصوير الرسمي دون الحفري. وهو أقدم الأشكال البشرية المصورة في اللوحات الصحراوية. ونظراً للانتشار الواسع لهذا النمط التصويري فقد اعتبره موزوليني رمزاً لبعض شعوب صحراوياً كان يمكن في مناطق الفن الصخري. ويرى موري بأن هذا النمط يرتبط بطقوس دينية صحراوية⁽¹⁾.

(2) أشكال ثنائي المثلثات. وهي أشكال بشرية صورت بأسلوب تخطيطي؛ حيث تتكون صورة الشخص من مثلثين يلتقيان بالرأس تتكون نقطة الالتقاء حصر الشخص؛ وزاوية الضلع الأعلى للمثلث الأعلى كتهاه وزاوية الضلع الأسفل للمثلث الأسفل ركبته. وتتكون الأيدي من خطوط تتدفق من جانبي المثلث الأعلى والأرجل من وسط ضلع المثلث الأسفل ويعتقد بأن هذه المجموعة هي مجموعة أخرى من الأقوام الصحراوية التي كانت تسكن في مناطق الفن الصخري. وقد انتشرت هناك بعد ذوي الرؤوس المستديرة بفترة طويلة⁽²⁾.

(3) المجموعة المتوسطة وهي أشكال صورت بطريقة واضحة المعالم لها بشرة بيضاء وأنف حقيق وشعر مرسل. ويعتقد أنها مجموعة أوروبية الأصل. وفدت إلى الصحراء من الشمال ربما من حوض البحر المتوسط. وتعتبر من المجموعات القديمة في الصحراء⁽³⁾.

(4) المجموعات الزنجية، وهي مجموعة لها سمات الزنوج من شعر أحمق وأنف أنفوس وبشرة سوداء. ويعتقد بأنها إفريقية الأصل. وتعود

اكتشاف ولات غلغل زنجي عندفون في كهف عوان مهجاج الوجود الفعلي لهذه المجموعة في نفس مواقع الفن الصخري⁽⁵⁴⁾.

(5) المجموعة الخلاسية. وهي مجموعة بشرية مهجنة نتاج خليط من المجموعة الزنجية والمجموعة المتوسطية تحمل في تقاطعها ملامح من النوعين⁽⁵⁵⁾.

نرى الإنسان بأشكاله الخمسة وهو يزاول نشاطاً من الأعمال والوظائف الفردية والجماعية. وإذا ما بدأنا بأصغر الوحدات الاجتماعية حجماً نجد أن هناك أسر مكونة من زوجين كصورة لرجل وامرأة مرسومة داخل كوخ في جبال العوينات، وترتدي المرأة ثوباً وإلى جانبها زوجها وقد رسم في شكل تخطيطي. وفي صورة أخرى ترى أسرة مكونة من زوجين وطفليهما. صورت المرأة وهي ترتدي حذية فوق شعرها وأخرى تطوق جديها؛ وسواراً في معصمها الأيسر. ويقف الزوج إلى يسارها مداً يده اليسرى نحوها. وإلى جانبها طفلان يقفان تحت بقرة وهما يضعان فروعها في هدوء. وفي مشهد أسري آخر بالعوينات يرى فيه رجلان متقابلان يرتدي كل منهما جلد أمد. وإلى جانبهما بنت تمسك بيد بنت صغيرة أخرى ترتدي ثوباً مثل أمها⁽⁵⁶⁾. وإذا ما تجاوزنا المشاهد الصغيرة لمنا نرى الناس وهم مجتمعون في أعواد كبيرة فمثلاً توجد في مدخل الكهف هوان مهجاج رسوم تجريدية باللون الأحمر لستة أشخاص واقفين وهناك جسم بيضاري الشكل. رسم بخطوط بيضاء وإلى جانبه ثلاثة أشخاص تحرون رسموا باللون الأبيض داخل إطار أحمر وتغطي أجسامهم قطع حمراء مستديرة. وهناك شخص ثالث بين هذين الشكلين مقلبي على قفاه مسجى على الأرض على شكل يشبه الوعاء. رسم هذا الشخص باللون الأبيض ولونت أكتافه بالأحمر وتحيط به خطوط حمراء في شكل قطع مستديرة. وفي نهاية اللوحة صورة لستة أشخاص نرى أحجام صغيرة وهم يركضون. يرى موري بأن الشخص المقلبي على قفاه يمثل جثة أميت لم يضع جنازي⁽⁵⁷⁾. ونرى في لوحة أخرى بنفس الكهف

مجموعة من الأشكال البشرية تنفذ بطريقة توحى بصورة تقارب وهم يتجهون شرقاً قبله شروق الشمس. وقد رسمت مجاذيف هذا التقارب من رؤوس السهام. يرى موري بأن هذا الشكل ربما كان قارباً رمزيًا. وفي لوحة أخرى بنفس الكهف نجد امرأة يرافقها كلب ويأتي يمينها مجموعة أشخاص واكضون⁽¹⁰⁸⁾. ونجد في العرينات وفي الأكاكوس عدد من المشاهد التي تصور الناس أمام منازلهم أو داخل حظائر في هيئة وكانهم يتجهون أطراف الحديث أو يناقشون أمورا ذات بال. وفي بعض الأحيان تراهم وهم يقدمون يد العون لمن يحتاج إليها. كما في إحدى مشاهد عوان مهجاج التي تصور أشخاصاً جالسين وكانهم يساعدون شخصاً آخر للتهرب من عنى الأرض⁽¹⁰⁹⁾. ولم يغفل الفنانون حتى المظاهر العاطفية كما ترى ذلك في مشهد تين لالان ذي المضمون الجنس حيث تصور المرأة أو الرجل في وضع جنسي. وقد تعدى ذلك إظهار اقتران ذكور ينادى بل أن بعض الصور تعكس المضاجعة في شكل قاصح في جو طقسي تقدم خلاله القرابين⁽¹¹⁰⁾.

يمكن أن تحدد بعض الوظائف الفردية والجماعية من خلال النشاط الإنساني. نلمح فيها وظائف خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء ونوع آخر المشترك فيه الجنسان معاً. فالصيد من أهم الحرف التي زاولها الرجال. ومن أهم مشاهد الصيد لوحة الأكاكوس تصور جماعة مذبذبة تنفذ مهطقة في حلقة نصف دائرية يحمل كل منهم قوساً ومهماً. وأقواسهم مشدودة ناهياً لرمي سريدهم وهم يرتضون خلف حيوان كبير الحجم يبدو كأنه نور وحشي وهو في حالة ذعر شديد⁽¹¹¹⁾. وفي مشهد آخر يحاصر ثلاثة صيادون زرافة وهم يحارلون وميها من برمي قريب ومشهد آخر نصيد ثلاث يتألف من عدة مناظر حيث يظهر في أول اللوحة عدد من الصيادين يطاردون ثوراً وحشياً وهم يمشطونه بعدد من السهام ويعاونهم كلهم الذي لحق بالثور وانشب مخالفه في فخذه⁽¹¹²⁾. وفي مشهد آخر انفراد ثلاثة صيادون بثور هائج وهو يواجههم مواجهة عنيفة ويشد أحدهم وتر قوسه بأقصى قوة مسدداً مسدداً لي

عنى الثور ويعاونه كلبان أحدهما ينقض على عتقه والآخر يناوشه من الخلف⁽⁴⁴⁾. ويرى مشاهد صيد كثيرة في جبال العمونات يستخدم فيها نقاصون الأقواس والسهام والجبال الطويلة والأفخاخ المنصوبة على الأرض أو المحفورة تحت الأرض. ويتم كثير من عمليات الصيد بمعاونة الكلاب. فثلاً ترى رجلاً يهاجم كلباً مغرباً (أورياً) من الأمام شاهراً سيفه نحو الكلب ويهاجم كلبه الكهش من الخلف. وكما ترى جماعة من الصيادين وهم يطوفون زرافة ويقذفونها بحراب طويلة من كل الاتجاهات⁽⁴⁵⁾. كما نجد عدداً كبيراً من الرسوم والصور المحفورة التي تعرض الحيوانات البرية كالزراف والنعام وهي واقعة في الأخداع منصوبة فوق الأرض أو تراها محاطة بسياج أو مقيدة بحبال⁽⁴⁶⁾.

ونشاط ثاني غلب على مزاوله الرجال وهو الرعي الذي هو من أهم الأنشطة التي شغلت بال الفئانين وأكثرها رزقاً في اللوحات الصخرية وعلى وجه الخصوص رعي الأبقار الذي يشكل أكبر عنصراً من عناصر الفن الصحراوي. فهناك عشرات اللوحات تصور الرعاة وهم يسوقون قطعانهم رعي تير أمامهم كما نشاهد ذلك في إحدى لوحات العمونات التي تصور قطعاناً من مائة أبقار تتقدمه ثلاث منها وتبعهن الأربعة الأخرى وخلفهن الراعي الذي يرتدي زياً من جلود الأسود وله زينة جسدية ويرتدي خفاً⁽⁴⁷⁾. وأحياناً ترى الراعي وهو يتقدم حيواناته وهي تتبعه من الخلف، مما يدل على حلق فاتق لمهارة الرعي. وفي بعض الأحيان نجد أكثر من راعٍ في صحبة قطع واحد. فراح يسوق الحيوانات أمامه وآخر يحرس المشاردة منها نضمها إلى القطيع وآخر يقوم بإصلاف بعضها. كما ترى ذلك في جبال عمونات حيث تتكرر ظاهرة أهلاف الحيوانات بصورة متواترة وأحياناً يترزون لها الطعام الإضافي من أوراق الأشجار وذلك عندما يقومون بشليخ فروع الأشجار وتغذيهمها لها كعلف. ويستمنون على ذلك بعض خاصة وني كثير من الأحيان ترى الرعاة بالقرب من حيواناتهم يهيمون بها وهي

والثمة أو خالدة إلى الراسعة في حفائرها⁽¹⁾.

والى جانب هذه المشاهد الواضحة فإن هناك مشاهد مضممة بالحركة التي تدل على الاضطراب وتشير إلى أن الإنسان قد احترف القتال وأثر الحرب على السلم. وقد غلب على مزاوله ذلك العنصر الرجالي. فعلاً نجد في إحدى لوحات الأكتوس صورة حية لمركبة من معارك ما قبل التاريخ بين فريقين متخاصمين يتسلح جميع محاربيهما بأقواس وسهام، ويرتدي كل منهم زياً يشبه الجلاب يتدلى حتى تحت الركبة مباشرة. يتألف الفريق الأول من سبعة عشرة محارباً يتجهون في اتجاه واحد وينقسمون إلى أربعة صفوف. يتكون الصف الأول من أربعة أشخاص يسرون متتابعين الواحد تلو الآخر. ويتكون الصف الثاني من ثمانية محاربين مرصوصين خلف بعضهم بعضاً. ويمثل المحارب الأول في هذا الصف مقدمة الفريق وهو يشد قوسه مرصلاً سهماً نحو أهدافه في الفريق الثاني. ثم هناك صفين صغيرين إلى جانب الصف الثاني للفريق الأول يتكون كل منهما من رجلين.

أما الفريق الثاني الذي يواجه الفريق الأول مائل الذكر فهتاف من ثلاثة محاربين أحدهم في المقدمة وحلفه شخصان آخران يسير كل منهما في خط مواز للآخر. ويمثل ثلاثتهم شكلاً مثلثاً يقف كل منهم عند ركن من أركانه. يهاجم هذا الثلاث الفريق الأول مهاجمة شرسة تودعها خوف أو حذر على الرغم من أن الفريق العدر يفوق الثلاث عنداً بثلاثة أضعاف. وهذا يدقنا إلى الاعتقاد بأن هذا الثلاث كان طليعة لمجموعة من المحاربين لذا تصل بعد رئى أرض المعركة. لذلك يسير على الثلاثة الأوتل الاطعتان لأنهم ربما كانوا تحت حماية ظهور قوي ثم يظهر في النرجة. وأن الشبه الشديد بين أفراد المجموعتين في النهج وفي السلاح يدل على أنهما كانا يتبعان إلى منطقة واحدة. أو منطقتين ذات خلفية ثقافية واحدة. ولكن تميز أعضاء الفريق الثاني بازدياد زوائد خلفية تدل على فرق ظهورهم مشنودة على الأكتاف. وتبدو وكأنها أكمة رماح أو حارب لحمل ما خلف من عتاد الحرب. يمكن أن

تتخذ كمؤشر يدل على تبين في نوع من أنواع الانتماءات⁽⁴⁹⁾.

وهناك حرف أخرى صغيرة الشخص بها الرجال من دون النساء، وذلك مثل تصفيف الشعر، كما ينعكس لنا ذلك في إحدى لوحات الأكاكوس حيث نرى رجلين أحدهما جالس يصفف شعر الآخر الذي يجلس أمامه وبين الرجلين بناء ربما كانت محتوياته تستعمل في عملية التصفيف⁽⁵⁰⁾.

كما نرى الرجال وقد همزوا في مشهد تدر وكأنها ترمز إلى جوانب المتعلقة بالرياضة البنية. فمثلاً نرى في إحدى لوحات الأكاكوس رجلين يتصديحان وقد اشتبكت أيديهما وأرجلهما ويررت عضلات سواعدهم كلياً منهما⁽⁵¹⁾. كما نرى في جدران العيونات رجلاً يتحرك بطريقة ساخرة أو عازحة وكأنه يزاول تمريناً رياضياً. وهو شخص ذو جسد بالغ البدانة وقد صورت سانه بطريقة بالغة الطول يمد أحدهما إلى الأمام ويشي الآخر إلى الخلف يشي يديه إلى أهلي وينفتح نحو يده اليسرى⁽⁵²⁾.

ومن الوظائف التي تفرقت به النساء من دون الرجال بعض أنواع الرقصات مثل تلك التي تشاهدها في حوران مهجاج في مركب يتألف من أكثر من ثلاثين امرأة وهن يسيرون متتابعات وعلى رأس كل واحدة منهن حمل مشدود بالشرطة تتدلى في جباه النساء. وفي مشهد أخرى نرى النساء في عمليات رقص منتظمة يحركن أجسادهن في حركة إيقاعية واحدة تدل على أنه كانت لديهم معرفة عميقة بالموسيقى. وأحياناً يتجهن في نفس الاتجاه ويظنون في حركة إيقاعية واحدة وأوضاعهن مساوية ويرتدين زياً موحداً وكأنهم يمثلن فرقة رقص متحركة⁽⁵³⁾.

وعلى الرغم من ضلابة العنصر النسائي بين الراقصين إلا أن هناك بعض الرقصات التي ربما اشترك فيها الرجال مع النساء كما يعكس ذلك بعض لوحات العيونات حين نشاهد فريقاً من نحو ثلاثين شخصاً وهم يسيرون في مركب راقص يتحركون بطريقة جماعية منتظمة ومنسجمة مع إيقاعات

ومن الأعداد الأخرى التي اشترك فيها الجنسان معاً عمية حلب الأبقار كما نشاهد ذلك في إحدى لوحات الأكاكوس حيث تساهد النساء الرجال في عملية حلب ووضع الحليب في أوعية خاصة بها (54).

الفصائل الحيوانية

لقد صور الفنانون الحيوانات في مناظر متعددة تعكس علاقاتها بالإنسان وبالبيئة وبالحيوانات فيما بينهما: منها صور التسمت بالروعة الغنية وصدق التعبير ومنها ما هو دون ذلك. وتضمنت الحيوانات الوحشية والأليفة. وفيما يلي أهم الفصائل التي صورت في اللوحات الصخرية بدءاً بالوحشية:

التيئل هو أقدم الحيوانات المصورة في الصحراء. وقد أنجزت صورة عن طريق الحفر. تجده في وادي مسخندوش وقد صور لمفرد. وهو يقف ساكناً وقد بلغ طول قرناه 75 سنتيمتراً من طرف لأخر. كما نراه محضوراً في لوحات الأكاكوس. وهو حيوان ضخم الجثة وله قرنان مقوسان في شكل نصف دائري وجسمه معتلى في العجز وخامر في المقدمة. ويعتقد بأنه من فصيلة البابلوس القديم *Babulus Antiquus* وهو من الحيوانات المنقرضة من الصحراء قبل مدة طويلة. ويرى موري بأن في وجود صور التيئل بالصحراء أنه كان من الحيوانات التي يصطادها الإنسان (55). ولكن موزرليني ينفي هذا الرأي بشدة. ويعتقد بأن التيئل أضخم من أن يصطاد بالأسلحة الحجرية التي كانت معاصرة له قبل اكتشاف المعادن. ولذلك فإنه يرى بأن صور التيئل لا تعدو أن تكون أكثر من تعبير ديني عن نزعة سحرية تتعلق بالخوف من هذه الحيوانات (56).

تجد عدد من صور وحيد القرن محفورة في وادي مسخندوش يقف واحد منها في هيئة يبدو فيها وكأنه يهاجم عدواً. وصورة ثانية لوحيد قرن

وقد صور مقلوباً رأساً على عقب⁽⁵¹⁾. كما تجده وقد صور بالرسم والحفر معاً في جبال الأكاكوس مثل التصوذج الذي صور بالحفر على وجه صخرة في تين العاشق ويزيد ارتفاعه عن ثلاثة أمتار وقد صور بالحفر العميق ثم صقلت حدوده صقلًا جيداً. ووفقاً لرأي موري فإن هذا النوع يعرف عالمياً باسم بي كورنيس Bicornis أي ثنائي القرن⁽⁵²⁾. ونجده مصوراً بالرسم في عوان مهباج حيث رسم إطاره الخارجي باللون الأحمر انداكن ثم طليت الأجزاء الداخلية من اللون الأحمر الفاتح وهو يقف مطأطئ رأسه نحو الأرض ويرتفع أعضائها في حركة معبرة ولون جذاب.

تعتبر صور الأفيال قليلة في الصحراء الليبية ومعظمها في جبال الأكاكوس ولا وجود لها في جبال العوينات. هناك ثلاثة صور لأفيال حفرت في وادي مدخنلوش. يسير اثنان منها في هدوء كامل ويرفع الثالث أذنيه ويلوح بخرطومه إلى أعلى وكأنه في حالة هيجان. وتجد في الأكاكوس عدد من صور الأفيال اثنان منها في تين لالان يسير أحدهم في هدوء ويقف الآخر وجهاً لوجه مع أحد الصيادين. واثنان آخران وقد رسما على وجه نفس الصخرة في تشوينت وكلاهما يفيض بالحركة. وهناك فيل ثالث وقد وقع فريسة لجماعة من النبالين⁽⁵³⁾.

لصور الزراف أهمية خاصة لأنه من الحيوانات التي لا توجد طليقة في البرية إلا في إفريقيا⁽⁵⁴⁾. نجد ثلاثة زرافات في إحدى لوحات وادي مدخنلوش إحداهن محضرة في شكل خطوط متقطعة، والأخرى من منحوتتان نحاً بنزلاً. وهناك منظر لزرافة وتحلفها أشخاص يسرون سيراً طبيعياً وهي تسير مطمئنة وكأنها لا تأبه بمن خلفها. وهناك منظر آخر لزرافات ثلاث تفر بسرعة من ثلاثة أسود استطاع أحدهم أن يلحق بزرافة وينشب فيها مخالبه. وتجد في تين لالان صورة لزرافة كبيرة الحجم حفرت فوق سطح صخرة مساء وفي داخلها حفرت صورة لزرافة صغيرة الحجم، وربما كان ذلك رمزاً للإخصاب⁽⁵⁵⁾ وفي العوينات تم تصوير الزراف في أعداد هائلة وفي أساليب

فنية مثيرة للإعجاب، ومعظمه طابق في البرية. تراها ركضة ورياضة. وقد تم ذلك بالحفر ما عدا حالة واحدة صورت ليها زرافتان بالرسم¹⁶². وقد تم تصوير الزراف في أوضاع مختلفة، أحياناً يسكنها الناس من أصدقائها وأحياناً مفردة برسن. وفي بعض المواضع يرى الزراف موثوق أو واقع طرسة في فخ أو محاط بسياج. وفي الغالب يكون ذيل الزرافة مرفوعاً إلى أعلى عندما تكون واقعة في الأسر على نفيس حالتها الطبيعية عندما يكون ذيلها مثل إلى أسفل¹⁶³.

صور النعام ضمن الحيوانات البرية في وادي مادخدوش حيث نجد صورة محفورة لأربعة نعلمات تقف في هذبة. وفي لوحة أخرى بنس الوادي نجد صورة لس نعلمات وهي تتحرك وكأنها تسير على مقربة شديدة بعضها من بعض وجسم كل منها يلامس الآخر. ولم تظهر أرجل حمسة من هذه النعلمات ولكن ثبت الفنان رجلي النعامة السادسة. وقد حفرت جميع هذه النعلمات داخل شكل دائري يشبه الحبل الساتري ويمسك بطرف الحبل شخص مستخدماً إحدى يديه ويشهر في الأخرى سلاحاً يشبه الهراوة. وربما كان الشكل الدائري شبكة لصيد النعلمات وهي تفر مسرعة للشجاة ولكنها لم تفلح من الإفلات¹⁶⁴. صور النعام في العوينات بالحفر ومعظمه طابق في البرية وهو يرتج في مراعيه. غير أن هناك عدداً قليلاً من اللوحات يصور النعام وهو واقع في الأسر أو مربوط في إحدى القوائم أو محاولاً دون جدوى التكاك من الأسر.

نعكس اللوحات عدداً من صور الأبقار الوحشية وخاصة فصيلتي العاريا والودان، ومن أمثلة ذلك صورة لودان في عين عيسى مونة بالأحمر وقد رسم الحيوان في مواجهة شرسة مع عدد من الصيادين وكلابهم التي كانت تهاجم الثور من اتجاهات مختلفة¹⁶⁵ كما نجد في العوينات صور متعددة للأبقار الإفريقية الوحشية المعروفة باسم العاريا وعلى الرغم من أن بعضها قد صور طليقاً في البرية إلا أن معظمها قد صور طريد كلاب وأحياناً

صورت وهي واقعة في فح أو مأمورة وموثقة بحبال.

والى جانب ذلك نجد صوراً للوعول والأورية (المعزيات الوحشية) فمثلاً نرى الوحول (تيوس الجبال) وقد رسمت وهي تصير طليقة في البرية في وادي كيس بحبال الأكاتوس. كما صورت الوحول وهي راكضة بطريقة معينة للغاية في حوان مهجاج وقد طليت صورة إحداها باللون الأبيض والأحمر (1866) كما نجد صوراً كثيرة للأورية وقد رسمت بطريقة رائعة في جبال العوينات وعلى الخصوص في مواقف صيدية استخدمت فيها الكلاب، وتكون صور الأورية في الغالب مصبوغة باللون الأحمر.

تبدو صور الغزلان جد قليلة في الصحراء الليبية ما خلا جبال العوينات حيث نجدها وقد صورت في شكل قطع تتابع غزلان الواحدة تلو الأخرى. كما صورت في حالات نادرة وهي واقعة في أفضاخ.

والى جانب هذه الحيوانات المسالفة الذكر فهناك صور لحيوانات أخرى ولكنها قليلة العدد وخاية في البصرة. فمثلاً هناك صورة لأربعة قرحة تير متتابعة في جبال الأكاتوس (1871). وصورة لقطعة وحشية وبعض الحيوانات السنورية غير معروفة الأصول. وتجد في وادي مدخدوش صور قليلة جداً للأسود منها مشهد محفور لأسود ثلاثة فوق سطح أعلى صخرة في الوادي وقد أنجزت بطريقة النحت البارز المصقول. نرى اثنين منهما في هيئة مبارزة يرفع كل منهما قائمته إلى الأمام وبعد الذي في اليسار قائمته نحو الذي في اليمين وفي المساحة التي بينهما صورة لثلاث نعامة وهناك ثلاث يسير في هدوء وكأنه يشاهد الأسدين الآخرين يبارزان. وأسد رابع يلاحق زرافة وهي ترفض سرعة (1881). وتجد بطريقة استثنائية صور لبعض الزواحف مثل ثعبان سندرا. ولمساح مدخدوش وهو من الظواهر التي لا يتوقع الإنسان وجودها في بيئة شديدة القحولة مثل الصحراء الليبية كما ستناقش ذلك في موضعه من البحث. وهو تمساح معتدل القامة يرى وكأنه سابح (سائر) في هدوء وتحت

ذيله مبرورة لحيوان يشبه وحيد القرن. وقد حفرت حراثيف جلد التسماع
بمضوح شديد⁽⁶⁹⁾.

وإذا ما التفتنا إلى صور الحيوانات الأليفة نجد أن من أهمها صور
الأبقار وأكثرها تواتراً في اللوحات الفنية ويبدو أنها ترمز إلى ثلاثة فصائل
رئيسية :-

1- لعل فصيلة اليوس برمنقيس (*Bos Primigenus*) من أهم فصائل
الأبقار المصورة في الصحراء. وهو نوع من الأبقار ضخمة الجثة ولها قرون
طويلة ولا سهام لها وتنحدر من أصل أوروبي وقد استأنت بجودة لحومها
وتدرنها الكبيرة على تحمل الجفاف، وإن كانت قليلة الألبان ولذات تربي
تقيمتها اللحمية⁽⁷⁰⁾.

(2) ويطلق على النوع الثاني اسم يوس براتسيروس (*Bos*
Brachyceros) وهي أبقار صغيرة الحجم وقصيرة القرون ولها أسنة. وعلى
الرغم من قلة لحومها إلا أنها تمتاز بغزارة الألبان مع قلة احتمال نظروف
الجفاف. وهي منحدرة من أصول هندية وتعرف أحياناً بالأبقار الدريانية
وتربي لتقيمتها اللبنية⁽⁷¹⁾.

(3) عرف النوع الثالث باليوس ماكروسيروس (*Bos*
Marcuscerus) وهو
نوع يتطور من النوع الأول طويل القامة وله قرون طويلة وجمجمة متوسطة
الحجم. وقوائم طويلة ورقيقة تناسب مع الترحال إلى المسافات الشاسعة
وذلك يستخدم كمهايا للركوب⁽⁷²⁾.

هناك سؤال هام ظل يطرح منذ مدة طويلة إلا وهو كيف اعتدى الإنسان
إلى تدجين هذه الفصائل ومن ثم ذلك. كان الاعتقاد السائد في السنوات
القليلة الماضية أن أول نوع تم تدجينه هو الأبقار ذات القرون الطويلة ولما
كانت أوروبية الأصل فلا بد أن يكون ذلك قد تم نتيجة لتأثير أوروبي⁽⁷³⁾.
ولكن الدراسات الحديثة قد أثار الشكوك حول هذا الرأي وأنت بافتراضات

جديدة تقول بأنه من الممكن أن يكون استئناس الأبقار قد تم محلياً في الصحراء الكبرى وذلك لأن بيئة الصحراء كانت مواتية للتدجين، كما وأن الأبقار ذات القرون القصيرة الإلثريكية الأصل ربما كانت موجودة في البرية قبل أن يبدأ الإنسان في عملية تدجين الأبقار⁽⁷⁴⁾. وهذا الرأي لا يمنع تأثير الصحراء في تدجين الأبقار بمناطق أخرى وخاصة بالنسبة لفصائل الأبقار التي لم تكن لديها فصائل برية في الصحراء مثل الأبقار ذات القرون الطويلة. وإن وجود أكثر من فصيلة أبقار ربما يكون مؤشراً على أن التدجين في الصحراء قد اعتمد على العنصر المحلي أولاً وفي المقام الأول ثم ولدت إليه بعض الروافد الخارجية. وبذلك تكون ذات القرون القصيرة من فصيلة بومس براثيروس هي أقدم الفصائل الثلاثة تدجيناً بالصحراء⁽⁷⁵⁾.

نجد الأبقار بفصائلها الثلاثة وقد صورت في مختلف الأوضاع. نراها وهي سائرة إلى مراعيها أو عائدة منها. نجدها وهي تسير في اتجاه واحد وحلقها راعي. كما نراها في بعض الأحيان ترعى في قطعان منفردة دون راعي. نشاهد ذلك في إحدى لوحات عين خيرة في جبال العوينات حيث يتوسط اللوحة جبل معقوف القرنين وتحيط به إثاث أبقار بعضها واقف وبعضها سائر وبعضها الآخر في موقف قتالي وليس هناك رعاية⁽⁷⁶⁾. وأحياناً نراها وهي واقفة ويقدم لها الناس الأعلاف كما نرى ذلك في إحدى لوحات وادي أيكي حيث وقفت امرأتان أمام ثور، وقد حملت إحدهما مشعلاً أو نديلاً في كفها الأيمن وتحني كفها الأيسر نحو الثور وكأنها تثر شيئاً من على يدها اليسرى أمام الثور الذي يحني رأسه نحو الأرض وهو يلتقط ما يتساقط من كف المرأة الواقفة أمامه⁽⁷⁷⁾. وإلى جانب ذلك فقد صورت الأبقار فرادى تسير في اطمئنان وأحياناً ترى وهي قلقة مضطربة مثل إحدى أبقار وادي مدخندوش التي صورت بدقة متناهية إذ ترى وهي متحركة وكأنها تخور.

أما صور الأغنام فهي قليلة العدد في جنوب غرب ليبيا ولكنها كثيرة في

جبال العوينات ويبدو أنها ظهرت في الصحراء الليبية في وقت متأخر من مراحل الإنتاج الرعوي. على عكس ما هو مألوف في كثير من المناطق الأخرى. نجد في جبال الأكاموس لوحة لثلاثة أضنام من فئات اللون الغامق الذي تقوسه بقع سوداء وقد رسمت في أسلوب ساكن¹⁸¹ ويبدو من أسلوب رسوماً بأن ذلك قد تم في وقت بدأ فيه أسلوب الفن الصخري يتفاهل قليلاً عما كان عليه قبل عهد الحصان. وإذا ما اتجهنا نحو جبال العوينات نجد أن الأغنام قد صورت هناك في فترة متأخرة بالمقارنة إلى عمر صور الأبقار. براما وقد صورت زرافات ورحلانا. فضلاً عن قطيعاً من الأضنام في إحدى لوحات العوينات الملونة بالبيج والأبيض ويضم أكثر من خمسة عشرة عنزة وثيراً واحداً صغير الحجم له قرنان لوليان ضخمان يشبهان قرون الثيوس الموجودة حالياً في ليبيا¹⁸² أما الأضنام فقد صورت في أحجام مختلفة وبعضها نهي مزدوجة ولودية وبعضها الآخر رسم بدون لحمي. ويصحب القطيع راعيان يشلخان أفضان الأشجار بعضى ريلدمونها كعلاف الأغنام¹⁸³ وأحياناً نجد الأضنام وهي تقف منفردة ترفع دون راعي. مثلاً نرى عنزة بيضاء ملونة اللون تقف على قائمتيها الخلفيتين وهي ترفع من شجرة ويقف بجانبها بين قوائمها. وإلى جانب ذلك فهناك لوحات تصور الأضنام وهي رابضة أو مربوطة داخل حظائر وإلى جانب بعضها أشخاص ربما كانوا يرأولون عملية الحلب.

تجد نسيرت لوحات الصحراء بقلة الخيول. وعلى الرغم من ذلك نرى نجد صوراً للخيول وهي نسير حلينية وأخرى نجر العربات. ففي وادي مدخدوش مثلاً نجد لوحة محفورة لثلاثة خيول وهي نسير منفردة في هضبة وعلى مشربة منها صورة لحصان ربيع يرفع أذنيه إلى الورا. ويحتي رأسه قليلاً وكأنه يتأهب للفرار. كما نجد في نفس الوادي عدداً كبيراً من صرور العربات المحفورة والتي نجرها الخيول. وفي كثير من الأحيان نرى راعي الخيل يركب في وسط العربة وأحياناً يرفع إحدى يديه وكأنه يبحث الجوافين على

السرعة في العدو. وتعلم الخيل في سرعة فائقة تكاد تطير أو تسبح في الهواء وفي أحيان نادرة يحمل الرائض سلاحاً يشبه السيوف المعدنية. ومن النماذج الحية في هذا المجال لوحة في تشوينت حيث لوتت العربية بلون غامق ورسمت الخيول في حركة ركض رائعة يرى فيها الحصان وقد مد الخطم إلى الأمام والقوائم شديدة الاندفاع وظهرت من عجالات العربية واحدة دون الأخرى. ووقف السائس ذو القامة الطويلة والجسد التحيل منحنيًا إلى الأمام مائلاً ذراعيه إلى الأمام ممسكاً اللجام المتصل بخطم الحصان⁽¹⁹⁾.

ومن العجيب ألا نرى الخيول مركوبة بمطلي سهواتها الرجال. أليكون ذلك لأسباب اجتماعية أو متعلقة بالنواحي الدينية؟

صورت الإبل زرافات تسير ضمن قوافل ووحداً ما تهجم بسردها. وقد جاءت صورها أقل مستوى من الناحية الجمالية ومن حيث الاتقان التصويري بالمقارنة مع صور الأبقار والأخنام. صورت الجمال مفرقة كما نشاهد ذلك في وادي سنخندوش حيث نجد جملاً يقف ساكناً وليس عليه أحمال أو أي من عدة الإبل. كما نجد في نفس الوادي صورة لقافلة تسير في مدرج وجمالها محملة بأثقال وتسير متابعة الواحدة تلو الأخرى. ويحدهم الركاب مجازان. كما نشاهد في العوينات قافلة صغيرة مكونة من أربعة جمال يسوقها هجانون يجلس كل منهم خلف منام بعيره ويمسك مهمازاً بإحدى يديه. ونجد الإشارة هنا إلى أن أسلوب الركوب خلف المنام هذا قليل التواتر اليوم في إفريقيا ولكنه موجود في كل من اليمن وفي بلوختان. كما نشاهد قوافل الإبل وهي ساكنة في العوينات وهجانوها خالدين إلى الراحة. وتصاحب بعضها الكلاب⁽²⁰⁾.

نظهر لنا الصور نوعين من الكلاب: أحدهما السلوقي وهو كلب معنّى البدن قوي الصدر نحيف الجوف، طيق الخطم. وله أذنك حادتان ومرفوعتان إلى أعلى وهو سريع العدو ويستخدم كثيراً في الصيد. وثانيهما

نوع يشبه فصائل الكلاب المرجرة البروم بالجسائرية ولعله من فصيلة الكلاب
الذجاج.

تجد الكلاب مألوفة وهي ترافق أصحابها، ولكن في أغلب الأحيان
نجدها وقد صورت في مشاهد صيد الحيوانات كما ذكرنا ذلك في حديثنا عن
لوحه تشويخت السابقة الذكر حيث تساعد الكلاب السلوقية أصحابها في صيد
الودان. أما في العيونات فيعظم الكلاب عن فصيلة الذجاج. وقد ظهرت في
عدد من مشاهد الصيد وخاصة في صيد الكيش المغربي الذي يبدو أنه ينحدر
من دون استخدام الكلاب. ونراها في الغالب الأعم وقد صورت واقفة
وأذنيها معقوفة إلى أعلى. كما نراها مصورة مع القواقل كأن من وظائفها
حراسة الحيوانات. ولكن ليست هناك لوحات تصور الكلاب وهي ترافق
أصحابها في الرعي.

النباتات والمظاهر البيئية الأخرى

لم يهتم الفنانون كثيراً بتصوير النباتات ولا نراها إلا في أعداد قليلة
كشجيرات النخيل التي صورت على مقربة من بعضها البعض في موقع عين
عيسى في جبال الأناكوس. ويعود تاريخها إلى فترة متأخرة ربما لفترة
الحصان. ولعل في وجوه أشجار النخيل دليل على ظهور الواحات. كما
نجد في العيونات مشهداً قريداً صورت فيه ثلاثة شجيرات من السنط بمفردها
ولا توجد على مقربة منها صورة إنسان أو حيوان⁽¹⁸⁵⁾. كما نجد صور أخرى
لشجيرات السنط ترى تحتها الأغنام وفي بعض الأحيان ترى الرعاة وهم
يشلخون فروع الأشجار ويندمونها عنقاً لأغنامهم. وترى أيضاً مسلحون
بأغصان أشجار مورقة من مختلف الفصائل. وفي أحيان نادرة ترى صوراً
محفورة في شكل علامات صغيرة يمكن أن يستتج منها بأنها ترمز لأغصان
نامية فوق الأرض. نراها البهائم ولكن من الصعوبة بمكان تحديد فصائل هذه
الأغصان.

والى جانب الحيوانات والنباتات نجد أن الفنانين قد تطرقوا إلى بعض من الظواهر البيئية الأخرى، فراهم وقد صوروا الأنهار والجبال والأجرام السماوية كالشمس والنجوم والسماء وإن كانت نادرة للغاية.

وإذا ما سأنا أنفسنا على الكيفية التي كانت عليها الصحراء الليبية ويشتها القديمة وقت أن قام الفنانون بإنجاز هذه اللوحات، يمكننا استنباط صورة تقريبية تعيد لنا بطريقة احتمالية الأحياء البيئية للصحراء في القدم.

نظراً لوجود صور للحيرانات المائية مثل الصاسيح، والبرمالية مثل الكركدن وأكنة الأعشاب الضخمة مثل التيات والأفيان والزراف، فيمكننا أن نفترض بأن الصحراء كانت تنعم بمناخ شديد الرطوبة تتوفر فيه الأنهار الجارية والأودية شبه المستديرة الجريان والبحيرات التي يمكن أن تؤدي إلى الحيوانات المائية. والأمطار الكافية التي تساعد على نمو الغلابة النباتية التي توفر لأكلة العشب من الحيوانات الكبيرة ما تكفي حاجتها من الكلأ. وربما كان مناخ تلك الفترة مناخ شديد الشبه بمناخ المسافانا الغنية التي نجده اليوم في شرق أفريقيا حيث توجد حالياً في البرية فصائل حيوانات من نفس فصائل الحيوانات المصورة في اللوحات الصحراوية. وهي تحتاج إلى مناخ لا تقل أمطاره عن 1000 ملمتراً في السنة لتوفر لها ضروريات الحياة.

ولكن يبدو أن هذا المناخ الغني بالخيرات البيئية قد أخذ يضمحل تدريجياً وأعثره كثير من التبدلات بطريقة مستمرة حتى تحولت الصحراء إلى كنان رملية قفر، تخلو من الحياة الشرية والحيوانية إلا في الواحات والأماكن التي تتوفر فيها المياه.

نقد أخذت البحوث الأثرية الحديثة التي أجريت في الصحراء الكبرى هذه الافتراضات البيئية المستقاة من الفن الصخري، فمثلاً تم العثور على بقايا أسماك في جبال الأكاتوس وتم العثور على عظام فرس نهر في الصحراء الجزائرية، كما تم اكتشاف عظام وحيد قرن في أوراريموس⁽¹⁴⁾، وجدت بقايا

هذه الحيوانات المائية والسحبية للماء في طبقات أثرية إلى جانب أدوات حجرية تم تأريخها جميعاً في الفترة ما بين الألف السادس والألف الرابع قبل الميلاد. كل هذه المخلفات الأثرية تشير إلى أن المناخ الصحراوي كان رطب في عصور ما قبل التاريخ كما أفادت الدراسات الجيولوجية بأنه كانت في صحراء اليوم، أنهار جارية طول العام وكانت هناك فروع من هذه الأنهار والأودية تنساب من المرتفعات الصحراوية لتصب في بحيرة تضاوا⁽²⁸⁾. ولكن بمرور الزمن قلت نسبة الأمطار لدرجة جفت معها الأنهار وغاصت البحيرات، وأضحت الغلابة السيئة، وربما أدى ذلك إلى فقدان الناس لحيواناتهم. ودفع الكثير منهم إلى التزوح إلى مواطن الماء ومناجم الكالسيوم من قضي منهم حياة تناسب البيئة الصحراوية الجديدة. استبدلوا حيواناتهم بأخرى تناسب الظروف المناخية الجديدة. فسادت الأغنام والإبل بدلاً من الأبقار التي لم تواكب التبدلات البيئية والتغيرات المناخية التي ألمت بالصحراء فأصبحت فقراً، نجد لكن هذا العهد والصحرة في لوحات الفن الصخري حيث سادت في الفترات المتأخرة منه صور الخيل والإبل. وهي حيوانات يوسعها مقاومة الجفاف وقد ظلت تعيش في الصحراء منذ دخولها إليها وحتى اليوم على الرغم مما أصابها من جفاف وقحط.

ونشاهد آثار عملية التصحر هذه أيضاً في ظهور قصائل الأشجار الصحراوية في الفن الصخري المتأخر. مثلاً نشاهد أشجار النخيل في بعض لوحات الأكادوس مما يدل على ظهور الواحات. ونشاهد صور أشجار السنط في العوينات وذلك شاهد على توطئ الرحف الصحراوي إلى تلك المناطق. بل ونرى صور الرعاة وهم يسلخون فروع الأشجار بعضها خاصة ليؤثروا العلف الإضافي لحيواناتهم وهذا مؤشر على التصحلال في المصادر العلفية للمراعي.

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع الآن أن نربط بطريقة مباشرة بين التحولات البيئية واللوحات الصخرية إلا أننا نلاحظ أن أروع اللوحات الفنية

في أقدما عمراً وخاصة تلك التي أنجزت في وقت كانت فيه صحراء اليوم تتمتع ببحيرات بيئية وفيرة ومناخ غزير المطر. وعلى نقيض ذلك لوحات الفترات المتأخرة حيث اضمحل الفن الصحراوي بطريقة واضحة وانتهت بعض الصور إلى خطوط تجريدية تفتقر إلى كثير من النعسات الفنية الأصيلة. فهل حدث ذلك مواكبة للاضمحلال البيئي؟ وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نجيب على هذا السؤال بطريقة علمية، إلا أنه يمكن أن يتخذ ما حدث مؤشراً على أن الإنسان في هذه الفترة المتأخرة قد اشغل بمواجهة التحديات البيئية التي هي من القضايا التصيرية التي تتعلق بالحياة أو الموت بالبقاء أو الزوال. لذلك أعمل الجانب الفني وتركه يتطور في بطنه مع نهاية الحضارة الصحراوية القديمة. وإن صح زعمنا هذا فإنه يدل على أن الفن أمر جده لصيق بالبيئة. وإن لمظهر من مظاهر الإبداع الحضاري في إحداهما بيتي.

المساكن والأمتعة والهدنة

يبدو أن المساكن كانت مستديرة الشكل وقد بنيت من أعصان الأشجار ومن الأخشاب ولها الغالب ما تكون في شكل أكوام وإن كنا نجد عندنا من المساكن عبارة عن واقبات للرابع غير مكتملة الاستدارة خاصة في جبال العيونات⁽¹⁾. وبعض الأبنية تبدو في شكل حظائر لا سقف لها كان يسكنها الإنسان والحيوان في آن واحد.

ويتكون أثاث المنازل من المصنوعات الخشبية التي يسهل التنقل بها عن مكان لآخر منها الجلدية مثل الحفائب والقرب والجراب، ومنها أوعية مصنوعة من صنف النخيل المصفور. ومعظم هذه الأنواع تراها معلقة على الجدران أو محمولة فوق ظهور الحيوانات. وهي تشبه لحده كبير الأوعية التي تستعملها القبائل الرحوية الصحراوية اليوم مثل التبو. ويمكننا أن نستج من كل ذلك أن الأقوام الذين أنجزوا النوحات الصحراوية كانوا يتنقلون إلى

مجتمعات رعوية ربما كانت تمثل غالبية سكان الصحراء. وخاصة وأن الرعي يمثل الجانب الأكبر من الموضوعات التي تطرق إليها الفنانون. وإن أكثر مناطق الاستيطان البشري ثراء بالفن الصخري هي مناطق الرعاة. وعلى نقيض ذلك فإن مناطق استيطان الفئات الأخرى من غير الرعاة مثل صائدي الأسماك وصائدي الحيوانات البرية تكاد تخلو من اللوحات الصخرية أو بها عدد قليل جداً منها.

صور الفنانون الآدميين عراة في بداية عهدهم بالفن الصخري. ولكن بمرور الزمن تدرجوا في استخدام الأزياء حتى توصلوا إلى تصويرهم وهم يرتدون أزياء راقية عليها مسحة من الأبيهة والجمال. فهناك من يرتدي الملابس البسيطة المصنوعة من جلود الحيوانات مثل جلود الأيوة. ومنها أغطية بسيطة ترتدي بين الفخذين تشد بأحزمة. ويمكن أن نطلق على هذا النوع اسم القنب (حجاب العورة) ومنها ما يستر صدر النساء. وأحياناً يضعن على رؤسهن ما يحافظ على تصفيف شعورهن. وهناك نوع من القنب يشترك في ارتدائه الرجال والنساء وهو عبارة عن قطعة من الجلد فصل إلى شرائح متصلة ببعضها بعضاً ثم لف حول الخصر على هيئة التنورة. تطور هذا النوع من اللباس عند النساء. وصار أكثر طولاً وتدلّى إلى أسفل ليغطي ركبي المرأة. ثم تطور مرة أخرى إلى لستان يغطي جسد المرأة بأكمله وتدلّى منه أكتاف طويلة أحياناً^(١٨). كان بعض هذه الثياب شفافاً وبعضها الآخر كان محلى بالألوان والزخارف. وقد زين جيد المرأة بأطواق وحقود وقلائد وبعض النسوة قد طوئن معاصمهن بأساور وكان لبعضهن أغطية رأس ملونة.

أما بالنسبة للرجال فقد تطور القنب إلى سروال صغير ثم إلى عباءة أو رداء طويل يغطي معظم الجسم. كما كانوا يستخدمون أنواعاً متعددة من تسريحات الرأس أو أغطية الرأس منها البسيط ذو الخطوط الرفيعة ومنها ما كان على هيئة قرون الحيوانات تثبت فوق الرأس. ولقد ظهرت بعض الشخصيات وعليها زوائد ذئبية تتلوى من الظهور. ونرى في إحدى اللوحات

صورة لرجل يضع فوق رأسه شكلاً بيضاوياً مشابهاً في خمسة ريشات ويرتدي رداء طويلاً. ويعتقد أريك بيتس بأن مثل هذا الرجل ربما كان رئيساً لقبوم ولكن لعدم وجود الكتابات المدونة فإننا نجهل اسمه واسم القوم الذي ينزعمهم. وقد ذهب محمد مصطفى بإزامة إلى نفس الرأي⁽⁸⁸⁾.

ويمكننا أن نتخذ من الأزياء - بصفة عامة - مؤشراً قد يدل على مكانة الأشخاص الاجتماعية والاقتصادية. فالأزياء المنمقة والتي تكسي الجسد بطريقة وافية ربما كانت ترتديها شخصيات ثرية من ذوي المكانة الاجتماعية الرفيعة. والأزياء البسيطة أو التي لا تغطي الجسد (تتركه شبه عاري) ربما ترمز إلى فقر الذين يرتدونها من ذوي المكانة المنخفضة.

ولقد استخدم سكان الصحراء عدد من الأسلحة من أهمها السهام، والأقواس، وأصصان الأشجار، والمجاديع والعصي والهراوات المسقوفة والسيوف والرماح. وربما استخدموا التروس كأسلحة دفاعية. كما عرفوا أساليب مختلفة لصيد الحيوانات منها نصب الأفخاخ فوق سطح الأرض أو حفرها. واستخدام الحبال والشباك. كما كان بعض الصيادين يستخدم أنظمة رأس من رقوم من بعض الحيوانات وذلك لتسمويه بقصد خداع القرائس. ونرى البعض يستخدم أكثر من سلاح في وقت واحد. كما نشاهد ذلك في إحدى لوحات المزيينات حيث يظهر صياد مبيته في وجه زرافة محاولاً عبدها من الخورب ويستدرجها نحو الفخج. كما نراهم يستخدمون العهاز لصيد الحيوانات الأليفة على السيل⁽⁸⁹⁾.

يمكن تمييز عدداً قليلاً من عنبة الحيوانات في اللوحات الصحراوية. ومن أهمها الحبال التي تستخدم كمقارود للحيوانات أو لربطها في أوتاد، وأحياناً نجد فروق الحيوانات مزينة بأقراص وعلى أهدانها ما يشبه الأجراس. أما الخيول فلها حجم ربما يكون بعضها أعنة حديد خاصة بالنسبة للخيون التي تنجر العربات ذات العجلات. ونرى على بعض الجمال مروج موضوعة فوق

الأسنمة. ومن الأمثلة النادرة لعدة الحيرانات عدة لثور يعطي صهوته شخص واحد. ويشير الجزء الواضح منها بأنها تتكون من لبنة ذات جزئين مسنونة بخطوط متعاكسة من الخشب موضوعة فوق كاهل الثور. ويبدأ من الجزء الأعلى بلب يمتد حتى يفرق عنق الثور. ولي المؤخرة قطعة تغطي الفخذين وتتدلى تحت الذنب¹⁹⁰.

جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية

تشير هذه اللوحات إلى أنه كانت تظن في جنوب ليبيا شعوب بدوية تتكون من خليط من الأقوام ذوي أعراق متعددة (بيض وزنوج وخلص) في مجتمع مستقر لحد كبير تقوم دعائمه على نظم سياسي قوي يتشرف مع البشر وأحوالهم الاجتماعية. وربما كان يحكم المنطقة مجموعة من رؤساء القبائل لكل منهم سلطاته المباشرة في قومه. أما فيما يتعلق بالقضايا العامة التي تخص كل المجموعات فربما كان لديهم مجلس لتصريف الأمور العامة التي تهم الجميع مثل المنازعات بين القبائل، أو مواجهة الأعداء الخارجيين ولكن مثل هذا المجلس يكون محدود السلطات. وفي الغالب لا يعدو أن يكون اتحاد قبلي فضفاض.

أما هوية هذه الشعوب الصحراوية فهي مجهولة لدينا تماماً فلا نعرف أسماءها ولا أسماء الشخصيات البارزة فيها. غير أننا نرى فيها كثير من الخصائص التي تميزت بها شعوب رعوية أخرى كانت تسكن الصحراء الليبية على عهد القراعنة. وعلى وجه التحديد شعبي التحنو (من المجموعات الزنوجية) والتحمو (من المجموعات البيضاء)¹⁹¹. كان أفراد هذين الشعبين يرتدون أزياء شديدة الشبه بأزياء الأقوام المصوريين في اللوحات الصحراوية مثل المآثر التي تتدلى من أطرافها أشرطة وتكون أحياناً مزينة والتشب. كما يرتدي بعضهم أرباشاً على رأسه. كل هذه العناصر الثقافية المشتركة تجعلنا

نعتقد بأن جميع هذه الشعوب قد تنتمي إلى حضارة واحدة، ولكن هل كانت هناك علاقات عرقية بينها جميعاً أو بين بعض منها؟ وإن كان الأمر كذلك فما هي علاقة هذه الشعوب بشعب الجرمنات الذي خلف لنا حضارة رائعة سادت في جنوب غرب ليبيا منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى القرون الأولى الميلادية. سنقتل قل هذه الأمثلة حائرة إلى حين ظهور معلومات أثرية تفيد بسلام أسرارها وتعيظ الكرم عن غموضها.

أما عن الصعيد القبلي فيبدو أن هناك هرم سياسي متعدد الوظائف على رأسه زعيم القبيلة والشخصيات القيادية المسؤولة عن تنظيم المجتمع وتوزيع ثرواته وتوفير الأمن في حالتي الحرب والسلام وربما كانت تساعد في ذلك مجموعة من القادة العسكريين وحنودهم، ثم تأتي جماعة الحرفيين الذين يزاولون الوظائف المتخصصة مثل الرعاة ومصنفي الشعر وماسة الحيل. ثم يأتي بعد ذلك السواد الأعظم من السكان.

وفي هذا الإطار الاجتماعي المنظم يتبوأ الفنانون مكانة سامية. إذ يبدو أنهم كانوا - كما يدل شكل اللوحات ومضمونها - نخبة من المثقفين عكسوا مظاهر مجتمعاتهم الثقافية والبشرية بمرور معبرة وكانوا على وعي وإدراك تامين بأسس الفن الطبيعي ومبادئه. كما يتجلى ذلك في قدرتهم على التصوير الحسنى ذي الأبعاد الدقيقة. كما كانوا على دراية بمتطلبات الفن الصخري من أدوات الحفر والتلوين وتركيب الأصباغ بطرق كيميائية من مواد صاعدة للحاء ومقاومة للتلف مما جعلها تبقى ثابتة إلى يومنا هذا.

إن كثرة هذه اللوحات ونظرفها لهذه الأبعاد الهائلة من الموضوعات السعائية الفترات يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه كان لهذه المجتمعات فوق فني ريع يتأثر بالتعبير الفني الجميل ويجد متعة في مشاهدة اللوحات الرائعة. وإلا لما عمد الفنانون إلى القيام بهذه الأعمال المدهشة إن لم تكن مقبولة ومصححة عند أفراد مجتمعاتهم. ولذلك فإننا لا نستبعد أن يكون لنا في التاريخ

لم يلبثوا كانوا يقدرون العصر الجمالي في الفن. وربما رسموا بعض اللوحات من أجل غايات نية. ولا نجد لرأي هنري لوت الذي ينفي وجود الفن من أجل الفن قبل الفترة التاريخية مبرراً يستند على أي منطلق علمي¹⁹². بل على نقيض ذلك فإننا نؤيد رأي زيريو الذي يقول فيه «لا يستبعد الدافع الجمالي أيضاً في هذه القضية بالذات. وفي الواقع بما أننا نعد رجال وساء العصر الحجري الأثري الحديث من نوع الإنسان العارف مثلاً، فإننا لا نستطيع أن نحرمهم من الشعور الخاص الذي يعتمنا. وهو الرغبة في خلق الأشكال بنية التمتع بتأملها لا غير. أن الإعجاب الذي نشعر به اليوم أمام هذا الخلق كان أشد عندما كانت اللوحات حديثة وعندما كانت نماذجها تتوافر بالبيئة المحيطة بها»¹⁹³.

تكلم هذه التزييا، يرى موري بأن الفن الصخري كان يمثل إحدى الوسائل الرمزية لنقل الأفكار بين الناس في فترة من فترات تاريخ البشرية. ويعتبره الأقدم من الأول لغة المكتوبة¹⁹⁴. وعلى الرغم من أهمية رأي موري هذا إلا أننا للأسف الشديد نجعل الدلالات الصوتية لهذه الرموز التصويرية هذا بالرغم من أننا نجد إلى جانب اللوحات الصخرية المتأخرة نصوص مكتوبة بحروف التيفيناغ القديمة وهي أيضاً مجهزة الدلالات الصوتية. وعلاقتها بلغة تاماهاق الحديثة غير معروفة.

يؤيد ديفيس رأي موري هذا إلى حد ما ويرى بأن محطات الفن الصخري ربما كانت أماكن بيت بعض المعلومات الهامة إلى أفراد المجتمع عن طريق التعبير التصويري¹⁹⁵. وكان أفراد المجتمع يفهمون الدلالات التي يرمي إليها الفنانون الذين أنجزوا اللوحات. أي أن الصور كانت تحمل رموزاً خاصة لأعضاء ذلك المجتمع. وأن المحطات كانت بمثابة المنابر الإعلامية التي بيت منها المناسبات الفردية والجماعية في عصرنا هذا.

ويرى كمي زيريو بأن فناني الصحراء كانوا مؤرخي مجتمعاتهم لمثل تلك

لشدة وانهم كانوا يخلدون الأحداث الفردية أو الجماعية بل يعتبرهم المؤرخين الأفاقة الأوائل. ويعزو ذلك إلى «أنهم مثلوا لنا - بأبلغ عبارة - الحالات المتخافتة التي اعترت أناس ما قبل التاريخ في علاقتهم مع الوسط البني والاجتماعي»⁽¹⁹⁰⁾.

يمثل الفن الصخري عنصراً اجتماعياً هاماً يربط بين أفراد المجتمع ثقافياً وديناً. فمثلاً يرى هنري لوت بأن الباحث الأساسي لعيلاد الفن هو نزعة دينية وأن الأماكن التي أنجز فيها هذا الفن أماكن مقدمة كان يرندها الناس لأداء الطقوس الدينية⁽¹⁹¹⁾ ويؤيده شرفيشيك في ذلك ذكراً أن الفن الصخري في أصله وفي كثير من مظاهره المميزة ذو طابع ديني⁽¹⁹²⁾. ويؤكد ذلك لو كوليك في أحدث دراساته⁽¹⁹³⁾.

وإذا ما حاولنا تطبيق النهج التفسيري الذي اتبعه ميلارز في تأويل بعض مظاهر الفن الصخري في أوروبا⁽¹⁹⁴⁾. فيمكننا أن نقول بأن بعض مراكز الفن الصخري في الصحراء الليبية ربما كانت مراكز عقائدية هامة تقام فيها طقوس واجتماعات دينية عظيمة يؤمها حشد من الناس سنوياً. أو ربما كان إنتاج فن الصخري في الصحراء حكراً على بعض القادة الذين كانوا يستغلون الفن والاحتفالات التي تقام في مواقع لتعزير سلطاتهم وأصناف الشرعية عليها. ويمكن أن نعزز قول ميلارز هذا بأمثلة من إفريقيا جنوب الصحراء حيث تتخذ مواقع الفن أماكنًا للتعبد والمناسبات الدينية. وبك بعض المفاهيم السابقة⁽¹⁹⁵⁾.

ليس من السهل استنتاج المعتقدات السببية القديمة من اللوحات الصخرية دون أن تصاحبها نقوش مكتوبة يمكن فك رموزها. ولذلك يمار الباحثون موضوعاً متشعباً أكثر فيه الجدال ونحاض فيه الباحثون. ولكن من الآراء المقبولة رأي محمد مصطفى بإزامة لأنه يتفق إلى حد كبير مع طبيعة المعتقدات الدينية عند كثير من الأمم القديمة. يصف بإزامة معتقدات سكان

الصحراء البلية القديمة التي تعكسها اللوحات الصخرية بأنها كانت تسمم
بالتسمم أو السداحة لأنهم كانوا يعتقدون في عبادة الأشياء المحسوسة مثل
الحيوانات أو القوى المجددة في تلك الحيوانات (مثل الثعابين). لذلك نرى
الأشخاص يركعون في غشوح أسم الحيوانات الوحشية أو يرقصون أمامها
واقفين أيديهم نحو السماء نضرباً. كما كانوا لا يعرفون فكرة التنزيه بل يرون
بأن الإله صلة مباشرة بالإنسان. ولذلك كانوا يرمزون لهذه الصلة بتصوير
الإله في شكل كائن يتكون من جسد إنسان وحيوان في آن واحد. وكما كانوا
يعتقدون في فكرة التسلسل بين الإله والبشر⁽¹⁰²⁾. ولذلك صوروا الحيوانات
المؤلفة من نوع نساء آدميات وأحياناً يتم ذلك على مشهد من الناس في جو
تقدم فيه الثعابين ويرى موري بأن مثل هذه اللوحات تعكس أفكاراً تبينة بتحد
فيها الحب الجنسي مع عنصر الشعوذة أو قد يكون لها علاقة بعبادة
الإخصاب⁽¹⁰³⁾.

ترى اللوحات الصخرية أن سكان الصحراء قد استفادوا خيرتهم
لطبيعة بطريقة فعالة. نشاهد ذلك في استفادتهم من الثروة النباتية
كالأخشاب التي كانوا يستعملونها في الأسلحة وفي السباتي كما استفادوا
لحاء الأشجار في صناعة الأوعية. وبعض الأوتى المضطربة ربما تكون قد
صنعت من زحف النخيل. ولكن للأسف الشديد لا نرى دليلاً واضحاً للإنتاج
الزراعي في هذه اللوحات الصخرية مما يدل على أن الزراعة لم تكن من
مصادر الاقتصاد الهامة. وربما أنها لم تعتل بالتصوير لأنها ربما كانت من
الحرف المصنعة التي يرفع عن تصويرها الفنانون في محيط رعوي.

ولكن يبدو أن الإنتاج الحيواني كان عصب الاقتصاد الصحراوي
وذلك جسد الفنانين العلاقة بين الإنسان والحيوان في أعداد هائلة من
الصور. كان اهتمامهم مركزاً على الصيد في الفترة المسكرة من مزاولة الإنسان
للفن الصخري وذلك عند الفنانين في تصوير العلاقة بين الإنسان والحيوان
بصورة عشائية تنبع عن التوحش والخوف ولم يكن يستفيد منها إلا بعد موته.

ولكن سرور الزمن أخذ الإنسان يفكر في الاستفادة منها وهي حية. ولذلك حاول ترويض بعض الحيوانات مهياً لها للتدجين. فمثلاً نراه يصطاد الحيوانات البرية وهي على قيد الحياة (على الرغم من مقاومتها لذلك) ليضعها في محاجر بهدف تدجينها أو يحتفظ بها حية لتوفير مؤنة غذائية في وقت لاحق. يمكن استنتاج ذلك من صور النعام والذراف (وهي حيوانات مطيحتها طليقة في البرية) المربوطة في أحمدة أو مركوبة. أو واقفة يقدم لها نصف.

ويعد أن تم استئناس الحيوان تغيرت علاقاته مع الإنسان من عدائية إلى علاقة حد حبيبة للدرجة أنه سكن مع بعضها في مأوى واحد وحمل صغارها على اكتافه أدت هذه العلاقات الجديدة إلى فتح قنوات اقتصادية جديدة وهدت الإنسان الفرصة للتعرف على خصائص الحيوانات الأليفة وميزاتها.

واستفاد منها في أشياء لم تكن متاحة له من قبل مثل استدرار الحليب وإنتاج الألبان. وطقق يختار من الأبقار ما كان أكثرها إنتاجاً للحليب مثل ذوات القرون القصيرة وركز على تربيتها كما تشهد بذلك عدد من اللوحات. وفي فترة لاحقة وركز على إناث الأغنام مع التخلي عن تصوير الذكور وأبرز الفنانون ضروب الأغنام بطريقة مهالغ فيها مما يوحي بأن الاهتمام كان منصباً على إنتاج الألبان. ثم تصور الانتصاف الرعوي في المراحل المتأخرة بإبتكار عملية الرعي المنتعبد التي نرى فيها أكثر من فصيلة حيرانية في قطع واحد. كما نشاهد ذلك في العوينات حيث عمد الرعاة إلى الخلط بين الأبقار والأغنام في قطع موحد. ومن جهة أخرى اتخذ الحيوانات كوسائل للمواصلات فاختار من الأبقار ذات الأظلاف العريضة المزهلة لقطع مسافات طويلة واستعملها في الترحال. كما استفاد من الخيول المركوبة والتي تجر العربات في نفس الصدد. وعندما ظهرت الإبل نراه قد استخدمها في حمل الأثقال والسفر إلى مسافات بعيدة. ولعل صور القوافل المتحركة وعملها الأثقال تحمل قوافل تجارية تحمل السلع التجارية من الصحراء إليها ونظراً

لما نها من مقدرة فائقة على تحمل مشاق السفر في البيئة الصحراوية فربما يكون سببها إلى هذه المناطق قد فتح آفاقاً تجارية أكثر بعداً من ذي قبل ومكنت الشعوب الصحراوية من بلوغ بعض المناطق داخل إفريقيا ما كان يسيل عليهم الوصول إليها قبل استخدام الإبل.

حازن بعض الكتاب الربط بين توغل الشعوب الصحراوية داخل القارة الإفريقية وبين لوحات الفن الصحراوي التي تعود إلى عصري الحضان والجميل، فوجد أن هناك عدداً من المواقع التي تصور الخيول والإبل في المنطقة المعتدة بين خليج سوت وحوض نهر النيجر اشتهرت هذه المواقع محطات تجارية كانت تير من مدن ساحل المتوسط إلى إفريقيا جنوب الصحراء ومنها إلى تلك المدن.

ربما كانت تصحب هذه الحركة التجارية هجرات بشرية ومآثرات ثقافية. ويرون بأنه ربما كان للجرمانيين دوراً في هذه التجارة وفي تأمين طرقها وذلك لأن المصادر التاريخية قد ذكرت بأنهم كانوا يمتلكون العربات التي تجرهم الخيول ويأسرون جيرانهم ويسترقونهم¹⁰⁸ ويعزز من هذه الإشارات التاريخية اكتشاف نقاش في عدد من المواقع الأثرية العالدة إلى فترة الجرمانيين وذلك في جبال الأندكوس معقل الفن الصحراوي. مما قاد إلى الاعتقاد بأن هذه المواقع كانت هي الأصل نقاش جرمانية لحماية القوافل التجارية وتأمين مسيرتها¹⁰⁹.

الخلاصة

استطاع القاتلون - من خلال لوحاتهم الصخرية - أن يعيروا عن ما في حلقات نفوسهم وأن يثوا عواطفهم، ومعتقداتهم الدينية. وأن يصوروا بينهم الاجتماعية والطبيعية ونشاطهم الاقتصادي في روعة رنقة، وهذا يجعل من الفن الصخري سجلاً حافلاً بالتيارات الثقافية والفكرية التي كانت سائدة بين فئتي الصحراء الليبية عبر القرون. ومن ثم لم تكن وليقة عامة للثقافة بالنسبة للدراسات الأثرية. تنضي بمعلومات ثرة ظمما يمكن أن يتحصل عليها الباحثون من أي نوع آخر من أنواع المخططات الأثرية من دون الفن الصخري. وغير دليل على دور الفن الصخري في توثيق المعلومات وتخيل العلم إلى حد اكتسب به صفة الترمزية أن المنح الرعبي لم يجد ما أكثر ثباتاً من نقش على الحجر ليحل به العلم في الصخر «فيجري القول: العلم في الصخر كالنقش على الحجر».

ومن جهة أخرى لم تكن جانب المتعة الذاتية التي يمكن أن يجدها الباحث في مجال الفنون الجدارية، فيمكن لمجتمعاتنا الحاضرة أن تستفيد منها في عدد من المجالات. يمكن أن نستفيد منها في مجال التراكيب الكيميائية للألوان والأصباغ وذلك بتحويل حبات ألوان التروحات التي قارمت تلفد والاستفادة منها في تركيب هيدرات محبباً من معطيات محبة كما يمكن أن يستفاد من هذا الصرب من الفنون في تفهم بعض المشاكل اليتية المعاصرة وربما كيفية مواجهتها. فضلاً ترميز دراستنا الفن الصخري من وعينا

بالتحولات البيئية القديمة التي قد تساعد في إيجاد بعض الحلول للمساكن البيئية التي يتضرر منها سكان الصحراء الحاليين. كأن نتخذ الفن الصخري منطلقاً للبحث في الأسباب التي أدت إلى عمودية التصحر هل هي عوامل بيئية قلت نعلم منذ آلاف السنين؟ أم هي عوامل بشرية تسبب فيها الإنسان؟ فإن كانت الأخيرة أمكن تفاديها بتوعية الإنسان ومنعه من تدمير البيئة الطبيعية. وأن كانت لأسباب طبيعية فيمكن إعداد الأساليب المناسبة لمواجهةها حتى لا تتحول المناطق المخضرة إلى صحاري قفر. كما رأنا يمكن أن نتعرف على كثير من المعتقدات البيئية لبعض المجتمعات الإنريكية المعاصرة والتي تشابه نمط حياتهم حياة الأقوام المصورة في اللوحات الصخرية. أو على الأقل يمكننا استقصاء جذور هذه المعتقدات تاريخياً.

ومن ثم يمكننا تسخير العاظمي في خدمة الحاضر. وبذلك يكون دور التاريخ مستمر في حياتنا متتابعة منذ بداية البشرية وحتى نهايتها ويكون اليوم مستنير الأمل وعاظمي القدر.

الهوامش والتعليقات

1 - انظر :

Mellars P. Upper Palaeolithic Revolution. In Cunliffe B. The Oxford Illustrated History of Europe. Oxford 1994 P. 68.

2 - انظر :

Renfrew C. & Bahn P. Archaeology: Theory and practice Thames and Hudson. London 1991 PP. 38 - 39.

3 - انظر :

Smith Ph. Problems and Possibilities of the Rock arts of North Africa. African Historical Studies 1, 1, 1968 P. 23.

4 - انظر زيرير . كي .ج . الفن الإفريقي فيما قبل التاريخ . في كتاب تاريخ إفريقيا لعام . المنهجية وعصر ما قبل التاريخ المجلد الأول . منشورات ليرنكو باريس 1980 ص 678 ثم انظر الهامش 11 في نفس الصفحة .

5 - انظر الخريطة رقم (1) .

6 - انظر رسالة ليرنكو قائلة تراثنا العلمي ص 38 .

7 - انظر الخريطة رقم (2) .

Smith Ph. 1968 Ibid p 23.

8 - انظر :

9 - انظر :

Sartre H. Reisen Und Entdeckungen in Nord und Central Afrika. Götta 1857.

Ducovier, H. Les Touaregs du Nord Paris 1964.

وانظر أيضاً:

وانظر أيضاً:

Nathrigal, G. Sahara Und Sudan Leipzig 1879.

(Trans. Fisher and Fisher) Vols. I & II London 1971.

10 - انظر:

Zollo, Sculture Libiche nel Fezzan. Rivista della Colonia Italiana. T. 3
1921

ونظر أيضاً:

Graziosi, Pitture del Fezzan. In Fezzan. Opus di Olses 19 - Roma
1937

وانظر أيضاً لنفس الكتاب:

Arte rupestre della Libia Napoli 1941.

11 - انظر:

Baker, G. W. From Classification to Interpretation: Libyan Prehistory
1969 - 1989. Libyan Studies 1989 PP. 31 - 43

وانظر أيضاً:

Mon P. Tadrat Acacus. Arts Rupestres Culture del Sahara Prehistorien.
Tunis Birkadi 1965.

انظر نسخة العربية لهذا الكتاب: موري، ف. (ترجمة جبر الجورني والولا
الكبيرزي) ندرات الأكازوس: الفن الصخري وثقافة الصحراء قبل التاريخ -
مشتورات مركز جهاد اليبين ضد الغزو الإيطالي. طرابلس 1985. وهناك
أيضاً مقالان مترجمتان إلى العربية لنفس الكتاب: موري، ف. (ترجمة
مكايل محرز وحماد الدين خاتم) حول تاريخ رسوم الصحراء في الصحراء
الكبرى. في كتاب الصحراء الكبرى، إعداد عماد الدين خانة مشتورات
مركز جهاد اليبين. طرابلس 1979 م ص 157 - 166. ثم موري، ف.:
الفن الصخري في الصحراء الليبية نتاج عملية بيولوجية
تقادية حيوية الأمد إعداد ليونكو بيك 1980 ص 163 - 169. ثم انظر
ما كتبه معدونه بارشر:

Berich, B. Archaeology and Environment in the Libyan Sahara
Excavation at Tadrat Acacus 1974 - 1981. I.A.R. De Fez 1987

وانظر أيضاً:

Darich. B. Rock Art and Archaeological context in the Case of Tadrat
Aacus Libya. Libyan Studies 21, 1990 PP. 1 - 17.

وانظر أيضاً:

Van Naten P. Rock art of the Jebel Uweinat Giza 1978.

لقد قمت بترجمة هذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان الفن الصخري في
جبال العوينات، وهو الآن تحت الطبع.

ثم انظر:

Le Quielic. J. L'art rupestre du Fezzan septentrional (Libye) B. A. R.
Oxford 1967.

وأخيراً انظر:

Musulini A. L'art rupestre Préhistorique des massifs centraux
Sahariens B.A.R. Oxford 1986.

72 - إليك أسماء بعض المؤلفين الذين كتبوا بالعربية في هذا المجال:

(1) بلازمة: محمد مصطفى: تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ، بنغازي
1973.

(2) البرغوثي: عبداللطيف محمد: التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور
حتى الفتح الإسلامي - منشورات الجامعة الليبية دار حياض 1971.

(3) اعتاق جمعة: من أفاق الثقافة الليبية: مصلحة الآثار، ط.

(4) شرف عبدالسلام. رسوم الكهوف ونقوش الصخور في الصحراء:
مجلة الثقافة العربية العدد الخامس السنة الثانية عشرة 1985 ص 51

84 - 103.

(5) موسى إبراهيم: آثار ما قبل التاريخ ودورها في تنمية المجتمعات
العاصرة مجلة الدراسات التاريخية تحت الطبع.

13 - انظر: موري (ترجمة الباروني والكمازي) المصدر السابق ص 51 وأيضاً
اللوحة رقم (1) وانظر أيضاً الصورة رقم 1 و 2 المرفقة بالمحضر.

14 - انظر موري نفس المصدر اللوحة رقم 2.

Bark H. 1857. Ibid.

15 - انظر:

Grassini. P. 1937 Ibid. PP. 216 - 265.

16 - انظر:

17 - انظر موري في (ترجمة الباروني والكمازي) المصدر السابق ص 240.

- 18 - انظر موري في (ترجمة ميكايل محرز وعماد الدين خانم) المصدر السابق ص 157.
- 19 - L'Hôte, H. Sur les rapports entre les Côtes d'art Préhistorique d'Europe (Provence France - Cambrique et levant espagnol) et celle du Sahara. In prehistoric art of Western Mediterranean and the Sahara. Percot, L. and Ripoll, B. New York 1964 PP. 215 - 224.
- 20 - انظر : Smith Ph. 1968 Ibid PP. 14 - 15.
- 21 - انظر : L'Hôte, H. 1964 Ibid. P. 216.
- 22 - انظر : Smith Ph. 1968 Ibid P. 14.
- 23 - انظر : Smith Ph. 1968 Ibid P. 16.
- 24 - انظر : Smith Ph. 1968 Ibid P. 16.
- 25 - انظر بزيارة محمد مصطفى المصدر السابق من ص 245 - 249.
- 26 - انظر لوت هنري (ترجمة ميكايل محرز وعماد الدين خانم) الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى. في كتاب الصحراء الكبرى المصدر السابق ص 81.
- 27 - انظر غير فينيك (ترجمة ميكايل محرز وعماد الدين خانم) الرسوم الصخرية في مصر العليا. في كتاب الصحراء الكبرى المصدر السابق من ص 108-113.
- 28 - انظر موري 1988، المصدر السابق ص 115.
- 29 - انظر نسيفرت. هـ (ترجمة محرز وخانم) حضارات العصر الحجري القديم في الصحراء الكبرى. في كتاب الصحراء الكبرى المصدر السابق من ص 43 - 56.
- 30 - يبدو أن الأبقار كانت أولى الحيوانات التي تم استئناسها في الصحراء الغربية وذلك على نقيض ما حدث في الساحل الليبي حين تشير الأدلة الأثرية على أن الأبقار كانت أول الحيوانات التي تم تدجينها (انظر : Mahoney, Ch. Libyan Role In Prehistory. In Gadallah, F.F. (ed) Libya in History. Benghazi 1968 PP. 1 - 30).
- ولكن من الصعوبة بمكان تحديد الكيفية التي نمت بها هذه العملية. وهل هي مسألة محلية أم وولدت من الخارج. لقد كان الاعتقاد السائد في

سنوات القليلة الماضية إن العملية قد وفدت إلى الصحراء من المشرق العربي وربما كان ذلك عن طريق وادي النيل. أو أن ذلك قد جاء عن طريق أوروبا التي يرجع إليها أصل الأبقار ذات القرون الطويلة والتي يعتقد أنها كانت أولى فصائل البقرات التي وجدت في الصحراء. ولكن الدراسات الحديثة قد أثارت شكوك في الآراء القديمة وجاءت بالبراهين الجديدة تشير إلى احتمال حدوث هذه العملية محلياً في الصحراء وذلك لأن الظروف البيئية هناك قد ممت بصفي الأطوار التي أدت إلى انتاج إنتاج طعام في مناطق أخرى وأنه يوجد بالمنطقة أصناف بوية من الأبقار ذات القرون القصيرة في الفترة السابقة لإنتاج الطعام؛ مما يجعل عملية استئناسها محلياً أكثر ترجيحاً. ولكن هذا الرأي لا يمنع احتمال تأثر الصحراء في عملية استئناس الحيوانات بمناطق أخرى ولو بطريقة جزئية، وخاصة فيما يتعلق بالفصائل الحيوانية التي ليس لديها أدلة بوية في الصحراء ولكنها موجودة ضمن الحيوانات المصورة في الرسوم الجدارية مثل الأبقار طويلة القرون ذات الأصل الأوروبي، والضأن الذي يعود أصله إلى آسيا وقد يكون ذلك قد تم في وقت لاحق.

31 - نظر موري (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق ص 57 - 59.

وانظر أيضاً:

Micrénai, A. Extension Géographique des (Totaux Bovins) Au Sahara in Préhistoire et Ethnologie 1978.

32 - نظر موري (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق ص 128 لوحة 84.

33 - نظر موري (ترجمة الباروني والكعبازي) نفس المصدر ص 56.

34 - نظر موري (ترجمة الباروني والكعبازي) نفس المصدر نفس الصفحة.

وانظر أيضاً:

Stall, Pl. 1968 Ibid 21 - 24.

35 - نظر موري (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق ص 56 - 57.

36 - نظر: Van Nieuwen, P. 1978. Ibid Fig. 171 and 183.

- 37 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) 1988 المصدر السابق
ص 174 شكل 76.
- 38 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) نفس المصدر ص 190
الشكلين 110 و 111.
- 39 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) نفس المصدر ص 184 شكل
80.
- 40 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) نفس المصدر ص 79.
- 41 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) ص 196 شكل 104.
- 42 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) ص 191 شكل 47.
- 43 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) 194 والشكلين 102
و 103.
- 44 - انظر: Van Noten, F. 1978 Ibid Figs. 221 & 225.
- 45 - انظر: Van Noten, F. 1978 Ibid Figs. 10, 13, 14, 42.
- 46 - انظر: Van Noten, F. 1978 Ibid Figs. 181.
- 47 - انظر: Van Noten, F. 1978 Ibid Figs. 190.
- 48 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق ص 185
شكل 69.
وانظر أيضاً بازامة محمد مصطفى: المصدر السابق ص 144.
وانظر أيضاً الصورة رقم 3 المرفقة بالملحق.
- 49 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق ص 183.
وانظر أيضاً الصورة رقم 4 المرفقة بالملحق.
- 50 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) نفس المصدر ص 204 شكل
118.
- 51 - انظر: Van Noten, F. 1978 Ibid Fig. 160.
- 52 - انظر موري، ف (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق ص 213
شكل 6.
- 53 - انظر: Van Noten, F. 1978 Ibid Fig. 124.

- 54 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق 196 شكل 105.
- 55 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق من 50.
- 56 - انظر:
- Mazzolini. A. Proposals for Updating the Rock - drawing Sequence of the Acaens (Libya) Libyan Studies 22 1991 PP.15 - 17.
- 57 - انظر:
- Graziosi. P. 1962. Ibid. 54.
- 58 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق من 69.
- 59 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) نفس المصدر من 89 شكلين 54 و 55.
- وانظر أيضاً الصورة رقم 5 المرفقة بالملحق.
- 60 - انظر زيروني ج المصدر السابق في كتاب أفريقيا العام (ترجمة اليونسكو 1980 ص 683).
- 61 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) من 89 شكل 28.
- 62 - انظر:
- Van Neter. P. 1978 Ibid Fig. 87
- 63 - انظر الصورة رقم 6 المرفقة بالملحق و
- Van Neter. P. 1978 Ibid. Fig. 19
- 64 - انظر الصورة رقم 7 المرفقة بالملحق و
- Graziosi. P. 1962 Ibid. P. 30
- 65 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) من 194 شكل 102.
- 66 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) من 175 شكل 78.
- 67 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) من 198 شكل 109.
- 68 - انظر:
- Graziosi P. 1962 Ibid. P. 31.
- 69 - انظر الصورة رقم 8 وأيضاً
- Graziosi P. 1962 Ibid. P. 13
- 70 - انظر:
- Van Neter P. 1978 Ibid Pa. 20-22
- 71 - انظر الصورة رقم 9 وأيضاً
- Van Neter F. 1978 Ibid PP. 20-21.
- 72 - انظر موري. ف. (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق من 145.
- 73 - انظر:
- Van Neter. F. 1978 Ibid PP 20-21.
- 74 - انظر:
- Birich. B. 1967.

وإنظر أيضاً:

Holms D. Prehistoric Egypt. BAR 1982, Oxford University Press.

75 - انظر:

Mohammed Ali. Aghas: The Neolithic Period in the Sudan BAR Oxford 1982 P. 66.

Van Nolen P. 1978 Ibid Fig. 231.

76 - انظر:

77 - انظر موري. ف (ترجمة الباروني والكعبدي) من 179 شكل 82.

78 - انظر موري. ف (ترجمة الباروني والكعبدي) من 216 شكل 42.

Van Nolen P. 1978 Ibid P. 25.

79 - انظر:

Van Nolen P. 1978 Ibid Fig. 194.

80 - انظر:

81 - انظر موري. ف (ترجمة الباروني والكعبدي) المصدر السابق من 215 شكل 138.

Van Nolen P. 1978 Ibid Fig 80.

82 - انظر:

Van Nolen P. 1978 Ibid Fig 190.

83 - انظر:

84 - انظر لوت هنري (ترجمة محرز وخاتم) المصدر السابق من 65.

85 - انظر بالدور غريويل (ترجمة محرز وخاتم) حول الطبيعة والتمتع في الصحراء الكبرى في كتاب الصحراء الكبرى المصدر السابق من 26.

Van Nolen P. 1978 Ibid PP. 15-16.

انظر:

Barich B. 1982 Ibid.

وإنظر أيضاً

وإنظر أيضاً

Macintosh and Muelstaedt: Current directions in West Africa Prehistory. Annals of Anthropology 1983 PP.222.

Soltes, D. Desertification in Prehistory. Sahara I 1988 P. 66. وإنظر أيضاً:

Van Nolen P. 1978 P. 22.

86 - انظر:

87 - انظر باروخة محمد مصطفى المصدر السابق من 273 - 274.

Bates, O. The Eastern Libyans. London 1914 P.129.

88 - انظر:

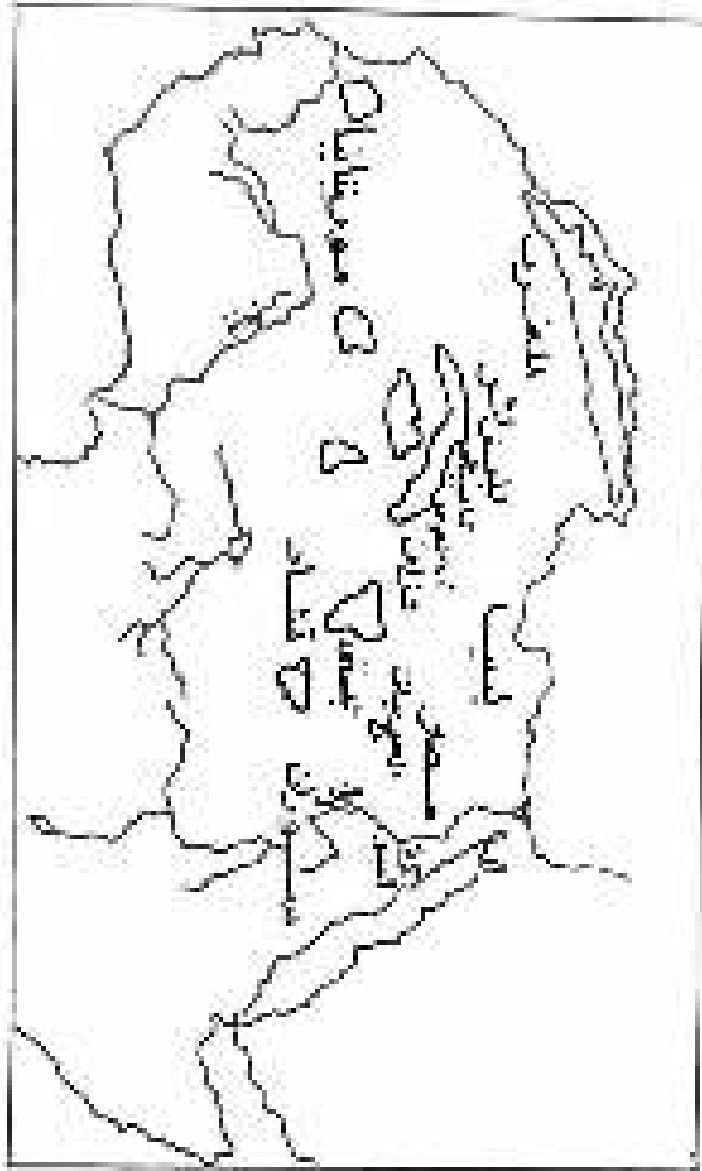
Van Nolen P. 1978 Ibid p 53.

89 - انظر:

Gratzou, P. 1982 Ibid P. 58.

90 - انظر:

- 91 - انظر شامون: ف (ترجمة الوافي محمد عبدالكريم) الإغريق في برقة منشورات جامعة قازوينس، بنغازي 1990 من ص 26 - 33.
- 92 - انظر لوت: هنري (ترجمة محرز وغانم) المصدر السابق ص 1.
- 93 - انظر زيربوكي، هي المصدر السابق ص 684.
- 94 - انظر موري لي كتاب ليبيا القديمة المصدر السابق ص 167. التيقنات هي نظام كتابة لسيم ترسم به لغة المشيك: انظر لوت هنري (ترجمة أنيس زكي حبر) لوحات تلسبي مكتبة الفرجاني طرابلس 1971 ص 129. وعرفه موري بأنه رسم الخط التاريخي أما لغة الحديث فتسمى تامادق. انظر موري (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق ص 26. وانظر أيضاً اللوحة رقم 15 العرقة بالمسحق.
- 95 - Davis W. Representation and Knowledge in the Prehistoric Rock art of Africa. The African Archaeological review 2 1984 PP 7-35.
- 96 - انظر زيربوكي هي، المصدر السابق من ص 683 - 685.
- 97 - انظر بازامة محمد مصطفى: المصدر السابق من ص 277.
- 98 - انظر:
- Cassidy P. Rock Pictures of Upper Egypt and Nubia, Roma 1936 p. 87.
- 99 - انظر: Le Quellec J.L., 1987 Ibid.
- 100 - انظر: Mellars, P. 1994 Ibid PP. 74-75.
- 101 - انظر: Le Quellec J.L., 1987 Ibid.
- 102 - انظر بازامة محمد مصطفى: المصدر السابق، 260 - 265.
- 103 - انظر موري (ترجمة الباروني والكعبازي) المصدر السابق ص 79.
- 104 - انظر أبو محمد سليمان: جرمة في عصر ازدهارها من 100 إلى 450 م في كتاب ليبيا في التاريخ، إعداد فوزي لبيب جلاله منشورات الجامعة الليبية بنغازي 1968 ص 157.
- 105 - مستفوت هذه المعلومات من الدكتور علي عبدالسلام في حديث له عن البحر شيبان في مدينة جرمة القديمة في مارس 1993. وانظر أيضاً لوت هنري (ترجمة أنيس زكي المصدر السابق ص 125 - 135).



خريطة رقم ١.

أهم مواقع الفن الصخري في شمال أفريقيا

ملحق الصور



1 - نموذج لتكوين حلقي بارز في صخرة نكلونة



2 - تجويف كهفي بحوي رسوم جدارية ملونة



3 - معركة من معارك عصور ما قبل التاريخ



4 - حلقى يزاول عملية تصفيف الشعر



5 - صخور نبراذية بعدد من الأثقال



6 - قطع من الزراف



7 - قطيع من النعام



8 - نمساخ وادی مده خندوش



9 - بقريات قرون تصيرة



10 - تماثيل من خط البشنغ وصورة لشجرة نخيل

نقوش رومانية من توخيبرا

إعداد

خالد محمد الهدار

كلية الآداب والتربية

جامعة قنبرونس

بنغازي

المنطقة التي قام يوردمان بالتعريف بها في 1963، 1965 وقد كان يشكل جزءاً من حجر أميد استخدمه في جدار متأخر والمنحعب عبارة عن كتلة مستطيلة الشكل ذات قاعدة مزخرفة بهيئات معسرة وكذلك ما يشبه الكورنيش في القمة، ويعتبر شكل بيشاري مضمّن كان يستعمل لوضع القرابين وخاصة القمح والشعير وقد شخّس النقش أحد وجوه المنحعب (انظر الصورة المرفقة).

طراز المنحعب:

يعبر طراز هذا المنحعب طرازاً نموذجياً لأشكال المنحعب التي ظهرت في العصرين الإغريقي والروماني، ولم يقتصر ظهوره على منطقة بعينها فقد وجد في مختلف أرجاء العالم الإغريقي، فمثلاً عثر على منحعب يشبه منحعب توخيرا تماماً في كورينث بغير من وهو يؤرخ بـ 270 ق.م⁽¹⁾ وكذلك عثر على منحعب شبيه له في مدينة ليدا وهو يحتمل نشأً لاثنياً يرجع للقرن الأول الميلادي⁽²⁾ وبالنسبة لإقليم قورنثانية فإن هذا المنحعب يوصفه شكلاً معمارياً يعتبر نسخة مصغرة من المقابر العدرجة التي ظهرت بالقرب من قورينث وتوَّجع للمصر البطلمي⁽³⁾ وكذلك نموذج لمقابر المشاطين بالإسكندرية وقد عثر في قورينث بالقرب من معبد أبوللو على منحعب مشبه⁽⁴⁾ أما في في توكرة نفسها فلم يعثر على طراز شبيه له من قبل.

الأسطر والحروف:

يحتوي النقش على ستة أسطر من الكتابة الإغريقية، السطر الأول به خمسة حروف والثاني كذلك عشرة حروف، والثالث سبعة حروف والرابع سبعة حروف والخامس عشرة حروف، والسادس حرفان أي أن النقش يحتوي على 46 حرفاً وما يمكن ملاحظته على الحروف أنها ليست في حجم واحد ويتراوح ارتفاعها ما بين 6 سم وقد أشبع الناقش في نقشها إلا أنه في السطر

السادس الذي كتب به حرفين تتبع الكلمة لأخيرة في السطر الخامس، يلاحظ أنه كتب الحرفين بشكل مصغر وأصل الكلمة مباشرة لكي يوحي أنها تتبع تلك الكلمة ولم يكتبها كالعامة في بداية السطر السادس إنما في نهايته، وحروف النثر كتبت بالحروف الكبيرة والصغيرة معاً ولم يلتزم الكاتب بصورة معينة ربما كان هذا تقليداً في ذلك العصر، وأشكال الحروف المستخدمة كالآتي:

ΑΘΕΝΟΙΚΑΚΑΝΓΙΡΑΤΥΛΩ

قراءة النقش ومناقشته:

و قد أمكن قراءة النقش على النحو التالي:

[θ] ε ι α υ β λ ε γ υ π ρ

Ι ο η κ σ ζ ξ λ μ ν

α β γ δ ε ς ζ

ν ε θ η κ ρ

Υ π ρ δ λ κ η λ ο ρ α

π ι

إن بداية النقش بكلمة θεοις وفي حالة التاليل (مفعول به غير مباشر) يعني بالطبع بأن موضوع النقش إهداء أو تكريس لآلهة (مؤنثة)، وظهور هذه الكلمة في صيغة الجمع يدل على أن المكرس لهن من الآلهات وليس آلهة واحدة، وظهورها في حالة المراتب يدل على أن المكرس لها مؤنثة وليس

مذكراً، وهذا يجعلنا نفترض بأن النقش منكرس للالهتين هما ديبتير وبيبر
سغوي (كوري) وإن مكان العثور على النقش يعزز هذه الفرضية بالإحالة إلى
ظهور صفة تلك هذه الكلمة وتطلق عادة على المؤلهتين ديبتير وبيبر سغوي
وهذه الصفة هي MEYIOMUS أي العظيمة جداً وقد ظهرت في حالة القابل
أيضاً، وهذه الصفة كانت تطلق على ديبتير انطلاقاً من كونها الثرة الأم
الكبرى، وقد حثر في وادي بلخدير بالقرب من قوريني على نقش وردت فيه
هذه الصفة وهو أيضاً منكرس من قبل فتاة للمولاهة ديبتير (SEG.IX.1164) وهو
يؤرخ بالقرن الأول الميلادي وقد ظهرت هذه الصفة أيضاً في نقش في قوريني
يرجع لعام 113 م (SEG IX 192) ويلاحظ هنا أنه لم يتم ذكر المؤلهتين
صراحة في النقش، بالرغم مما جرت عليه العادة في نقوش الكورس أو
الإلهاء الرومانية من ذكر الأسماء المؤلهتين مثلما حدثت في (SEG.IX 164)
أو في النقش الذي عثر عليه في حفريات بوردمان في توكوة والذي درسه
الاستاذة زيولدر¹³¹ وطريقة صياغة النقش هكذا أو بدايته بكلمة BEOUS ظهر
من قبل في نقوش عديدة في قوريني منذ القرن الرابع ق.م (SEG.IX 128)
وأيضاً في القرن الثاني ق.م (SEG.IX 114) وحتى في القرن الثالث الميلادي
(SEG.IX 112) وبعد أن وضح الناقد الشخص (الأشخاص) المهدي أو
المكرس لهم المذبح أي دور الشخص الذي كرس المذبح، حيث ذكر اسم
فتاة *apollina* ديكيماينة *BEOPPO* ثيمو، وقد ذكر اسم الفتاة (المراة) في
حالة الفاعل واسم الأب في حالة المضاف إليه، ومن خلال دراستنا للنقوش
المكرمة المؤلهتين ديبتير وبيبر سغوي في إقليم قورينائية لاحظنا أن كل
المكرمين للمذبح أو التماثيل من نساء وليس رجالاً فمثلاً في النقوش التي
كُرست لسعيد ديبتير في وادي بلخدير والتي أرخت بالعصر الروماني يلاحظ
أنها كُرس من قبل نساء أمثال *IEURIA TIMARETA* و *CLAUDIA*
*VENOSTA*¹³² والنقش الذي كُرس لديبتير وبيبرسغوي واكتشف في توكوة تم
تكريسه أيضاً من قبل فتاة¹³³ وهذا يجعلنا نسأل عن علاقة النساء بعبادة هذه

أرية؟ ويكفي أن نقول إن أشهر الطقوس التي كانت تقام بهذه المؤلحة كان لتساء النور الأكبر والفعال فيها، ومن أشهر هذه الطقوس هي الطقوس الحرية التي كانت تقام بهذه الأرية حيث تلمح المشركات في هذه الطقوس أيديهن ووجهن يديهن الضحايا⁽¹⁹⁾ وكذلك فإن في احتفال موكب سنة ديميتري كانت النساء هن اللاتي يلحن بهذا الاحتفال بمراحله المختلفة⁽²⁰⁾ زد على ذلك أن موضوع الخصوبة بصفة عامة مسؤولة هذه المؤلحة؛ فكل هذا ربما يفسر لنا التكريسات العديدة من قبل النساء بهذه المؤلحة التي ظهرت في إقليم قورينائية.

وتلا اسم التي أحدثت (كرست) نقش الكلمة التي تدل على التكريس وهي ΔΥΚΘΗΚΕΥ وقد ظهرت في زمن الماضي للضمير الغائب تدل على اشتاء التي كرس المنح، وهذه الكلمة استخدمت كثيراً مع الأشياء التي كانت تهدى للآلهة سواء في الفترة الإغريقية أو الرومانية فقد ظهرت في قوريني منذ القرن الخامس ق.م (SEG. IX 78) واستمرت خلال القرون التالية وقد ظهرت هذه الكلمة في أغلب النقوش التكريسية في إقليم قورينائية وعرفت في توكرة منذ الربع الثاني من القرن السادس ق.م⁽²¹⁾ وظهرت أيضاً على مدبح جندي يرجع لعصر الروماني⁽²²⁾ كذلك ظهرت في نقوش أبناء التي ترجع للقرن الثاني الميلادي⁽²³⁾.

بعد هذه الكلمة جاءت ὑπερδουλοῦσα⁽²⁴⁾ ونحوياً هي اسم فاعل في زمن الماضي في حالة الفاعل المفرد المؤنث، وقد وردت هذه الكلمة في نشر آخر عشر عليه في نفس الموقع وقد عثقت عليها الأستاذة ريتولتز في أن هذه الكلمة اشتقت من فعل في اللهجة القورينائية⁽²⁵⁾ وقد لاحظنا أن تهيتها لا تتشبه نحوياً مع نهاية اسم الفاعل ربما يكون اشتقاقاً مذهباً كما ذكرت ريتولتز أو نهاية ماضي بسيط في حالة الفاعل أو أن الكاتب (النقش) نسى نقش الحرفين ΔΥ⁽²⁶⁾. ولكن في نقشتنا هذا كتبت الكلمة كاملة وطناً للقواعد النحوية، ولاحظنا أن تم استخدام حرف H بدل من FI التي ظهرت في النقش

السابق، وهذا الاستخدام يعتبر من معيزات اللهجة القروية خاصة منذ القرن الرابع ق.م وأن وجود هذين الاستخدامين يدل على إنهما استخدمتا جنباً إلى جنب في النطق ويلاحظ نلة استخدام هذه الكلمة في الإقليم ولم تظهر ضمن النقوش التكريسية التي ظهرت في قورينائية، ويكاد القول يكون صحيحاً إذا قلنا إنه امتازت به نقوش توكرة التكريسية، أما عن استخدام هذه الصيغة النحوية أي اسم الفاعل في زمن الماضي في حالة الفاعل المؤنث فظهر استخدام قليل في الإقليم فقد ورد لي نقش واحد عنر عليه في فورتشي (SHC: IX 20) وإن ظهور هذه الكلمة في حالة الفاعل يدل على أنها تنعكس على الشخص المعكوس وليس على المعكوس له .

وبالنسبة لمعنى هذه الكلمة فيوجد به بعض الإشكالات فالضعل Υπερδύκετο يفيد معنى الدفاع والبراعة وهو بمعناه التصارم هذا لا يمكن أن يتناسب مع نشاط المرأة (1) وأيضاً تركيب بعض الأفعال مع فعل الجر هذا تجعله يفيد معنى القوة والدفاع، وهذه الأعمال عموماً لا تتناسب مع المرأة، وهكذا من الصعب أن نجد معنى يتلائم مع هذا النقش إلا أنه يبدو أن هذه الكلمة استغلت هنا بطريقة عامة دفاعاً عن المؤلها ولكن يمكن القول هنا إنها تفيد معنى الحماية للمؤلئين وظهور هذه الصفة «الحامية» ثرية يمكن لعلاقة هذه الفتاة بحرم الربة وعبادتها أن تكون كاهنة أو خادمة في معبدها على الرغم أن هذا القول يعوزه الدليل. ويمكن ترجمة هذا النقش على النحو التالي:

الآلهة العظيمة جداً [ديمتر وير سفوني] ديكيميا ابنة ثيانو

كريس [عنا المنبح] وأعطتها الحماية؟

تعليق على أسماء العلم الواردة بالنقش:

لقد كانت دراسة الأسماء الشخصية في النقوش من الصعوبة بمكان حتى صدور الجزء الأول من قاموس الأسماء الشخصية الإغريقية الذي اختص

جزء منه بأسماء اللبم قورينائية⁽²³⁾ فمن طريقه يمكن حمل المقارنات والمساعدة حتى في تأريخ بعض النقوش وكذلك معرفة أصول هذه الأسماء وما تعكسه من دلائل تساعد كثيراً في دراسة النقوش.

وبالنسبة للأسماء التي وردت في نقشنا هنا فوجنا اسمان اسم فتاة ووالدها بالنسبة لاسم الفتاة $\delta\epsilon\kappa\lambda\mu\sigma$ ديكيويا لقد ورد في النقش في حالة الرفع المؤنث مما يدل على أن الفتاة هي التي أهدت أو كرمت المنبح للمؤلفين ديستر رير سقوني هذا من جانب، أما الجانب الثاني لهذا الاسم فإنه من الأسماء التي ظهرت هنا لأول مرة في إقليم قورينائية فمن طريق نقوش السدين الذكر اتضح أن هذا الاسم لم يظهر ضمن الأسماء التي عرفت في إقليم وهذا ليس مستغرب لأن كل نقش جديد قد يحمل بعض الدلالات الجديدة التي لم تعرف من قبل عموماً لقد حاولنا عمل مسح شامل لنقوش هذا الاسم في النقوش الإغريقية توصلنا إلى الأتي: أن هذا الاسم يمكن أن يكون مشتقاً من الاسم المذكور $\delta\epsilon\kappa\lambda\mu\sigma$ وهو اسم لعائلة مشهورة في العصر الروماني انحسر منها الكثير من الشخصيات المهمة.

وباطلاعتنا على الأعداد من 1 إلى 36 (1898 - 1959) لمجلة الجمعية المصرية التي اهتمت بنشر أوراق البردي المكتشف في مصر لم نجد لهذا الاسم أي صدى مثلك، وكذلك يتبعنا لهذا الاسم في إهداء (SFC) العشرين لم نجد لهذا الاسم أي صدى، إلا أن جذر الاسم الأصلي $\delta\epsilon\kappa\lambda\mu\sigma$ اشتمت منه بعض الأسماء منها $\delta\epsilon\kappa\lambda\mu\sigma$ الذي ظهر في ديالوس منذ القرن الثاني قبل الميلاد وأيضاً في كبوس وديالوس في القرن الأول ق.م وكذلك في نوزيني في القرن الأول الميلادي⁽²⁴⁾ ومن الجذر نفسه اشتق اسم آخر وهو $\delta\epsilon\kappa\lambda\mu\sigma$ الذي ظهر في ثيرا في القرنين الثالث والرابع الميلاديين⁽²⁵⁾ ومن خلال العرض السابق يتضح لنا أن اسم $\delta\epsilon\kappa\lambda\mu\sigma$ ظهر هنا لأول مرة.

أما الاسم الثاني $\alpha\rho\epsilon\upsilon\upsilon\sigma$ وهو اسم والد الفتاة، يلاحظ أن الاسم في

حالة المضاف إليه وقد تم احتزال الحرفين OU نهاية المضاف إليه بحرف w وكان الناقش كتب هذا الاسم كما ينطقه بدون مراعاة للقاعدة النحوية، وأن استخدام حرف w بدل من الحرفين ou ليس غريباً في قورينائية فهذا الاستخدام من معيزات اللهجة القورينائية منذ القرن الرابع⁽²²⁴⁾ ق.م. وقد ظهر هذا الاستخدام أيضاً في عدة نقوش في قورينائية ترجع للعصر الروماني مثلاً في (SEG. IX 182) الذي يؤرخ بعام 162 م، واستخدمت هذه الظاهرة بوضوح في عهد حاركوس أريطوس مثل ما في النقش الذي نشرته الأستاذة رينولدز في JRS. عام 1959، ويظهر أن هذا الاسم أصله أغريقي بدليل ظهوره في قترات مبكرة في عدة أماكن من بلاد الإغريق ويعتبر أقدم ظهور لهذا الاسم في كريت في القرن السادس⁽²²¹⁾ ق.م. وظهر في ثيرا في القرن الرابع⁽²²⁴⁾ ق.م. وكذلك ظهر في أتيكا في نفس القرن⁽²²⁵⁾ وأيضاً في كوس في 201 ق.م⁽²²⁶⁾ وفي قبرص في العصر الهلنستي⁽²²⁷⁾ وفي ديلوس في القرن الثاني⁽²²⁸⁾ ق.م. وفي تيمساليا في نفس الفترة⁽²²⁹⁾ وظهر أيضاً في القرن الأول ق.م. في رودس⁽³⁰⁾ وفي القرن الثاني الميلادي ظهر في كوس⁽³¹⁾ وفي القرن الثالث الميلادي ظهر في تاسوس⁽³²⁾ وقد ظهر هذا الاسم في برونات القرن الثاني⁽³³⁾ والثالث⁽³⁴⁾ الميلاديين في مصر.

ويلاحظ على ظهور تلك الأسماء في نقوش تلك المناطق أنها ظهرت أيضاً في حالة المضاف إليه المنتهى بـ ou وأحياناً ينتهي الاسم بـ w وأحياناً ظهر في حالة المنعول به، وقد لاحظنا أن هذا الاسم لم يظهر في نقوش لورينائية وبالتالي يعتبر ظهوره في موكرة أول ظهور له في هذا الإقليم.

تاريخ النقش:

ليس من السهل تأريخ أي نقش إذا لم يحتوي على دلائل تاريخية تساهم على تأريخه، وفي هذه الحالة كثيراً ما يلجأ دارسو للنقوش إلى دراسة أشكال الحروف وطريقة الكتابة (النقش) بوصفها وسيلة لتأريخ النقش عن

حريف مقدرة أشكال الحروف بمثلاتها في نقوش أخرى مؤرخة تاريخاً دقيقاً
 وإذا تم التوصل أخيراً إلى بعض القواعد العامة لتطور أشكال الحروف
 الإغريقية⁽³⁷⁾، ولكن هذه الطريقة تنعدم فيها السنة المطلقة وتعتبر كلمة حوالي
 أفضل كلمة تسبق تأريخ أي نقش يعتمد على هذه الوسيلة في تاريخه.

وإذا تبعا هذه الطريقة وسيلة لتأريخ هذا النقش، ومن الملاحظات
 الأولية التي يدركها كل دارس للنقوش، وهو الاختلاف الجوهري بين أشكال
 الحروف الإغريقية في العصر الإغريقي ومثلاتها في العصر الروماني،
 وبمقارنة بسيطة استطعت التوصل أن نقشت هذا يؤرخ بالعصر الروماني وذلك
 نظراً لاستخدام أشكال حروف لم تستخدم إلا في العصر الروماني.

وأشكال الحروف في نقشتنا مهمة باللغة الأصبية لأنه يمكننا أن نؤرخ عن
 طريقه النقش، وقد اعتمدنا في تاريخ النقش على ظهور أشكال الحروف
 المستديرة مثل C, E, H بدلاً من M, B, G وكذلك على ظهور الحروف
 ذات الإنفالة أمثال A, L بدلاً من A, H، وهذه السميزات ظهرت في العصر
 الروماني ويرجع ظهور الحروف المستديرة في النقوش إلى تقيد طريقة كتابة
 الحروف في المنقوشات التي كانت بطريقة متصلة وكذلك إلى تأثيرات
 للكتابة اللاتينية وخاصة في استخدام حرف N بدلاً من حرف⁽³⁸⁾ X، وأن
 استخدام أشكال هذه الحروف لم يمتز به منطقة بعينها بل نلاحظ أنه شمل
 معظم بقاع العالم الروماني بما فيها ليبيا، وبمقارنة أشكال تلك الحروف مع
 بعض النقوش المنتشرة في إقليم قوريناكية بمدينة المختلفة اتضح لنا أن بعض
 أشكال تلك الحروف بدأت في الظهور منذ عهد هادريان⁽³⁹⁾ وفي نفس هذا
 العهد وحتى عام 130 م عرفت بعض أشكال تلك الحروف في نقوش
 كورينوك بقرص⁽⁴⁰⁾ وعلى الرغم من ظهور هذه الأشكال في هذه الفترة إلا أن
 انتشارها الواسع كان في عهد الإمبراطور ماركوس أوريلوس (111-180 م)
 حيث ظهرت في بعض النقوش القوريناكية⁽⁴¹⁾ وكذلك في كورينوك⁽⁴²⁾
 واستخدمت هذه الطريقة بشكل كبير في أواخر القرن الثاني وبداية الثالث

سواء في قورينائية أو كورينون¹⁴¹ ودورا أوريس¹⁴² وخاصة في عهد أميرة¹⁴³ سفروس وكذلك ظهرت أشكال هذه الحروف في منتصف القرن الثالث الميلادي في نقوش قورينائية (SEG. IX 9)¹⁴⁴ ويظهر أنها اختفت في القرن الرابع الميلادي.

وإذا ما استعرضنا ظهور هذه الأشكال في نوكرنا يلاحظ أنها ظهرت في بعض النقوش التي لم يسطع تحنيد تأريخها بشكل مؤكد¹⁴⁵ وخاصة في بعض النقوش الاثينية التي رسمها (نسخها) باشو ونك التي درسها أوليفيرو OLIVIERO¹⁴⁶ وهناك شاهد قبر غير مشور ظهرت به نفس أشكال الحروف، وكذلك هناك نقش حفر عليه في نوكرة (SEG. IX 344) يحمل نفس أشكال الحروف ويؤرخ ما بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين¹⁴⁷.

وبعد هذا ولاي تأريخ يمكن إرجاع نقشنا هذا: وبمقارنة لأشكال حروفنا مع مثيلاتها في النقوش الأخرى لاحظنا التشابه القوي بينها وبين النقوش التي ترجع لعهد الأميراطور ماركوس أوريلوس وأوريلوس فيروس وعلى الأخص النقش (SEG. IX 1711) الذي يؤرخ بعام 161 وكذلك النقش رقم 3 الذي نشرته رينولدز في JRS 1959 والذي يؤرخ ما بين 166 - 169 م وعلى ذلك يمكن أن يؤرخ هذا النقش بعهد ماركوس أوريلوس تقريباً وهي الفترة الأولى من حكمه والتي اشترك فيها معه في الحكم الأميراطور فيروس (161 - 189 م).

أهمية النقش:

ذكر بوردمان¹⁴⁸ بأنه لا يمكننا أن نعرف الفترة الزمنية التي قبل بها حرم ديبتر وبيير سفوني مستخدماً في العصر الروماني حتى دخول المسيحية إلى نوكرة، ولقد اعتبر منتصف القرن الأول الميلادي هو آخر فترة تم التخلي عليها لاستخدام الحرم وعبادة ديبتر وبيير سفوني في نوكرة وذلك بناء على

النقش الذي اكتشف في الحرم ودرست، ويتوعدا⁽⁴⁹⁾ ونقشنا الذي ادرج
 منتصف القرن الثاني الميلادي يمكن أن يدل على استخدام هذا الحرم حتى
 القرن الثاني الميلادي ومن ناطقة القول أن نذكر إن عبدة ديمتر قد استمرت
 في توكرة حتى القرن الرابع الميلادي وذلك حسب وصف المطران مهنسيوس
 في أحد رسائله لأعياد سبيل التي كانت تقام في توكرة⁽⁵⁰⁾.

وعلى ذلك فإن هذا النقش يعتبر وثيقة جديدة تبرهن على استمرار حرم
 ديمتر وجرسفوني في الاستخدام حتى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي.

النقش الثاني :

جزء من FNTABIA TINE من الحجر الرملي أبعاده 32×65×120 غتر
 عليه بالقرب من سور المدينة الشرقي من المخرج وذلك بمخافة البرج



الحادي والثلاثين الذي يقابل الكنيسة الشرقية عند التنظيف بجانب ذلك الصور في عام 1990 م وفي المنطقة التي توقفت عندها عمليات التنظيف في عام 1965 في قوامة كبيرة من الحجارة من بينها أبدان الأعمدة وكتل حجرية مشددة معا يوحي بوجود مبنى متهدم؟

وصف الشكل المعماري:

هذا الجزء يتكون من سائف ARCOTRAVE منبسط ارتفاعه 25.5 سم تظهر عليه كتابة إغريقية يعلوه شريط مزخرف REGILLAE على طول الـ ENTABLATURE يبلغ سمكه 5 سم يبرز من هذا الشريط أسفل البروزات المستطيلة الثلاثية الأحاديـ TRIGLYPH ست شذات GUTTAE ارتفاعها 6 سم، ويعتبر الشريط المزخرف افريز يتكون من ثلاث مستطيلات مسطحة METOPES اثنتان منها تكسورتان والثالثة كاملة تلغ أبعادها 40 × 26 سم يحيط بهذا الـ METOPE ثلاث من البروزات المستطيلة الثلاثية الأحاديـ TRIGLYPH يبلغ ارتفاعها 26 سم، يعلو هذا الافريز اشرفة تمثل كورنيش بارز.

وهذا الـ ENTABLATURE من العزاز الدوري الروماني وقد عثر على قطع شبيهة بقطعتنا هذه في إقليم قورنثية حيث عثر على قطعة شبيهة في برتين⁽¹⁵¹⁾ أرخت بأواخر القرن الثاني الميلادي وفي طلمبة⁽¹⁵²⁾ عشر في الفيلا الرومانية في مدخل الرواق الشرقي على ENTABLATURE شبيهة سواء في الشكل أو الأبعاد وقد أرخت بأواخر القرن الأول الميلادي، وقد عثر في كورنثي على مجموعة مشابهة تؤرخ بالعصر الروماني وخاصة في مباني الأجر⁽¹⁵³⁾ أما في سوسة فقد عثر على اثنين من ENTABLATURE في البهو المعبد⁽¹⁵⁴⁾ وقد أرخت بالقرنين الأول والثاني الميلاديين، بالنسبة لتوكرة فلم نطيق قطع شبيهة بهذه القطعة، وعلى ذلك يمكن أن تؤرخ هذه القطعة بالقرن الثاني

قيلادي، ومن خلال الاستعمالات التي استخدمت فيها القطع السابقة، يظهر أنها هنا استخدمت في أحد المداخل المعمدة ويظهر أن هذا المدخل مقبرة كما يوحي النقش بذلك، وأن ظاهرة النقش على السائف ARCHITRAVE عرفت من قبل في قوريناية قضي معبد أبوللو ظهرت بلونى على بعض الأسائف¹⁵⁵ وكذلك على بوابة فورم بروكتوس¹⁵⁶ الذي يرجع لأوائل القرن الأول الميلادي، وكذلك على بعض المباني الأخرى في قورينا¹⁵⁷.

الأسطر والحروف :

يحتوي السائف ARCHITRAVE على سطرين من الكتابة الإغريقية لسطر الأول ففي منه ثمانية أحرف والسطر الثاني أحد عشر حرفاً، ويلاحظ أن الحروف كتبت بحجم كبير وذلك حتى يمكن رؤيتها أو فرادتها من مكان بعيد ويلاحظ أن السطر الأول الذي يوجد به اسم الشخص كتبت بحروف أكبر حجماً من حروف السطر الثاني، حيث يبلغ ارتفاع حروف السطر الأول 10 سم والسطر الثاني 7 سم ويلاحظ العمق الشديد في الحروف وذلك حتى تبقى أطول فترة ممكنة وتُحافظ الناقش ابتكر منه الطريقة لكي يعرف عدم نقشه على الرخام.

والشكل الحروف المستخدمة في النقش كالآتي :

ΑΙΚΑΛΛΟΥΡΕΤΥ

قراءة النقش ومناقشته :

وقد أمكننا قراءة النقش على النحو التالي :

[11p] ΟΙΚΟΥΣ ΜΑΡ

[K] αΙ ΤΟΥΣ ΑΟΥ ΤΟΥ

يبدأ النقش باسم علم في حالة الفاعل ، إلا أن هذا الاسم تقصمه بعض الحروف ضياعاً مع الجزء المكسور وقد حاولنا إكمال النقص ؛ بحيث أصبح الاسم Προκλῆς ، يلي هذا الاسم حرف M أعلاه توجد شريطة تدل على أن الحرف اختصار للاسم الذي ربما يكون ماركوس ΜΑΡΚΟΣ أو ربما تكون الأحرف الثلاثة الواردة في النقش أي ΜΑΡ اختصار للاسم ماركوس ، على الرغم من أن شريطة الاختصار لا تشمل الأحرف الثلاثة ، وقد عرف هذا الاسم وانتشر في نقوش قورينائية بهذين الاختصارين معاً وخاصة في عهد الإمبراطور ماركوس أوريلوس الذي اختصر اسمه الأول بالحرف الأول أي M أو الثلاث أحرف الأولى من اسمه أي ΜΑΡ (راجع SEG. LX9, 98, 128) وإذا اعتبرنا أن حرف M فقط اختصار للاسم ماركوس فإن AP تصبح A[Υ]P بحيث يكون هناك الحرف الأوسط قد سقط سهواً من النقش وتكون هذه الأحرف اختصار للاسم أوريلوس ΑΥΡΗΛΙΟΣ وقد ظهر هذا الاختصار بكثرة في القرن الثالث الميلادي في قورنثي (راجع SEG. lx 128).

وفي السطر الثاني يبدو أن هناك بعض الكلمات ضائعة فيبدأ السطر بالأحرف AL التي يمكن أن يضيف إليها الحرف K لتصبح KAL بمعنى ، وبعدها أتت أداة التعريف ΤΟΥ في حالة التثنية التي هي العادة لرمز للأمرأة وبعدها أتت كلمة Αουτου في حالة المضاف إليه بمعنى نفسه ، ولجاءا يمكن

ترجمة الكلمات التالية «ولأسرته» وعلى ذلك يمكن ترميم النقش أو الجزء
 ايفالغ (نه بنى (شيد) هذه المقبرة لنفسه) وذلك على اعتبار أن هذه القطعة
 جزء من واجهة مقبرة مشيدة وأن مكان العثور على هذه القطعة ربما يؤيد
 ذلك، وأن استخدام هذا التعبير ليس جديداً في نقوش قورنثية فقد ظهر
 بكثرة وخاصة على نقوش المقابر المشيدة أثناء الحياة سواء بالإغريقية أو
 اللاتينية، لقد ظهرت في طلمبة تعبيرات مثل ΑΙΛΙΩΝ ΚΟΡ. ΤΟΥΣ في نقوش
 لمقابر⁽³⁷⁾، وظهرت نفس التعبيرات في اللاتينية في نقش جنائزي عثر عليه
 في الحجر التاسع في توكترا وهو يؤرخ بأواخر القرن الثاني وبداية الثالث⁽³⁸⁾
 وقد ظهر في هذا النقش أيضاً اسم ماركوس أوريليوس.

وهي النهاية يمكن ترجمة النقش كالتالي «بروكليس ماركوس (أو
 ريليس) (شيد هذه المقبرة له) ولأسرته».

تعليق على أسماء العلم الواردة بالنقش :

إذا كان ترميم النقش صحيحاً فإن اسم ΠΡΟΚΛΗΣ هو الاسم الأول
 لصاحب النقش، ويظهر أن هذا الاسم ذو أصل لاتيني وقد ظهر في قبرص
 وباكوس في القرنين الأول والثاني الميلاديين وظهر أيضاً في بيروس
 وسبوس في العصر الامبراطوري⁽³⁹⁾ وقد ظهر في قرطاجة (SEG. Ia 841)
 أما في قورنثية فقد ظهر في مومنة، وعرف فيها حتى في القرن الأول
 الميلادي وعرف في ثوريني في عهد أغسطس⁽⁴⁰⁾

أما اسم ماركوس ΜΑΡΚΟΣ فهذا الاسم كان من الأسماء الشائعة
 والشهيرة في آن واحد وللاسم في حد ذاته أصل على بعض المشهورين من
 أمثال ماركوس انطونيوس وعلى بعض الأباطرة الرومان كذلك أمثال ماركوس
 أوريليوس وكذلك كان الاسم الأول للإمبراطور⁽⁴¹⁾ كاراكالا وقد ظهر هذا
 الاسم في قبرص في القرن الأول ق م وكذلك في العصر الامبراطوري

وكذلك في كريت في القرن الثاني الميلادي⁽¹⁶⁴⁾ وفي قبرص في القرون الثاني والثالث والرابع⁽¹⁶⁵⁾ أما في قورنثية فقد ظهر في أغلب المدن ففي سوسة ظهر في القرن الأول ق م والقرن الأول الميلادي⁽¹⁶⁶⁾ وظهر في طلمبة في القرن الأول الميلادي⁽¹⁶⁷⁾ وكذلك في قورنثي فقد ظهر في القرنين الثاني والثالث الميلاديين⁽¹⁶⁸⁾ وعرف أيضاً في مارماريكا في القرن الثاني الميلادي وهي توخيرا ظهر منذ القرن الأول الميلادي⁽¹⁶⁹⁾ في مجموعة كبيرة من نقوش المغار .

وإذا اعتبرنا أن MAP ختمار الاسم ماركوس أوريليوس فإن هذا الاسم نشر بكثرة كاسم ليس في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس لكن في عهد الإمبراطور كاراكالا وذلك لأن اسم هذا الإمبراطور الأول ماركوس أوريليوس حيث أصبح اسمه شائع بكثرة بعد إمداره لمرسوم يمنع بوجبه حق المواطنة لجميع مواطني الولايات الرومانية وذلك عام 212م⁽¹⁷⁰⁾ وغير مثل على ذلك النش الذي اكتشف في قورنثي ويحمل قائمة بأسماء مجموعة من شباب عددهم 59 اسماً كان من بينهم 30 شاباً اسمه الأول أوريليوس وهذا النش يدرج بـ 223 - 224 م⁽¹⁷¹⁾ وقد ظهر هذا الاسم أيضاً في توخيرا (SEG, IX 522) وقد ظهر أيضاً في موريتانيا في القرن الثاني الميلادي (SEG, IX 585, 586).

غالباً الأسماء الواردة بالنقش يظهر عليها الصيغة اللاتينية وأنها انتشرت في قورنثية مثل انتشارها في بقية الولايات الرومانية.

تاريخ النش:

لدينا ثلاث فرائز يمكن أن نعتمد عليها في تاريخ هذا النش، القرية الأولى أشكال الحروف وهي تشبه الأشكال التي ظهرت في النش الأول والتي استمر استخدامها في القرنين الثاني والثالث الميلاديين فمن طريقها

يمكن أن نؤرخ نقشه ما بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين وخاصة إذا
 اعتمادنا على أشكال الحروف التي ظهرت في النقش رقم (ISBO. IX 544)
 والتي تشبه أشكال حروفنا شيئاً كبيراً وكذلك حتى حجم الحروف⁽²⁰⁾
 والقربة الثانية التي تقوم على فرضية اسم ماركوس أوريليوس حيث يلاحظ
 أن هذا الاسم انتشر بعد عام 212 م وأن ظهوره في هذا النقش يرجعنا تاريخه
 بعد عام 212 م والقربة الثالثة تعتمد على تاريخ الشكل المعماري الذي أُرخ
 بالقرن الثاني الميلادي. عموماً كل هذه القرائن مجتمعة تؤكد أن تاريخه ما
 بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين.

أهمية النقش:

إن العثور على النقش بجانب الأسوار، ووجوده في كومة من الحجارة
 وبقياء الأعمال، ومن خلال ما يحمله النقش من مسمومات وبما يشير إلى
 مذبحة مشهدة وهذا الضراز من المقابر لم يظهر في نوكرة من قبل وكذلك فإن
 النقش قدم بعض الأسماء الجديدة التي ظهرت لأول مرة في نوكرة، وأيضاً
 فإن وجود هذا الشكل المعماري وظهوره هنا لأول مرة يدل على أن نوكرة
 أتت نفس الطرز المعمارية السائدة في قوريناية.

النقش الثالث:

عبارة عن كتلة حجرية من الحجر الرملي عثر عليها يوم
 19/10، 1987 م ضمن أنقاض مزرعة الأخ، ضمن مضاح موجودة في
 الناحية الجنوبية من داخل أسوار مدينة نوكرة الأثرية ومن وضعية الحجر
 ودكان العثور عليه يبدو أنه يرجع إلى مبنى تم تدميره أثناء عملية تنظيف تلك
 المنطقة ووجدت بعض الأحجار في نفس المنطقة نحمل بعض الأحرف
 ثلاثية. عموماً الحجر مستطيل الشكل أبعاده 114 × 32 × 39 ويظهر



التأكل على أجزاء من هذه الكتلة وعلى الأنحس في الجانب الأيمن منها
الذي يأخذ شكلاً مديباً تقريباً (انظر الصورة المرفقة) وقد نقش على أحد
وجوه هذه الكتلة كتابة لائبية ويلاحظ في هذا الوجه أنه به بعض الحفر
وبعض التشويبات الأخرى التي يمكن أن تكون بفعل الطبيعة أو بفعل
إنساني.

الأسطر والحروف:

على أي حال النقش يتكون من ثلاثة أسطر من الكتابة، احتوى السطر الأول على أربعة أحرف والسطر الثاني على واحد وعشر حرفاً والسطر الثالث يحتوي على حرفين فقط وقد لاحظنا عن طريق الملاحظة الدقيقة أن النقش احتوى على خمس وثلاثين مقصود بحيث أزيلت مساحات وأحرف كانت مضمومة في السابق حيث يظهر أنه في السطر الأول كانت هناك معارضة للمصر ومحو حرفي D و N ولقنها تم تمهينها، وفي السطر الثاني وفي هيائه توجد مسافة 22 سم من الكتابة المطمومة، وفي بداية السطر الثالث توجد مسافة 57 سم من الكتابة المطمومة وفي نفس السطر وبعد الحرفين T و H توجد مسافة 30 سم من الكتابة المطمومة كذلك، وقد استدلنا على العظمى عن طريق بعض الملاحظات المتعلقة بجزء النص وكذلك فإن الجهات المطمومة محوفاً قليلاً ولا تقع مع الجزء المكتوب على سوية واحدة.

أما عن ارتفاع حروف النقش فبلغ 5 سم وقد نقش بطريقة جيدة.

قراءة النقش ومناقشته:

وقد أمكن قراءة النقش على النحو التالي:

vac DD vac NN vac

كلمات مطمومة [FL V] AL CONSTANTIINO INV (ICTO) AVG (USTO) ET

كلمات مطمومة ET كلمات مطمومة

السطر الأول:

ويلاحظ في هذا السطر الذي توجه به أربعة أحرف، إن هذه الحروف عبارة عن اختصارات لبعض الألقاب وهي على النحو التالي:

الحرفان DD اختصار للكلمتين Dominus Dvobys وكلمة DOMINIS تعني السيد أو المولى وكلمة DVOBYS بمعنى كلاهما أي تدل على التثنية، ومعنى ذلك يكون معنى هذا الاختصار كلا المسيحين أو المؤمنين.

والحرفان NN هما اختصار للكلمتين NOSTRIS DVOBYS والكلمة الأخيرة هي ضمير ملكية في حالة الجمع. وهذه الاختصارات في الأصل DN أي سيدنا أو مولانا ولكن مكررة مرتين تدل على معنى أي اثنين وليس واحداً.

وهذا اللقب DN من الألقاب التي تم تداولها في العصور المتأخرة من الإمبراطورية الرومانية ولقب DOMINUS من الألقاب الذي اتخذ بعض الأباطرة باعتبارهم أمياد على الصعيد مثل الإمبراطور تييريوس وظهور هذا اللقب على عملة الإمبراطور انطونيوس بيوس، وفي عهد الإمبراطورين دقلديانوس وماكسيميان تم استخدام هذا اللقب وظهور بوضوح ضمن الألقاب الإمبراطورية سواء في النقوش أو العملة وذلك حتى تنازلهما على العرش في عام 305 م⁽⁷¹⁾. ومنذ هذا العهد أصبح هذا اللقب لصيداً بالأباطرة ولم يقتصر هنا اللقب على الأباطرة وحدهم بل أطلق أيضاً على القياصرة وذلك بعد عام 305 م وأحياناً يظهر في النقش الواحد رمزاً للأباطرة والقياصرة⁽⁷²⁾ معاً، وإن ظهور DN هنا يدل على أنها تشير إلى أمير طور واحد أو قيصر وكما زاد عند الأباطرة أو القياصرة الذي يحملهم اللقب زاد تكرار DN فقد وصلت إلى أربع DN مكررة⁽⁷³⁾ وأحياناً كانت DN تطلق على القيصر وحده⁽⁷⁴⁾ وأحياناً يطلق على الأباطرة دون القياصرة⁽⁷⁵⁾ على الرغم من ودوة أسماء القياصرة في النقش ويلاحظ أن هذا اللقب حل محل لقب IMP خاصة في

فترة الغلافل من الأمبراطورية الرومانية ومنذ أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الميلادي ومثلاً منذ عام 340 حيث حلّت LN محل IMP على العملة واستمر الحال هكذا حتى عهد جستنيان.

المسطر الثاني :

ويلاحظ أن الجزء الأول من مطبوس وقد أمكن قراءة الحرفين A1. بصحوبة وهما جزء من اختصارات الاسم الأول للأمبراطور قسطنطين وقد أمكن ترميمه على النحو التالي (FL) وهي اختصار لاسم FLAVIUS و VAL وهو اختصار لاسم VALERIUS وهما الاسم الأول للأمبراطور.

يلي هذه الأحرف كلمة CONSTANTINO وهي تشير للأمبراطور قسطنطين الأكبر الذي حكم الأمبراطورية الرومانية من 311 إلى 337 م ولهذا المسطر دلالة كبيرة في الإشارة إلى تاريخ النقش.

يلي هذه الكلمة الأحرف INV وهي اختصار لكلمة INVICTO التي تعني (لا يقهر أو لا يهزم) وهذا اللقب أخذ في الظهور منذ بدأت الغلافل في الأمبراطورية الرومانية وبدأت الحروب الأهلية وأخذ القواد في المقاضعات ينشقون وينادون بأنفسهم أباطرة مثلما حدث بعد موت ثرمودوس؛ وقد ظهرت هذه الكلمة أول مرة على العملة وذلك منذ عام 193 م حيث أطلقه على نفسه القائد PESCENNUS NIGER الذي نشق على سبتوس سيفيروس في بلاد الشام ويعتبر الأمبراطور فيليب العربي (244 - 249) من أوائل الأباطرة الذين حملوا هذا اللقب حيث ظهر في نقش ميلي عثر عليه في الطريق الرابط بين قوزيني وبلجريي يحمل هذا اللقب⁽⁷⁶⁾ واستمر هذا اللقب يضاف إلى أسماء الأباطرة حتى عهد قسطنطين الأكبر عندما بدأت الأمور في الأمبراطورية وأصبح لها أمبراطور واحد حيث يظهر أنه حلّت كلمة SEMPER محل INVICTO منذ عام 340 وإلى 423 م⁽⁷⁷⁾ ولم يقتصر هذا اللقب على الأباطرة بل أطلق على الإله ساريس⁽⁷⁸⁾ وكذلك على عبادة الشمس حيث

ظهرت على عملة في الإسكندرية ترجع لعهد ماكسيموس ديا 305
- 311 م.

يلي هذه الكلمة الأحرف AVG وهي اختصار لكلمة AUGUSTO وهذا اللقب أي أغسطس خلع في شهر يناير عام 27 ق.م على جاوس أوكتافيوس، وهذه اللفظة كانت تعني شيئاً قد خصص وتمرس لخدمة الآلهة وليكن معبداً أو آتية خاصة بالطقوس الدينية أو طقفاً مقدماً، وبذلك أحاطه هذا اللقب بهالة ترتفع به عن مستوى البشر إن لم تكن تضي عليه صفة الألوهية⁽¹⁾ ومن هذا العهد أصبح جميع الأباطرة الرومان يلقبون بهذا اللقب وذلك لما لهذا اللقب من معاني قديمة.

وبعد هذا اللقب يأتي حرف العطف ET أي «و» وتأتي بعده صفة 22 سم في السطر الأول تظهر عليها آثار المحو أو الطمس وفي السطر الثاني كذلك توجد مسافة 57 سم تظهر عليها آثار المحو كذلك؛ مما جعلنا نستنتج أن النقش تم العبث به وتم محو جزء منه عن قصد، ونظراً لأن النقش يحتوي على DDNN فهذا يجعلنا نستنتج بأنها ترمز إلى أميراطورين وليس أميراطور واحد كما هو وارد في النقش وظهور حرف العطف ET يدل على أن الاسم الذي تم محوه هو اسم الأميراطور الآخر. ولكن من هذا الأميراطور الذي تم محوه اسمه، ولماذا؟ أن الإجابة على هذا السؤال ليست بالأمر الهين ويلعب التخمين دوراً بارزاً فيه ولكن هناك بعض المعطيات التاريخية التي قد تساعدنا في معرفة اسم هذا الأميراطور ولماذا تم محو اسمه. لم تبدأ ظاهرة تعدد الأباطرة إلا في عهد ماركوس أوريلوس (161 - 180) ثم انحضت هذه الظاهرة ووجدت لها انبعاث من جديد في عهد ديلديانوس (284 - 311) وقسمت الأميراطورية إلى قسمين غربي، شرقي، ثم قسمت إلى أربعة أقسام بين أميراطورين رقيصيين وأدى النظام الرديهي وما صاحبه من مشاكل وصراعات بين الأباطرة والقيصرية إلى تقسيم الأميراطورية وتعدد الأباطرة ففي الفترة من 305 - 311 كان يحكم الأميراطورية عند اباطرة وستة حكام

309 م كان هناك ستة حكام يحملون لقب أغسطس وفي الفترة من 312
 - 324 انخرط قسطنطين الأول لسيوس بالحكم وكانت جميع القرارات
 تصدر بأسماء هؤلاء الأباطرة سواء كانوا اثنين أو ثلاثة أو أربعة. ولمعرفة
 اسم الإمبراطور الذي تم منح اسمه بشكل دقيق علينا أن نستعرض نبذة عن
 الإمبراطور قسطنطين الذي ورد اسمه في النقش، حمل قسطنطين لقب
 إمبراطور منذ عام 307 م وهزم الإمبراطور ماكسينوس عام 312 م واتترك
 في الحكم مع ليسيوس وماكسينيان في فترات مختلفة وفي عام 312 تقاسم
 الإمبراطورية مع الإمبراطور لسيوس وتفرد بالإمبراطورية عام 324 م¹⁹¹؛
 ونظراً لأن النقش فيما يظهر كان يحمل اسم إمبراطورين تقاسم الحكم، ولم
 يبق إلا اسم قسطنطين ولم يشترك لقسطنطين في الحكم إلا مع الإمبراطور
 سيوس وعلى ذلك فإن الاسم الذي تم منح هو ليسيوس LICINIUS. أما
 مكان تم منح، فهذا أمر غير واضح، فبعد الصرخ الذي تم بين الإمبراطورين
 قسطنطين وليسيوس والذي انتهى عام 324 م بعد معركة أدرنة وقرب سيوليس
 سميت الإمبراطور ليسيوس وبعد أن أصبح قسطنطين الحاكم الوحيد
 للإمبراطورية يبدو أنه أمر بمنح أسماء الأباطرة الذين اشتركوا معه في الحكم
 في السابق والذين ظهرت أسماءهم إلى جانب اسمه في النقوش التكريمية أو
 الإثباتية وغير ذلك على ذلك النقش الذي وجد على نوس النصر في طليقة
 حيث تم منح اسم الإمبراطور ماكسينيان بعد هزيمته في معركة جسر مانيان
 عام 311 وفي عام 324 م تم منح اسم الإمبراطور ليسيوس¹⁹² بعد هزيمته
 وبعد أن أصبح قسطنطين الإمبراطور الأوحده للإمبراطورية الرومانية. وخاصة
 لمنح في النقوش معروفة وخاصة في تلك الفترة حيث عثر في رأس الهلال
 على نقش تم فيه منح اسم الثيودور كونستانس¹⁹³ CONSTANS وعلى ذلك
 يمكن أن تكون الكتابة المطبوعة من النقش على النحو التالي (VALERIO
 LICINIANO LICINO INV AVG) وهنا هو اسم وألقاب الإمبراطور
 ليسيوس التي ظهرت في النقوش¹⁹⁴ وفي نفس الوقت مساوية لنفس

القاب قسطنطين الواردة في نقشنا هذا بالإضافة إلى أن المسافة التي تم محوها تعادل نفس مساحة الحروف التي افترضنا ترميمها للنقش.

بعد ذلك يظهر في النقش الحرفان ET وهما يعنيان حرف عطف بمعنى "و" يليها مساحة من الكتابة تم محوها تقدر بـ 30 سم ويظهر أن الكتابة التي تم محوها عبارة عن اسم له علاقة بالاسم السابق الذي تم محوه وإذا كان فرضنا صحيحاً بأن اسم الشخص الذي تم محوه هو لسيئوس فإنه من المرجح أن الاسم الثاني الذي تم محوه هو اسم القيصر ليسيئوس ابن الأمبراطور لسيئوس وذلك لأنه في العادة أن تكتب أسماء القيصرة مع الأباطرة في النقوش الرومانية المتأخرة وخاصة في القرن الرابع الميلادي ولا يمكن أن يكون اسم القيصر الممحو هو ابن قسطنطين بالإضافة لأنه لا يمكن أن يكون اسم امبراطور آخر أو شريكاً في الحكم وذلك لظهور DN مكررة مرتين وعلى ذلك يكون اسم القيصر الممحو هو ابن الأمبراطور ليسيئوس. وإلى هنا ينتهي النقش الذي يظهر أن هناك أجزاء أخرى تكمله نقش على أحجاراً أخرى وضعت أسفل هذه الكتلة وديباجة النقش أيضاً توضح ذلك.

تاريخ النقش :

إذا ما حاولنا معرفة تاريخ النقش بمعدل من الكتابة الذي تم محوها، فظهور لقب AUGUSTO مطابقاً لاسم قسطنطين يدل على أن النقش كان به 307 م وإذا كان افتراضنا صحيحاً للأسماء الممحوة، فإن ظهور الأمبراطور لسيئوس شريكاً في حكم الأمبراطورية مع الأمبراطور قسطنطين كان الفترة من 312 - 324 م وإذا كان اسم القيصر الممحو هو ابن الأمبراطور لسيئوس فإن تاريخ النقش يكون ما بين 317 - 324 م وهي الفترة التي فيها ليسيئوس ابنه قيصر⁽¹⁵⁾ وعلى ذلك يمكن أن نلخص النقش ما بين 320 م وهي الفترة التي صاد فيها التناهم بين قسطنطين و ليسيئوس.

أهمية النقش:

تعد أهمية النقش بالنسبة لتوخيها بأنه من النقوش اللاتينية التي تفتقر إليه هذه المدينة كثيراً، ومن خلال ديجاجة النقش وظهور أسماء الأماكن به يمكن أن يدل على أنه من النقوش الإنشائية أو التكريمية ولم نستطع معرفة لغرض الذي من أجله أقيم هذا النقش وذلك لطبع أجزاء منه، وآخر ما يمكن أن يقال حول أهميته بأن المنطقة التي اكتشف فيها ربما تدل على دخول ونحن نرجح أن النقش يعود أصلاً إلى قوس النصر المكتشف في الديكومانوس⁽⁹⁶⁾ وذلك لأننا نعتقد أنه يعود إلى أحجار القوس البحرية هنا وذلك ولعل ما يشجعنا على هذه الفرضية هو نوعية الحجارة من ناحية وكذلك قوس النصر في طرمبة الذي تم تشييده في عهد قسطنطين؛ جاليوس، وليسيوس وقد ظهرت فيه نفس ظاهرة الحجر التي ظهرت في تشييد هذا وهذا احتمال يمكن أن يؤكدته دراسة سفريات في قوس النصر أو العثور على بقية النقش.

النقش الرابع:

حجارة عن كتلة حجرية شبه مربعة من الحجر الجيري، يبلغ أبعادها 22 × 24 × 15 سم وقد عُثر عليها ضمن أنقاض مبنى متهدم من مباني الحرف القديم⁽⁹⁷⁾ الكائن بالقرب من المدينة الأثرية، بتاريخ 25/8/1990 م وهذا الجزء المتبقي في حد ذاته جزء مكسور من نقش كامل ربما يشاهد عبر يظهر النقش على أحد وجوه الكتلة ويبدو أن النقش كان يعبد به تمويه. الغرض منه تحديد المساحة المنقوشة عن بقية الجزء؛ أي شكل الشريط إشاراً لنقش يظهر جزء من هذا الشريط على الجانب الأيمن تاركاً مسألة 13 سم من بداية الكتلة الحجرية (انظر صورة النقش).



الأسطر والحروف:

الجزء العشري من النقش عبارة عن جزء من ثلاثة أسطر من الكتابة اللاتينية والحبشية من السطر العلوي ستة حروف الجزء العلوي منها ضائع، والعشري من السطر الثاني ثلاثة حروف فقط، وكذلك السطر الثالث بقيت منه ثلاثة حروف فقط. يبلغ متوسط ارتفاع تلك الحروف 1.5 سم، وقد نُقِشت

لحروف بالحجم الكبير؛ ويلاحظ أن لدى النقش نهاية ودقة في نقش بعض الحروف، هذه الدقة التي لا تتوفر عند نقش بعض الحروف الأخرى.

قراءة النقش ومناقشته:

STILIO

Q (DENTUS) MA (RCIUS)

[CIBH V MACE] DON (ICA (E)

نعم من المفيد أن نذكر بأن قراءة النقش من السطر الأول هي من الصعوبة بمكان؛ وبفضل التصور المطروح عن مامية هذه الحروف على سبيل التخمين؛ وبالتدقيق في تلك الحروف، يظهر أن هذا السطر ينتهي بحرف Q لأن أوله كامل ويمكن تمييزه بسهولة عن بقية الحروف اللاتينية الأخرى؛ أما بداية السطر فيحتمل أن يكون حرف S يليه جزء من حرف يمكن أن يكون T وقد ظهر بعد ذلك نهاية ثلاثة عصابات لأحرف يصعب تمييزها بسهولة؛ إلا أنها خصوصاً تكون ما بين الحروف التالية T. I. I ومن خلال مقارنة مع بعض النقوش اللاتينية يحتمل أن تكون على التوالي I. I. I ومن ثم فإن الجزء بعثفي يحتمل أن يكون STILIO هذه الكلمة التي لم نجد حتى تراثف لها، ويحتمل أن يكون الجزء الأول منها موجوداً في الجزء المتبقي من النقش.

والجزء المتبقي من السطر الثاني يبدأ بحرف Q يليه نقطة تعبر على أن الحرف تصغير لاسم أو كلمة وهذه الظاهرة رجعت بكثرة في النقوش

اللاتينية، كما في النقش رقم 117 في مدينة⁽⁸⁸⁾ ليدة مثلاً وهذه الوضعية لهذا الحرف تدل على أنه اختصار للاسم الأول لصاحب النش، حيث جرت العادة على اختصار الاسم الأول، على أن يكتب الاسم الثاني أو اسم العائلة كاملاً، وقد وجدت هذه الظاهرة مثلاً في خمسة وعشرين نقلاً لاينياً في منطقة طرابلس⁽⁸⁹⁾ وكانت العادة أن حرف Q هذا اختصار لاسم QUINTUS هذا الاسم الذي كان شائعاً كإسم علم عند الرومان، ومن خلال واقع النقوش اللاتينية المكتشفة في ليبيا، يظهر أنه كان شائعاً في منطقة طرابلس مقارنة بقوريناية، حيث لم يظهر بكثرة إلا مثلاً في نقش عبارة عن شاهد قبر لجندي روماني في طلمبة⁽⁹⁰⁾ وفي نقش آخر من قوريني⁽⁹¹⁾.

ويظهر أن حرف Q كان يسبقه حرف أيضاً مختصر بدليل وجود نقطة قبل هذا الحرف وبالي حرف Q الحرفان MA وبالتالي تدل نهاية لهذا السطر، ومن الواضح إنها ليست اختصاراً وتكملة هذا الاسم في بداية الجزء الضائع من السطر الثالث، ومن ثم فإنه يصعب معرفة هذا الاسم الذي هو بمثابة اسم العائلة للمدعو QUINTUS إلا أنه تطل هناك بعض الأسماء المقترحة يمكن أن يكون أحد الأسماء التالية إحداها، وهي MARIS, MARCELLUS, MACER, MARCIUS وبعضها ظهر في منطقة طرابلس، وبعضها في قوريناية سواء كإسم أول أو اسم عائلة، وهناك اسم آخر اقترحه الأستاذ لاروند وهو MARCIUS⁽⁹²⁾ خصوصاً في تضم هذه الأسماء يكون أقرب للتصواب الأسماء القصيرة وليست الطويلة⁽⁹³⁾ ونحن نكاد نتفق مع رأي لاروند في ترجيح اسم MARCIUS خاصة إن هذا الاسم الأخير كان شائعاً في قوريناية وكذلك في توخيما.

أما السطر الثالث، فيبدو أن DON ما هي إلا الأحرف الوسطى من كلمة MACDONICA التي تفسر على أنها «مقدوني» وما جعلنا نقترح هذه التكملة هي ورود كلمة (E) MACDONICA في نصين عثر عليهما في قوريني⁽⁹⁴⁾ وهي تثبت وجود الفينيق المقدوني في قوريني في عهد أسرة

سيفرس كذلك في عهد الأمبراطور جورديانوس. عموماً إذا كان هذا التصور صحيحاً فإنه من المؤكد أن هذه الكلمة مبنية برقم من الأرقام التي تعبر عن رقم هذا القيلق الروماني، وكذلك فإنه يعقبه CXII التي هي اختصار COII (ORTS) (OBS) والتي تعني كتيبة.

وإذا ما تساؤلنا عن رقم القيلق المقدوني الذي كان موجوداً في الإقليم فإنه يأتي حاك من الأحياء لا يمكن أن يكون القيلق الأول أو الرابع، على الرغم من جود تشابه ورنولمز يعتقد أن القيلق المقدوني الأول كان موجوداً في توريني⁽¹⁹⁵⁾ إلا أن الكثير من الكتاب يعتقدوا أن القيلق المقدوني الأول والرابع قد انتهت خدمتهم قبل عهد تراجان⁽¹⁹⁶⁾ ويظهر أن القيلق المقدوني الخامس هو القيلق الذي تواجد في الإقليم للقضاء على شعب اليهود ما بين 117 - 115 م خاصة أن هذا القيلق كان ضمن قوات تراجان في حرب بارثيا في نفس الفترة، حيث يبدو أنه أرسل من هناك لقمع ذلك الشعب خاصة أن هذا القيلق كانت لديه خبرة في التعامل مع شعب اليهود في فلسطين وسوريا في منتصف القرن الأول الميلادي⁽¹⁹⁷⁾ ويعد أنه تمكن الرومان من قمع الشعب اليهودي، يظهر أن بعضاً من هذا القيلق قد استقر في الإقليم لضمان أمن الأخص، وعلى الأخص في توريني ونوخيرا، وعلى الأخص أن المدينتين حكمت لقب COLONIA، وإن الإصلاحات منحت إليهما في عهد هادريان.

تاريخ النقش:

يظهر أنه من الصعب تحديد تاريخ معين لهذا الشاهد للمقصر الشديد في المعلومات المستفاد منه، ولكن يبدو من المناسب أن يكون تاريخه ما بين منتصف القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي، خاصة أن الفترة الأخيرة ليست وجود القيلق المقدوني في توريني⁽¹⁹⁸⁾.

أهمية النقش:

تأتي أهمية النقش لبرهن على وجود بعض الراد الفيلق المقدوني في توخيرا، وأن بعضاً منهم استقر بها بوصفه جزءاً من حامية المدينة، حيث أنه هذا الجندي؟ قد استقر بتوخيرا حتى وفاته ودفن بها، مثلما حدث مع أحد الجنود من نفس الفيلق في قوريني.



«كلمة شكر وامتنان»

وفي الختام يود الباحث أن يتقدم بالشكر إلى رئاسة مصلحة الآثار الذي رخصت له دراسة هذه النقوش وكذلك د/ محمد الدريس مراقب آثار بنغازي سابقاً الذي كان له الفضل الكبير على هذه الدراسة، كذلك فإن الشكر والامتنان يوجه إلى البروفسور أندريه لاروند والبروفسورة جويس ريبولديز وعنى بالخبر وإلى د/ فاروق شعبان وأيضاً إلى الزملاء في مراقبة آثار بنغازي.

خالد محمد الهدار

الهوامش

- 1 - T.O. Moore, The Inscriptions of Kos (Philadelphia 1971) No. 56 p. 114.
- 2 - M. Rostovtzeff and I.B. Mejerzhinskaya (eds) The Inscriptions of Bactria (London 1952) pl. 6 No 137.
- 3 - A. Rose, Cyprian Expedition of the University of Manchester 1952, pp. 20-21 Fig. 3.
- 4 - Ibid. Fig. 3.
- 5 - G. Pugliese Carratelli, supplemento Epigrafico cirenaico, Annuario della scuola Archeologica di Atene, vols. 23-24 (1961 - 1962) p. 140 Fig. 155.
- 6 - J. Boardman and J. Hayes Excavations at Tera 1963 - 1965, The Aeolic Deposits 2 and later deposits. (Thames and Hudson, 1971) pp. 120 - 123 (Tera 2).
- 7 - D. White, "Cyrene's sanctuary of Demeter and Persephone: A summary of a Decade of Excavations" AJA 85, No 1 (1980) p. 23.
- 8 - J. Boardman and J. Hayes, Op. Cit. p. 120.
- 9 - عبد الله حسن المسلمي، كليبناخوس الثوري، شاعر الإنكسارية مشهورات، الجمعية ليلية (1971) ص 204.
- 10 - نفس المراجع ص 207.
- 11 - J. Boardman and J. Hayes, Excavations at Tera 1963 - 1965, The Aeolic Deposits 1 (Thames and Hudson 1966) p. 169 No 1337. (Tera 1)

- 12 - G. Oliverio, *Documenti Antichi L'Africa Italiana Vol 2 Ciarenza*
 fasc. 2 (Bergamo 1936) P. 240, No. 475 Fig. 38 (Oliverio 1).
- 13 - J.M. Reynolds and J.B. Perkins, *Op. Cit* p.96 Nos. 310 - 312.
- 14 - هذه الكلمة وردت لأول مرة عند اللاتين (حوالي 427 - 347) وذلك
في محاورات Plautus في 885 إلا أن استخدامها انتشر في القرن الثاني
ميلادي.
- 15 - Tacra 2 p. 121.
- 16 - ربما مما يؤيد ذلك أن النقص لم يكتب بطريقة جيدة ويلاحظ الأعمال
من قبل الناشر.
- 17 - C.D. Buck *The Greek Dialects* Chicago - London 1955. P. 158
- 18 - Tacra 2 p. 122.
- 19 - P.M. Fraser and B. Matthews (ed) *A lexicon of Greek personal
Names Vol. 1* (1987).
- 20 - 21 *Ibid.* P. 121.
- 22 - C.D. Buck *Op. Cit* P. 168 and SEG 1a. 72.
- 23 - 24 P.M. Fraser and B. Matthews (eds) *Op. Cit* p. 220.
- 25 - SEG XXI 965 C 2 P. 969.
- 26 - 28 P.M. Fraser and E. Matthews (eds) *Op. Cit* p. 220.
- 29 - SEG XV 370 C 15 p. 79.
- 30 - P.M. Fraser *Op. Cit* P. 220.
- 31 - *Ibid.* p. 221.
- 32 - *Ibid.* p. 220.
- 33 - J.p. Grenell (ed) *Egypt Exploration Fund. The Oxyrhynchus
papyri part 8* London 9 (1909) p. 302 No 1128
- 34 - A.S. Hunt (ed) *Egypt Exploration Fund. The Oxyrhynchus
papyri part 8* London 11 (1911) P. 223 No 1128.
- 35 - A.G. Woodhead *The study of Greek inscriptions*, Cambridge 1967.
- 36 - *Ibid.* P. 64 and No. 6; L.Hammond & H.H.Scullard (eds) *The oxford
classical Dictionary*, second Edition Oxford 1970 p. 393.
- 37 - D. Reynolds «Hamann, Antonius pius and the christianized empire»
- *JRS.* 68 (1978) No. 4 Pl. 4.
- 38 - T.H. Mommsen, *op. Cit* p. 196 No 116.
- 39 - J.Reynolds «Four inscriptions from Bannia-Cyrene», *J.R.S.* 49 (1959)
No 3 Fig. 47 and G. Oliverio «Cirene - Benghazi Iscrizione antiche»
Nouveau Archéologues, Anno 2 fasc. 2 (1976) P. 181 Fig. 3 = SEG
IX 170.

- 40 - T.J. Meind, *Op. Cit.* p. 144 No. 10!
- 41 - *Ibid.* p. 179, No 96 date 211 - 212 A.D. p. 242 No 125 and p. 285 No. 145.
- 42 - P.V.C. Bour (ed) *The Excavation at Dura Europos, Third Report (1922 - 1930)* P. 51, P. 62.
- 43 - G. Oliviero «DAI» Vol cinotica fase 2 (Bergamo 1933) PP 177 Fig. 52 = (SEG IX 138) date 223 - 224 (oliverio).
- 44 - G. Oliviero DAI vol 2 cinotica fase 1 (Bergamo 1933) pp. 101 - 103 No 68 Fig 23 (oliverio).
- 45 - هناك بعض النقوش الإغريقية التي أرخت وفقاً لتاريخ الأكتومي (31 ق.م) تظهر بها بعض السميات تجعلك تشك في صحة تأريخها وفق ذلك التاريخ، وتظهر صلور الدراسة التي أعدها J. Reynolds على النقوش الإغريقية في توكرة على أن ليعط الثام عن تأريخ هذا النوع من النقوش.
- 46 - *Oriens* 1 N. 256 Fig. 19.
- 47 - J. Reynolds «Epigraphic subjects matters in cyrenaita» *Libyan studies* 6 (1974 - 1975).
- 48 - *Tuara* 2 p. 107.
- 49 - *Tuara* 1 p. 121.
- 50 - A. Cassini, *scavi Di siracus*, Epistolaro (Milano 1969) epist 3 p. 17.
- 51 - E. Sca, «Architectural Decorations» *Excavations at site khrosh* (Bermea) Vol. 1 suppl. *To Libya Antiqua* 5 (1979) p. 266 pl. 300.
- 52 - C.H. Kraeling *ptolemaic, city of the libyan pentapolis* (Chicago) 1962 p. 219 - 220.
- 53 - S. Stacchi, *L'Agora Di siracus* (Roma 1965) p. 190 Fig. 114, p. 136 pl. 29.3.
- 54 - G.R.H. Wright «Architectural fragments from the peninsula Apullonia the part of cyrene. Excavations by the university of michigan 1965 - 1967 *Suppl. To L.A.* 4 (1976) pp. 220 - 232 Fig. 29 Nos 2,3.
- 55 - I. Jemise, «Campagna Di scavi A siracus» *Africa Italiana* 5 (1927) p. 141 Fig 14, p. 154 Fig 23.
- 56 - L. Gasparini «de iurizione del eccetero e della Basilica di siracus» *QAL* 6 (1971) p. 4 Fig 1, p. 5 Fig 3 and p. 7 figs 7K.
- 57 - S. Stacchi «Architettura cirenaica» (Roma 1975) p. 197 Fig 185 p. 232 Fig. 291.

- 58 - M.J.R. Poetho, *Relation D'un voyage Dans la Marmarique la cyrenaique* (Genova 1829) pl. 30.
- 59 - J.Reynolds «A Roman legionary Vitrinan at Tracheiras Lihyan studies (1977 - 1978) pp. 27 - 29.
- 60 - P.M. Fraser and E. Matthews (eds) *Op. Cit* p. 388
- 61 - ز.ج. جودشابلد - مقورينا وأيونونيا إدارة البحوث الأثرية (1970)
جزء 02 -
- 62 - P.M. Fraser, *Op. Cit* p. 198.
- 63 - 64 *Ibid* p. 298.
- 65 - *Ibid* p. 299.
- 66 - 67 - *Ibid* p. 299.
- 68 - A.G. Woodhead *Op. Cit* p. 60.
- 69 - M.Luni «Documenti per la storia della istruzione ginnastica e dell'attività atletica in Cirenaica, in rapporto a quella della Grecia. *Qual R* (1976) p. 254 fig. 22.
- 70 - J.Reynolds. «Epigraphic disjecta membra in cyrenica» p. 18.
- 71 - S.W. Stevenson (ed) *Adictionary of Roman coins*. Hildesheim 1986. P. 340.
- 72 - R.G. Goodchild, *The Roman Roads of Libya and their Milestones in Ft. Bahalla. Libya In History* Beirut 1968 p. 171.
- 73 - (R.M.Harrison) J.M. Reynolds, A sixth-century church at Ras el-Khal in cyrenica, Appendix 1: The Greek and Latin inscription *J.B.S.R* 32 (1964) P. 18.
- 74 - J.M. Reynolds and J.D. Woodperkins (eds) *Op. Cit* No 463 p. 131.
- 75 - R.G. Goodchild. «Roman milestones in cyrenica» *P.B.S.R* 18 (1950) p. 88.
- 76 - R.G. Goodchild. *The Roman Roads of Libya and their Milestones* p. 170
- 77 - J.M. Reynolds and J.D. Woodperkins (eds) *Op. Cit* Nos. 270 - 430.
- 78 - *Ibid*. No. 309 p. 44
- 79 - L. Brügge *Roman imperial coins Transes and Indes*. London 1968 p. 208
- 80 - د. محمد تشاراز وريت «الإمبراطورية الرومانية الشرقية برمي حنة جرجس»
دار الفكر العربي 1961 من 18.
- 81 - M. Cary and E. H scullard *A History of Rome Third Edition* London 1975 p.

- 82 - E.C. Goodchild «The Decline of cyrene and Rise of ptolemais: Two new inscriptions. QAL. 4 (1961) p. 90.
- 83 - (R.M.Harrison) J.M. Reynolds, Op. Cit p. 18.
- 84 - G. Giambuzzi. «Lessico delle iscrizioni latine delle cirenaike». QAL 6 (1971) p. 87.
- 85 - G. Cary and H.H Scullard Op. Cit p. 524.
- 86 - هذا القوس اكتشفه حديثاً الأستاذ فؤاد بن طاهر من قسم الآثار بجامعة تريبوليس من خلال ملاحظات دقيقة أبدعها على وجمعية مبنى مقام في منتصف الديكومنومس وقد قدم تقريراً عن هذا القوس إلى مراقبة آثار بنغازي ومما يجدر بالملاحظة أنه لم نجر به أية حفريات حتى الآن.
- 87 - وفي هذا الصدد يجب أن نذكر أن مباني لوكرة القديمة قد بنيت من أحجار المدينة الأثرية وشهود العيان على ذلك كثيرين.
- 88 - J.M. Reynolds, & J.B. Wardperkins, (eds) *The Inscription of Roman Tripolitania*, p. 48.
- 89 - *Ibid.* nos. 2, 549, 300, 914, 915, 916, 918, 653, 877, 673, 696, 517, 679, 594, 602, 662...
- 90 - G. Olivieri, *DAL. Cirenaike*, Vol. II No. 535, fig. 100 ar p. 527.
- 91 - G. Olivieri, *DAL. Cirenaike*, I Vol. 2 (Bergamo. 1933) p. 181 No. 54 Fig. 55.
- 92 - اتصال شخصي مع الأستاذ لاروند ومناقشته بخصوص هذا القوس.
- 93 - وهذا ما أملاه علينا نكسة الكعبة الناقصة في السطر الثالث.
- 94 - E.C. Goodchild & J.M.Reynolds, «Some military inscriptions from Cyrenaike» *PBSR*. 30 (1953) pp. 37 - 39
- 95 - *Ibid.* p. 39
- 96 - E.B. Birley. «A note on the Tides» *Annals, JRS*, 15 (1928) p. 56.
- 97 - G. Webster, *The Roman Imperial Army*, (Jordan, 1969) p. 65 No. 2. Cf *Classical Dictionary*, p. 592.

علاقة المؤلف بالناشر

إعداد

د. إبراهيم أحمد المهدي

رئيس قسم المكتبات والمعلومات

في

كلية الآداب والتربية

جامعة قاريونس

بنغازي الزاهرة 27 / 11 / 1994 م

علاقة المؤلف بالناشر

إن الكتاب التقليدي كان ولا يزال وميض نوحه المنفصل لحفظ المعلومات وتوصيلها، وأداة البحث العلمي الأولى. وبما أنه على هذا الجانب من الأهمية، فلا بد من دراسات تتناول الجوانب المختلفة لهذه أوجهه، ومنها العلاقة بين المؤلف والناشر، وهو موضوع هذا البحث. وبهذه العلاقة لا بد من أن تقوم على تفهم دور كل منهما، وهي علاقة تعاون، لا ميماء وأن دور كل منهما يكمل لدور الآخر، إذ لا بد من أن تكون علاقة ودية، ورغبة هذا فد يشوبها التذمر وسوء الفهم بسبب ما أو آخر.

والمؤلف والناشر يمثلان إحدى الأطراف المشاركة ولاكثر بروزاً في صناعة الكتاب مقارنة مع صاحب المطبعة (الطابع)، وبياع الكتب، والواقع أن هذه العناصر الأربعة (المؤلف - الناشر - صاحب المطبعة - بائع الكتب) هم حلقات في سلسلة صناعة الكتاب ونشره.

فالمؤلف يعتبر منبع الأفكار وتنظيمها، فهو المسؤول عن كل ما يورد من عبارات وبيانات (جدول، ورسمات، وخرائط، الخ)، والتي يقوم باختبارها أو تصديدها لتوضيح الرسالة (الفكرة) التي يرغب في توصيلها إلى القارئ.

هذا ومن ثم فإن المؤلف الحق في بيع المخطوط أو التنازل عنه لقاء نقد يبرم مع الناشر، أو نشره بالفعل على حسابه، بشرط أنه لم يخرج عن التعارف عليه عسبياً في الاعتماد على مؤلفات الآخرين. فالمخطوط إذاً يعتبر من إنتاجه فهو المسؤول عن كل فكرة يفسدها قانونياً، إلا أن الناشر يشاركه في بعض تلك المسؤوليات، ومن بينها ما يمكن وضعه تحت جرائم النشر التعارف عليها قانونياً. فلفظة مؤلف تطلق قانونياً على فرد أو جماعة أو مؤسسة أو هيئة رسمية أو غير رسمية وكذلك لفظة ناشر، فقد يكون الناشر فرداً أو جماعة أو هيئة حكومية رسمية أو غير ذلك.

ربما أن المؤلف يعتبر من التابعين القانونية مالك المخطوط، فهو مجبر أمام مصنعه ومصنعة المجتمع؛ أن يقوم إما بنشر المخطوط بنفسه، أو يبيع أو التنازل عنه للناشر ليتولى مهمة نشره مباشرة بعد إبرام العقد العتق عليه، باتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بنشر الكتيب أو مخطوط المؤلف لتداوله بين العامة، وفقاً لما هو متعارف عليه تجارياً في المجتمع. لكن هذا لا يعني أن على كل مؤلف أن يقدم مخطوطه ناشر من أجل مصنعه المجتمع الذي يعيش فيه، سواء أراد أم لم يرد، نعم إن مصنعة المجتمع أهم من مصنعه! لكن هذا في الواقع يعني أن المؤلف باعتباره فرداً من أفراد المجتمع، لا يحق له مطلقاً تجاوز حدود القانون في معارضة من يتوب عن المجتمع أو السلطة المختصة وإلا تعرض للعقاب.

هذا ما كان يحدث في بعض المجتمعات ذات النظم السيامية المنقرضة أو غير الديمقراطية، التي لا تراعي مبادئ حقوق الإنسان وحرية الفكر! أما في المجتمعات المتطورة التي تؤمن بحرية الإنسان واحترام آرائه فإن حرقه أو التأديب والنشر تشهد ازدهاراً، ومن ثم يتزايد عدد المؤلفين والناشرين، مما يؤدي إلى انحصار نسبة الأهمية بين مواطنيها.

فبالقراءة نظرة سريعة على قوائم المؤلفين والناشرين يتبين لنا أن عدد الناشرين قد بلغ حوالي 35000 ناشرًا في العالم وأن نصيب قارتنا الحمراء منها 1317 ناشرًا، وأن أوروبا تحتل المرتبة الأولى وقد بلغ عدد الناشرين فيها 16530 ناشرًا، ثم تليها أمريكا الشمالية مع 7502 ناشرًا، وفي آسيا 5519 ناشرًا، ثم تليها أمريكا الجنوبية بـ 1631 ناشرًا⁽¹⁾.

أما بخصوص عدد المؤلفين الذين حققوا شهرة دولية طالت في الولايات المتحدة الأمريكية بالمرتبة الأولى، بعد أن بلغ عدد المؤلفين فيها 47 مؤلفًا شهرة عالمية، ثم تليها بريطانيا حيث بلغ عدد المؤلفين الذاتيين الصيت فيها حوالي 36 مؤلفًا. وإن أعداد هؤلاء تتناقص في بقية الدول ولا سيما في دول العالم الثالث.

إن هؤلاء المشاهير هم الذين تمت ترجمة أعمالهم عشرين مرة فأكثر وقد بلغ عددهم حوالي 175 مؤلفًا في العالم بأكمله⁽²⁾.

وبالنسبة لعلاقة المؤلف بالناشر فإنها تأثر سلباً أو إيجاباً بعدة عوامل، منها: الحالة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية... إلخ، المسألة في مجتمع آخر يمكن (المؤلف والناشر)، وحقبة لغويين والتشريعات المعمول بها لحماية حقوق التأليف والنشر في المجتمع، لأن المؤلف مطمئن الحرية في نشر مخطوطه أو إحصائه لمدة زمنية قد تكون محددة؛ ليعود بعدها بنشره خلال حياته أو أنه يترك وحيدته بخصوص نشره بعد وفاته، وهذه تعرف بالطبعة اليتيمة لدى المكتبيين. وإن إبرام عقد النشر مع أحد الناشرين لا يعني هذا التصرف بعدد كما يبدو لبعض أو المختار عن كلياً، لأننا نعلم

(1) اسم المؤلف: مصطفى النحر والصحافة وقضايا الكتاب الذي عقد بتاريخ 11/11/1983 في القاهرة.

(2) حيفة، شومان الكتابي المصري: دراسة مطروقة في حركة النشر الحديث. القاهرة: المكتبة الأكاديمية 1993 م. ص. 57، 59.

يتبع بكل أحاسيسه كانه العراجل التي يعربها مخبره إلى حين خروجها إلى النور.

فالمخطوط الذي يمثل جوهر العلاقة بين المؤلف والناسخ، يعتبر بالنسبة للمؤلف شيء عزيز عليه لا يصبر على فراقه، ويتضح لنا ذلك جلياً من أجدادنا العرب السابقين لنا حيث نجدهم ينظمون قصائد الرثاء عند وفاتهم لمخطوطاتهم بسبب بعض الظروف، التي قد تجبرهم على ذلك كما يتضح في قول ذاعرنا أبي الحسن علي بن محمد بن ثابت الخولاني المعروف بالعداد المهدي: كما في الآيات التالية⁽¹⁾:

فألت ولدت صفحة	كالتمن من تحت الضيق
بمث الدفاتر وهي آخر	سأبغ بمن الضيق
لأحبها وبدي على	كبدني وعتقت بأقبيح
لا تعجبني معاً وأب	فحنن في زمن الضيق

حقاً إنه الضيق بذاته، كما يورد شاعرون. فالمؤلف عندما يبيع مخطوطه للناسخ فإنه ينفصل عنه ويرثمة محددة؛ ولكن ملكيته تعود للمؤلف بعد مضي محددة بالعدد.

فالمخطوط أو الكتاب كما يعتقد العرب خلال عصر ازدهار الدولة العباسية كان يملك مؤلفه؛ فشخصية الجاحظ أو الإمام الخزازي وكثير غيرهم من مؤلفي العرب المسلمين في صدر الدولة العربية الإسلامية وصلت إليها شهرتهم من خلال مؤلفاتهم التي كانت قد خلدتهم بالفعل، وهكذا نجد أن العرب هم أول من فكر في إنتاج نسخ من مخطوطاتهم في إحدى الخزان (المكتبات) المشهورة في عصره، ومن ثم فقد ابتكروا حق الإيداع القانوني المتعارف عليه حالياً.

(1) إحسان، حيدر، أخبار وأرقام فلسفية: مستخرجة من معجم السفر للسلفي (576)

ص 14، بيروت: دار الفانق، 1979، ص 75

المؤلف عندما يتنازل عن مخطوطه لنشره مقابل مبلغ مالي، فإنه يبقى مرتبطاً بصلته ووحية مع مخطوطه إلى الأبد لهذا نجد يدافع عنه بكل ما يملك من حقوق وضعت لحماية من المجتمع اعتزافاً بغضه وتفسيراً لعزله بين مواطنيه. تلك الحقوق التي تنظم أو تعكس العلاقة ما بين المؤلف وبقية الأطراف الأخرى التي تساهم في صناعة الكتب أو تلك التي يهتمها استعمار الأفكار أو النظريات الواردة في الكتاب. وبصفة خاصة لعلاقة مع النشر، وهذه يجب أن تكون علاقة ودية حميمة قبل أن تكون علاقة رسمية تتحكم بها القوانين الصادرة في المجتمع لحماية حق المؤلف وتغريم حركة النشر. فتحدد قيمة المكافأة المالية للمؤلف مقابل جهوده يجب أن يتم وفقاً لعدد القراء الذين سوف يستفيدون من الكتاب، أو من يستثمرون الأراء أو النظريات العلمية التي يتضمنها الكتاب بمصالحهم.

وعلى الناشر الخبير أن يكون ملماً، منذ البداية، بسبب القراء في هذا المجال في مجتمعه، هذا إذا كان يريد أن يقتصر على بيع الكتاب محلياً. أما إن أراد بيعه دولياً أو قوياً عليه الاستعانة بإحصائيات حول أعداد القراء الذين يجيدون القراءة باللغة التي سوف يتم نشر الكتاب بها. ومهما بلغنا في تفسير قيمة المكافأة للمؤلف مقابل التنازل أو تأجير أو بيع حق ملكية مخطوطه، فإنها لا تساوي شيئاً يذكر مقارنة مع مدخول أصحاب العجين الحرفية الحرة قسماً كما في السيرات يكسب في الساعة الواحدة مبلغاً قد يتراوح ما بين 25 - 30 ديناراً ليبيا فإذا فرضنا أنه يشتغل عشرة ساعات يومياً لكم سوف يكسب في الشهر؟ فهل يستطيع المؤلف أن يحصل على مثل هذا

(1) د. توماس، من. سيك. صناعة الكتاب من المؤلف إلى الناشر إلى القارئ. ترجمة
د. محمد فهران وآخرين. القاهرة: مؤسسة برانديان لصناعة النشر، 1970 م.

الخبز أو نصفه شهرياً؟ علماً بأن المؤلف قد يفتي سنرات في تأليف كتاب واحد فقط بالإضافة إلى ما يعاينه من إحباطات في ضياع الوقت والجهد بحثاً عن مصادر المعلومات الضرورية (إنجاز عمله أو توثيق أرائه). إن الوقت الذي يفتيه المؤلف في عمله غير محدود ساعات، بل بسنرات عديدة. نشأتان ما بين خدعتن الطرفين: أحدهما يقدم خدمات لزيائته والأخر يساهم بأفكاره في تطوير المجتمع وتغييره، ومع ذلك فإن هناك بون شاسع بين دخل هذا وذلك. وفوق كل هذا فإن نسبة مينة قد تزيد عن 7% من قيمة المكافأة تدفع للضرائب، علماً بأن صافي حقوق المؤلف لا تزيد عن 10% من قيمة بيع الكتاب بينما الناشر قد يحقق ربحاً صافياً يتراوح ما بين 15% و 20% من القيمة الإجمالية لبيع كتاب المؤلف⁽¹⁾. هذا بالإضافة إلى ما قد يتعرض إليه المؤلف، وأحياناً الناشر معه والطابع أيضاً في بعض القضايا المترتبة على نشر المخطوط. فنناشر بهما كان مستوى ثقافته لا يستطيع أن يعبر عن أفكار المؤلف الواردة في المخطوط، بالإضافة إلى أنه قد يقع في دائرة المحضرون ويخسر رأسماله أيضاً. لهذا على الناشر أن يتجنب ذلك بقدر الإمكان بتوثيق علاقته مع المؤلف، ومع ذلك عليه أن يتجنب التمادي والانجراف في نشر الحدو السياسي في مجتمعه... فهو يحمل أمانة الإلاغ الرسمية التي يفتسها مخطوط المؤلف إلى مجتمع القراء، معتمداً على مهارته وحسن إدارته، وعلاقته مع الجهات الرسمية في المجتمع بهدف توصيل محتوى رسالة المؤلف بكل حراة وثقة وإخلاص قبل أن يتم تعطيلها أو بترها، لإخراجها مبثورة مشوهة لا تعطي المعنى ولا الفائدة المرجوة منها. وهذا بالتأكيد سوف يترتب على مدى حسن بية المؤلف وناشر معاً، وتوع العلاقة بينهما، فحزمهما على مصلحة المجتمع يجب أن يسبق حزمهما على مصلحةهما الخاصة معاً.

(1) القلائ، أحمد. الناشر ونشر المخطوطات. تعازي: جامعة القرويين، 1994، ص

والمؤلف شخص قارئه بالإضافة إلى أنه يتقبل آراء الآخرين المحيطين به ويقترب منهم ويتأثرهم وخاصة من الناشر الذي يتعاضد معه؛ لكن هذا لا يعني بالضرورة أن المؤلف يجب أن يأخذ بمقترحات الناشر وآرائه خارج نطاق المعقول، فبالرغم من أن الناشر قد يلعب دوراً هاماً في توجيه المؤلف نحو قضايا معينة يراها تهتم المجتمع لغرض الكتابة عنها، ورغم أن هذا التوجيه أو لفت النظر للمؤلف من أجل الكتابة في قضايا معينة قد يخلف تقييداً بالالتزام بقضايا المجتمع في بعض المجتمعات التي يكون التشريع فيها ذري صفة رسمية حكومية أو شبه رسمية، لكن على المؤلف، باعتباره شخصية مبدعة مبتكرة، أن يعود إلى ذاته وشعوره وتدبر تلك القضايا المطروحة عليه من قبل الناشر، الذي يعكس في نواحي اهتمامات أفراد المجتمع لكي يمكن أن يصل إلى قرار سليم قبل أن يتجرف في زمرة شعوبه الخلفية خاصة وأن الفكرة لا يمكن نفيها حسب معايير وقياسات مزاجية محددة كبضاعة يطبخها الناشر نياة عن المستهلك، فيقوم المصانع بتأجيلها وفقاً للذوق الناشر والمستهلكين الذين يقومون باستهلاك البضاعة ورعي العيب التاريخي. ورغم وجود نية تشابه بين بعض العمليات في إنتاج البضاعة وتصنيع الكذب أو نشره، إلا أنه يوجد اختلاف كبير بينهما، فالأفكار التي يوجد في الكتاب لا تهضم بقدر ما تستطير. والوهاء الذي تحنط فيه تلك الأفكار لا يرس في سلة المهملات، بل يجب الحفاظ عليه ووضعها على رفوف المكتبات عذبة، لأنه جزء لا يتجزأ من المضمون، فالمؤلف والناشر لا يستطيعان أبداً التخلص من الكتاب نهائياً، فالأفكار التي يشتمل عليها سوف تكون لصيقة بالمؤلف إلى الأبد؛ أما شكل الكتاب وتصنيفه فهي تعود للناشر الذي يقدسه للقارئ، قالوا: «هذا كتاب».

والحرفوس أن المؤلف يميز بصفتها أخلاقية وعلمية راقية كشرية كالتسوية فهو الآخر شحص قارئه قبل أن يكون مفكراً، وينطبق عليه القول الشهير «ما نقرأ لنا أنكر... إذاً فلنا موجود لمصلحة الآخرين الذين أصبح

بينهم في هذا الكون»: لذا لا يهجم الناشر التمادي بقدر ما يهجم تقصير المجتمع له معويًا. فيحرص على تكوين علاقة جيدة مع أفراد المجتمع الإنساني من خلال علاقته مع الناشر لأنه هو الشخص الذي يقدمه إلى أفراد ذلك المجتمع بواسطة تدبير أنكاره بل وأحاسيسه الواغية لنشرها على الملأ. يجب على المؤلف أن يصيغ أفكاره بوعي كامل ليقتضها إلى أبناء مجتمعه بكل صدق وإخلاص، عن طريق إقناع الناشر بأنه قد يتعلم حوذة لوعي للمؤلف ثابته حتى بعد انحصار انحدار السياسي حوته. ورقم كل هذا فإن العلاقة السنية بين المؤلف والناشر: يجب أن لا تستغل لتعبر ما يجرح شعور المجتمع ككل أو كشف عورات الآخرين. فالعلاقة بين المؤلف والناشر يجب أن تقسم بالموضوعية وعدم التحيز، فمادة الكتاب يجب أن تتميز بنظرة إنسانية سامية، فهي تعالج قضايا إنسانية وليست قضاياهم أفراداً معينين في مجتمع ما. وبالتالي يقوم الناشر باختيار تلك الموضوعات لشراء، وهذا في الواقع ما يوضح إليه كل من الناشر والمؤلف.

المؤلف لن يكون مرثياً مشهوراً إلا إذا تمت ترجمة كتابه أكثر من عشرين مرة كذلك الحال بالنسبة للناشر. ومن ثم فقد تكون علاقة أحدهما بالآخر مياً في شهرتهما معاً. فعلاقة المؤلف بالناشر يجب أن تكون من أجل تحقيق أهداف نيلة، وأن التعاون بينهما مطلوب جداً: أما التوتر في العلاقات فممنوفس بلشر الإمكان. فالرغم من أن المؤلف قد يجده لا يتحمل مسؤوليات ثقيلة مع الناشر خلال مراحل عمليات نشر المخطوط، إلا أنه في الواقع نجده يساهم في مراجعة تجارب طباعة المخطوط. وأن رسالت صفحة الغلاف التي عادة تكون رسومات أصلية للمؤلف، قد تضفي على الكتاب قيمة جمالية *aesthetic value* بين القراء، فالإضافة إلى كونها تساعد في ترويج الكتاب وتوضيح أرائه للقراء. فالمؤلف يعتبر أفضل من غيره في التقييم ببعض الإجراءات الفنية التي تساعد على إنتاج بعض المكتبات ومراكز المعلومات في شراء نسخ من الكتاب. ومن هذه الإجراءات إعداد مستخلص

وكيفان لموضوع الكتاب. وأن تحديد موضوع الكتاب المتمثل بالعنوان الجيد يساعد في تحديد رقم التصنيف، وإعداد بقائات الفهرسة للكتاب، واختيار الكتاب من قبل القراء.

وعلى الرغم مما أشرنا إليه من العلاقة الوثيقة بين المؤلف والناشر، إلا أن تلك العلاقة قد يشوبها الكثير من التذمر الذي يشتد أحياناً ما بين الشريكين المصنوعين، حتى ليكاد يضر بمصلحة الجميع، فعادة ما يضطر بعض الناشرين إلى تقييم مخطوط المؤلف بأنفسهم دون اللجوء إلى لجنة متخصصة تساعدكم في ذلك لأسباب مائة. إن الناشرين من هذا القبيل لا يهتمون بمصلحة المجتمع بقدر اهتمامهم بمصلحتهم الخاصة. فيقوم هؤلاء الناشرين بشر الأعمال التي تجلب الربح السريع، خاصة إذا ما كانوا يعانون من ضائقة مالية في تسديد الديون المترتبة. وبينما التصرف واللامبالاة قد تحجب عن المجتمع أعمالاً جيدة بموازين أكتفاء. كما يمكن أن يكون الناشر مدفوعاً من قبل جهة معينة سياسية أو دينية عندها لا يهمه ما يشر بقدر ما يهمه الربح من وراء ذلك.

وهناك طائفة أخرى، وهم الناثرون الشوفينيون أو التفروديون الذين يقومون بشر ما يلائم مراجعهم خاصة في العالم الثالث، بالإضافة إلى ممارسة قرصنة الكتاب Book Piracy حيث يقومون بسرقة جهود الآخرين وانتحالها لأنفسهم أحياناً. إن مثل هذه التصرفات قد تقود الناشر إلى ممارسة الاحتكار للأعمال التي يقدمها له المؤلفون ولحبة في نشرها، وهكذا يضطر المؤلفون إلى عدم التعامل معه مرة أخرى، ومن ثم يكون الناشر مسؤولاً بطريقة غير مباشرة عن حرمان المجتمع من ثروة أفكار مؤلفين أكتفاء مع ما فيهم من مؤلفين مبتدئين لا زالوا في بداية الطريق. إن الإحباط من جراء عدم تبليغ أفكارهم بواسطة ناشر إلى القراء سيجعلهم يكتبون بتخزين مخطوطاتهم (أفكارهم) لي أدرج مذكراتهم، وربما إلى الأبد. بالإضافة إلى أن هذا التصرف من قبل الناشر يسيء في الواقع إلى علاقته مع المؤلف، فإنه يسام

في إحاطة نشر الأفكار التي تنمو وتزدهر عن طريق الناشر، وبالتالي المساهمة في انتشار ثقافة القراءة بالمجتمع. فعلى الناشر أن لا يهجره بتيارات الحال لأن هذا قد يؤدي به إلى الابتعاد عن القراء، بحيث يصبح غير قادراً على التمييز ما بين الكتب الرخيصة المبتذلة والتي تناع في الخفاء كجنية السمومعات في بعض الدول⁽¹⁾، بل على العكس من ذلك يجب أن يكون مدركاً لاتجاهات الجماعات والأفراد وثقافتهم وحيولهم العلمية والثقافية وهذا لن يتحقق إلا إذا كان على علاقة جيدة مع نخبة من المؤلفين بالمجتمع. فالناشر يجب أن يختار المخطوط بدقة وذلك من خلال تصفح وعلاقته بالمتقنين وعلى رأسهم المؤلف، ثم معرفته بميول القراء. فبال تعاون بين المؤلف والناشر يمكن الإشراف على المنشورات حفاظاً على معتقدات المجتمع وقيمه. وهكذا يستطيع الناشر أن يخدم المجتمع كالطبيب الذي لا يصرّف الدواء إلا بعد تشخيص المريض. عندها يمكن أن يرتفع الناشر فوق الشهات، ويقدم خدمة جليلة لمجتمعه. فرغم أن علاقة المؤلف بالناشر ودية، إلا أنها يجب أن لا تخرج عن القوانين والشريعات الخاصة بحماية حقوق المؤلف، المحمول بها داخل المجتمع، بالإضافة إلى الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية وغيرها كالمستوى الثقافي، كلها عوامل ذات تأثير كبير على العلاقة بين الطرفين.

وبما أن الناشر يعتبر شخصية مفامرة لكونه يُقدّم على نشر الكتب المعرّضة لمخاطرة أو الربح أحياناً، فهذه غير مأمونة، ونكته بالواقع يساهم في تنمية المجتمع، والمعروف أن ميزانية المجتمع تصرف لأجل تنمية المجتمع لتوزيع على قطاعات متعددة⁽²⁾ ومن بينها صناعة النشر. وهذا جانب ثقافي لا يمكن إهماله، فعلى المجتمع تخصيص مبلغ مالي لدعم صناعة نشر

(1) فغلان، أحمد المصدر السابق من ص 66 إلى 65.

(2) Doyin, O. A. The role of the Nigerian Publisher in National Development. (2) International Library Review, Vol. 23, No. 3, Sept. 1951, p. 215.

الكتاب التي يدورها ويخصص لها بل وينفذها الناشر مقابل نوائد محدودة جداً
 قد تساعد في تجاوز المشكلة المالية. وهذا هو مصدر الخراب في العلاقة
 التي تربطه مع المؤلف. ولهذا يجب على الطرفين المؤلف والناشر أن يعدلا
 بدأ من أجل إيجاد علاقة متينة بينهما تكون مبنية على التفاهم والتعاون،
 برهنة وأن كل واحد منهما لا ينكر لي نوازه نفسه بأنه غير قادر على أن يفعل
 شيئاً بدون الشريك الآخر في صناعة الكتاب.

د. إبراهيم أحمد المهدي
 رئيس قسم المكتبات والمعلومات
 جامعة قازوين، أبخازي

نظرية فن القول
عند حازم القرطاجني

يقلم

د. محمد المهدي الغزالي

كلية الآداب والتربية

جامعة قازوين

بنغازي

نظرية فن القول عند

حازم القرطاجني

د. محمد المهدي القرطاجي

حرف حازم القرطاجني⁽¹⁾ في العصر الحديث أول ما حُرف بما قصودته

(1) هو أبو الحسن حازم بن محمد بن الحسن الأرسب. ولد عام 1608 هـ - 1211 م بمرسى قرطاجنة الواقع بالجنوب الشرقي من بلاد الأندلس قرب مدينة مرسية واشتهر بنسب إلى سقند وأنه هذا حرف بالقرطاجني. نفس حياته الأولى في الأندلس متطوِّبة بين قرطاجنة ومرسية وقسطنطينية وأشبيلية قبل أن يهجر لمدينة الأندلس نهائياً - على أثر الاحتياج الأساسي لبلاده - ويستقر بقية حياته - بعد أن مر بالمغرب الأقصى - في تونس حيث توفي عام 684 هـ - 1183 م

صاح القرطاجني في العلوم الفخرية والفنونة والعقائد أيضاً. وكان بارعة للاعول والآداب وكان شاعراً له شعر كثير صحت حديثاً في ديوان أحمد بن حازم القرطاجني - نشر التعديت، بيروت، 1964 م، مجلد واحد. على أنه أشهر أعماله الشعرية قصيدة المنصورة التي نظمها على بحر الرجز واحتوت على ستة وألف بيت عارض بها منظورة من فريد وجدها في مدح المستنصر أمير تونس العنصر. وأغراضها - في الحقيقة - متعددة فقد شملت الغزل والحكمة والنقل والوعظ والنصائح والاعتبار وكانت في أساسها تعبيراً عن حنين حازم وذكريات الجملة بالأندلس؛ روصفاً لأماكن أباه ابخلية في مدائن الأندلس البهيجة؛ وتذكيراً بأسباب هزيمة المسلمين في تلك الديار؛ ومن ثمه اللحنونة القصيدة النحوية التي لا تزال صياغة بعضها الذي لم يكتمد حازم في مكتبة الأسقفية بجامعة الزيتونة بتونس وهي قصيدة ميمونة من تسعة عشر ومائتي بيت، من بحر البسط عارض بها بن سبط وابن

الشعرية التي كشف النقاب عنها المستشرق الأسباني أميليو غورسيه غومس عام 1933 في: ملاحظات على القصيدة المقصورة لأبي الحسن حازم القرطاجني⁽¹⁾ حيث أشار إلى اهتمام الأوتل بهذا العمل المعتبر ومنهم المرناطلي⁽²⁾ الذي حارن نفس المستشرق الترجمة له كما ترجم لحازم.

وفي الوطن العربي كتب الدكتور مهدي علام في أوائل الخمسينات مقالين حول حازم القرطاجني ووطن المقصورة في الأدب العربي وقام بتحليل لعمق مقصورة حازم⁽³⁾

وفي مجلد⁽⁴⁾ إلى طه حسين، شارك الدكتور عبد الرحمن بدوي بمبحث عنوانه: حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة كشف فيه النقاب عن أهمية كتاب آخر لحازم القرطاجني هو كتاب: المنهاج البلاغ والسراج الأبداء، يفضّل بالبلاغة والتفنيد ويتم عن تأثير أرسطو طاليسي واضح، ونشر لأول مرة المصحح الثالث من القسم الثاني (أي الفصل الثالث من الجزء

ماتك. وحازم أيضاً بنفس المكتبة ثلاث ورقات من كتابه مخطوط في الفرائد. ومن قراء البلاغية والفظة الكتاب الذي نحن بصدده استجلاء نظرية فن القول فيه وهو: «منهاج البلاغ وسراج الأبداء».

نظر حيا: حازم ومبعضات حازم من مقدمة كتاب منهاج البلاغ وسراج الأبداء ط تونس 1966 لمحمد الحبيب ابن الحويجة.

(1) مقال في مجلة الأناسي، المجلد الأول من 81، ص 104.

E. Garcia Goma: «Observaciones sobre La Qasida al-maqura de Abul-H. Hazzam al-Qurtajini», Al-Andalus, t. 3. - 104.

(2) لحد رجال القرن الثامن الهجري وأدبيته عام 197 هـ - 1297 م وتوفي بمرناطة عام 760 هـ - 1359 م. وعنوان ترجمته هو: فروع الصبب المقصورة عن معاني المقصورة، نظر منهاج البلاغ وسراج الأبداء، مدخل منهاج ص 84.

(3) الدكتور مهدي علام «أبو الحسن حازم القرطاجني ووطن المقصورة في الأدب العربي» مقالات في بحوث كلية الآداب جامعة عين شمس (جامعة إبراهيم باشا) ج 1 ص 1، ج 2 ص 1، ج 3 ص 1، من 110 المقابلة 1953 - 1954.

الذي) الذي يظهر فيه تأثير أرسطو صائبا هذا⁽¹⁾.

وفي عام 1966 قام محمد الحبيب ابن الحويجة بتقديم وتحقيق مخطوط هذا الكتاب الهام ضمن دراسة قُدمت لدرجة الدكتوراة بجامعة البريون بفرنسا⁽²⁾ وتضمنت هذه الدراسة توافقة تعريفاً بحياة ومصادر حياة حازم ومؤلفاته مع تحليل لما بقي من أقسام ومناهج الكتاب.

وفي عام 1977 قُمت بدراسة ونُشرت على الأندلس والمصطلحات الفنية التي تضمنتها هذا الكتاب ومدى أثر أرسطو صائبا في ذلك⁽³⁾.

وأحاول في هذا المقام أن أترجم نظرية متكاملة لحازم القرطاجني في قول القول عامة وفرد الشعر خاصة اعتماداً على نصيبي كما وصل إلينا من نصوص هذا الكتاب المثير في إطار ما توفر من أقسامه ومناهجه. وهو قدر لا يتجاوز ثلثي الكتاب كاملاً مع الأخذ بالاعتبار للأهمية التي تُعطى عادة لمقدمات الكتب وبداياتها وهي هنا - للأسف - مفقودة.

• حاول حازم القرطاجني من خلال الأربعة أقسام التي يتألف عليها كتابه: منهج البغاء وسراج الأديباء أن يضع تصوراً لنظرية فن القول عند العرب: وكانت محاوره هذه تُسم بدخنة بالنسبة لتيارات المعاندة عند النقاد والبلاغيين العرب، وهي جنة تظالعا من الوهلة الأولى فتضيقه نكتاب المنهج إلى أربعة أقسام:

(1) انظر إني من حسين، 146:85، مقبرة 1962.

(2) انظر منهج البغاء وسراج الأديباء، أمين الحسني حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الحويجة، دار الكتب الشرقية تونس، 1966. وانظرا

Hicem al-Qartagani PAR Habib Bekhadja, Publications de l'Institut des Belles-Lettres Arabe LUNIS 23, 1967.

(3) LES DIFES ET LES TERMES TECHNIQUES LITTÉRAIRES CHEZ HAZIM AL-QARTAGANI ET L'INFLUENCE D'ARISTOTE SUR CET AUTEUR. Thèse présentée par MOHAMMED AL-MOFTI AL-GHARALI Université de Paris - Sorbonne - Paris IV.

- قسم خاص بالألفاظ .
- قسم خاص بالمعاني .
- قسم خاص بالمعاني .
- قسم خاص بالأسلوب .

يحمل على الاعضاء أن العناصر الأساسية التي تقوم عليها نظريته هذه
وهي :

1 - الألفاظ بأوسع ما يمكن أن تحمل هذه الكلمة من معنى أي اللغة
- أداة التعبير - بكل أشكالها ومستوياتها: الحروف، المقاطع، الكلمات،
الجملة، العبارات، . . إلخ .

2 - المعاني بأوسع ما يمكن أن تحمل هذه الكلمة من معنى . الدواعي
والخواص الشعريّة: حالات النفس «الأحوال»، الأشياء التي تنور حولها هذه
الأحوال (أو كما سماها حازم لجهات) وما يقوم حول هذه الجهات
«الأشياء» من تصوّرات، الدلالات الناتجة عن الصور اليازية والصور
النحويّة للغة الأدبية.

3 - المعاني . يعني البنية التركيبية لصفة الشعريّة بالذات، والنظم بكل ما
يعني من تركيب الأوزان والمناجزة العام للتصديده.

4 - الأسلوب ويعني به ما أخذ الشعراء ومناجرتهم ومنازعتهم في المعاني
الشعريّة .

● في رأي حازم إذا كانت البلاغة معياراً للكلام تنطبق على شعر
انصابتها على الخطابة فإن الفرق بين الصانعين إنما يأتي في الواقع من جهة
الصورة من حيث أن الصورة الفنية للصناعة الشعريّة ليست إلا انعكاساً لعنصر

كتاب

منهاج البلغاء وسراج الأدباء



(هـ) ورد هذا التحريف لتقديم المفهوم - للإشارة - في جانب من الكتاب انظر ص 17 : إيداع 15.

التخييل كما أن الصورة الفنية للصناعة الخطائية ليست إلا انعكاساً لعنصر الإقناع⁽¹⁾ وعلى هذا الأساس تبني حازم وجهة نظر الفارابي وابن سينا في إقامة الصراحة الشعرية - التي تعتمد أصلاً على المحادثة - على التخييل؛ كما أقيمت الصناعة الخطائية - التي تعتمد أصلاً على تقوية الظن - على الإقناع⁽²⁾ وربما لم يجازي تماماً حازم شراح أرسطو طاليس المسلمين عندما أجاز شاعر اللجوء من وقت لآخر إلى عنصر الإقناع حتى أن لا يغفل ذلك عن عنصر التخييل⁽³⁾ ويذكر هنا مثلاً يحدثي - فيما اعتبره مراوغة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطائية - أبا العقب المصنفي⁽⁴⁾ فقد كان هذا كثيراً ما يختم فصول قصائده بأمداد وحكم واستدلالات خطائية بقمة وهي تديلاً لتعريف التخييل عندنا في أول الفصل.

والأهمية الاستدلالات الخطائية من هذه الناحية في الصناعة الشعرية تناولها حازم فتحدث عن الاستدراجات والتموهيات⁽⁵⁾ وتوثق عند التخييل الخطائي الذي لاحظ كثرة استخدامه في الأشعار العربية⁽⁶⁾.

أخرجهموه بكثرة عن سجنه
وإنار قد تفتنى من ناضر السنم
وتناول حازم من ناحية أخرى علاقة التخييل - عنصراً أساسياً هي

(1) نظير - لربما - المنهج الثالث من بحسب المنهاج من 62. ونظر أيضاً المنهاج الثاني من 19 ففهم ج - معلم.

(2) نظير لفصل الأول من: 24 و 25 من: ابن سينا - انشاء - المصنفي - 9 - الشعر تحقيق وتقديم دأهد أروخين بلوي - ط القاهرة 1966. وأخر الفترات الأخرى من مداني شعر من: 15، 16. ابن سينا، كتاب المجموعة تحقيق وإخراج ومحمد سليم سالم مصر 1965.

(3) نظير لمهاج من: 291 - 13 يمامة.

(4) نظير لمهاج من: 63 و 64 - 2 نوير، 3 - يمامة، 4/ نوير، 5/ يمامة.

(5) نظير لمهاج من: 67 - 11 نوير.

(6) نظير لمهاج من: 62، 63 - مقدمة أ، معلم.

الشعر - بالصدق والكذب⁽¹⁾ حيث أكد على أن التخيل لا ينال اليقين كما نطام الظن. لأن الشيء قد يُخيل على ما هو عليه وقد يُخيل على غير ما هو عليه ولذا فإن الأناويل الشعرية غير واقعة تبدأ من طرف واحد من تضييق اللبوس هما الصدق والكذب ولكن تقع تارة صادقة وتارة كاذبة إذ ما تنقش به الصناعة الشعرية وهو التخيل غير مناقض لواحد من الطرفين. يبقى مع ذلك عند تصديق قوته الإقناعية في الخطابة والشعر حسن السواء.

وهكذا من خلال معالجة حازم لمصطلحي المحاكاة والتخيل ومن خلال معالجته لقضية الصدق والكذب في الشعر استطاع أن يُبين عن طبيعة الشعر والصناعة الشعرية ليعرف الشعر أولاً تعريفاً ضيقاً بأنه: «كلام موزون مقفى من شئته أن يحثب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ويكوه إليها ما قصد تكريهه لتُحس بذلك على ظله أو انهرب منه بما يفضله من حسن تخيل له ومحاكاة مستقلة بنفسها أو مُصوّرة بحسن عروبة تأليف الكلام أو قوة حسنه أو نوبة شهرته أو مجسوع ذلك. وقل ذلك يتأكد بما يقترن من أخراب فإن الأخراب والعجب حركة للنفس إذا اقترنت بهركتها الخيالية كوي انفعالها وتأثيرها⁽²⁾ ويعرفه ثانياً تعريف ابن سينا يقول⁽³⁾:

«الشعر كلام مخيل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التضييق إلى ذلك. والسامع من مقدمات مختلة - صادقة كائن أو كاذبة - لا يشترط فيها بما هي شعر غير التخيل»⁽⁴⁾.

(1) انظر منهاج سر: 62، 63 - مقدمة ج. معلم.

(2) انظر منهاج سر: 71 - مقدمة ج. معلم.

(3) انظر منهاج سر: 69 - مقدمة ج. معلم.

(4) وهو يعني تصديق حازم لفنى الشعر والخطابة مؤداً المنطق.

• وإذا كان القسم الأول من كتاب المنهاج يُعدّ حتى الآن مفقوداً فإنّ إشارات المذكورة إليه في الأقسام الأخرى قد دلت على كثيرٍ من المواضيع التي عرّجتها فيه . . .

ويبدو جلياً أنّ حازماً قد عالج في هذا القسم كلّ ما يمكن أن يتعلّق بالألفاظ ابتداءً من تركيباتها الصوتية في أبسط صورها في إطار الكلمة الواحدة أو الكلمات المنتظمة في جملة أو عبارة، وانتهاءً بدلالاتها المعنوية ووضوح هذه الدلالة أو غموضها⁽¹⁾.

وليس هناك أنفى شيء في أنّه قد تناول موضوع حسن العبارة أو قبحها منضبطاً لقضايا بلاغية معروفة كالإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير والقلب والقصر والحذف والوصل والقصر وغير ذلك ممّا يتعلّق بتركيب المعاني النحوية. كما أنّه لا بدّ وأن يكون قد تناول النبة الإسطابية بين الألفاظ كدلالات، وتناول مظاهر الخطاب ووجوه التناسب والتعاضد أو بالتضاد بالتجاور أو بالتقابل. وتعرّض هنا أيضاً لقضايا بلاغية أخرى معروفة كالتمجيد والذم والجناس وكذا التمثيل والمعاقبة والمقابلة والمشابهة وحتى الاستعارة إلى غير ذلك ممّا يتعلّق في البلاغة العربية بمباحث تتصل بالبيان والبديع.

• وفي القسم الثاني الخاص بالمعاني حيث يبدأ كتاب المنهاج الذي بين أيدينا الآن نفقداً أيضاً الفصل (المنهج) الأول من أهميته.

وواضح من الفصول الثلاثة الأخرى أنّ حازماً كان قد حدّد سلفاً وفي الفصل الأول المفقود⁽²⁾ ما يورده بالمعاني⁽³⁾ وفقاً لمنظوره متكامل يبدو أنّ حدّ ما جلياً من خلال الأفكار التي طرحها بالتتابع في بقية الفصول. ففي الفصل الثاني⁽⁴⁾ يتناول - أصلاً - موضوع «اقتباس المعاني واجتلابها» حيث عالج

(1) أشار حازم إلى بعض من ذلك. انظر المنهاج من 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23.

(2) انظر المنهاج من 9.

(3) المنهاج من 11.

نقطة - البواعث الشعرية التي تحرك الشاعر، والحالات النفسية «الأحوال» التي توجه الأقارب الشعرية نحو هذا الغرض المحدد أو ذلك والمعاني الأصلية لمي الشعر التي يمكن تسميتها حقيقة معاني شعرية ليست لم نظر حازم إلا المتصورات القائمة في ذهن الشاعر حول الأشياء «والجوانب» التي يتجه إليها. غرضه الشعري العام. وهو يُعبر عن هذه المعاني من خلال وصف للحالات النفسية المتصلة بتلك الأشياء.

ومن هنا كان حديث حازم في هذا الفصل الثاني عن الجوانب النفسية في العمية الشعرية وهي جوانب لوية الصلة كما نرى بالمعاني الأصلية في الشعر التي لا بد وأن يكون قد تناولها بوسهاب في الفصل المنفرد.

وقد تسرَّق في الفصل الثاني⁽¹⁾ أيضاً لكيفيات مأخذ هذه المعاني ومواقعها من الوجود والعدم ونسب بعضها إلى بعض ومعطيات تعديلاتها وتقديراتها ومعطيات الأحكام والاعتقادات فيها ومعطيات تحد، المخصصة وغير ذلك مما بعده حازم معاني شعرية لتوية بالنسبة لمعاني شعر الأعراب السالفة الذكر. وتُحلُّ هذه المعاني الثانوية على نظره عملية التخيل الشعري على المستوى اللفظي والدلالي وهي ترجع في كليها منها إلى المعنى التي يكرهه البلاغيون العرب خاصة في إطار باب البيِّن من علم بلاغته.

وقد سُرَّ حازم المعاني الشعرية الأصلية «المتصورات» يكون وجوده خارج ذهن الشاعر وجوداً حقيقياً. في حين لمي في وجود المعاني اللفظي خارج اللفظ وجوداً فرضياً لا حقيقياً. كالعلاقة بين الأشياء مثلاً «العلاقة بين الرجل الشجاع والأسد في قولك تحدثت مع أسد».

على أن هناك معاني شوانية تُخرس لها وجود خارج ذهن الشاعر أصلاً: معاني ذهنية صرفة - هذه النسوة - ويعني حازم بذلك تلك المعاني التي تنوِّد عن «الصور» التي تقع في الكلام بتنوع طرق التأليف في المعاني

(1) نظر المنهاج ص 4 - 6 نوبر.

والإلفاظ الدالة عليها⁽¹⁾ وتعكس في هذه عملية التخيل الشعري على مستوى العبارة. ويتناول البلاغيون العرب هذا النمط من المعاني الخيالي الأخر والمعاني الذهنية الصرفة عادة في باب المعاني من علم البلاغة. ولقد لخص عبد القاهر الجرجاني صنوعاً عندما سقى ذلك بالمعاني الشعرية⁽²⁾.

وإذا كانت المعاني الشعرية الأصيلة تُنصل بالجوهر الشعري والحالات العسية والتأثرات التي تحدثها هذه الحالات النفسية بقدر ما تُنصل بما سببه حازم جهات الشعر وتقصدها بالأمياء المعددة التي تنجدها إلى الأعراس: كالحيب، والاطلال، والراحلة، والمملوح وغير ذلك من الأمياء التي تعوم حولها مشاعر الشاعر وتعلق بها غرضه الشعري. لأن المعاني الخيالي تُنصل بمقاصد الشاعر واحتفاناته وقدرته على تمييز مظاهر التضارب والتناسب بين تلك المعاني الشعرية الأصيلة، بقدر ما ترجع إلى معرفته بطرق اختلاف صور تنسب الإسنادية واختلاف صور الوضع والترتيب في اللغة الشعرية الشعرية عنها.

ولما كانت الأمياء التي يمكن أن يتناولها شاعر بالوصف بالجهات أكثر من أن تحصى، كذلك يمكن أن ينطبع في ذهن من عبور لتلك الأمياء «المعصومات» وما يدور في هذا ذهن من شئ أنواع العقول والمقالات وفقاً لحشد هائل من النوايا والاهتمامات والمشاعر والتأثرات. لقد وصل حازم إلى أن المعاني الشعرية المرتكبة عن الأوصاف بحسب ما تنجده إليه الأعراس أجبره أن لا يستطيع إحصاؤها. ومع ذلك فقد وضع ميدانين حائزين للتعرض إلى استشرتها واستبطان تركيباتها⁽³⁾ وهما:

1 - التسلُّو من العم بأوصاف الأشياء وما يتعلق بها من أوصاف غيرها.
(المعاني الأصيلة).

(1) انظر المنهاج من 13 - 11 الأجزاء.

(2) انظر المنهاج من 17 - 18 عندما هذا معلم.

(3) انظر المنهاج من 37، 38 مقدمة هذا معاً.

2- التنبؤ لهيئات التي يكون عليها التآمر تلك الأوصاف وموضوعاتها ونسب
بعضها إلى بعض أحسن موقع من الشؤون والخطن إلى ما يلزم بها من
ذلك بحسب موقع موضع وغرضه غرض. (المعاني الثواني الأولى
والأخرى⁽¹⁾)

المعاني الشعرية



معاني أمثلة

أو

منصورات



معاني ثانوية



(1) ومعاني يائبة تصير حازم للمعاني الشعرية.

• في القسم الثالث من كتاب المنهاج كان هم المؤلف هو دراسة البنية التركيبية في العمل الشعري، هكذا تناول بالبحث - في بداية قصور هذا القسم الأربعة - الصناعة التظمية⁽¹⁾ كحجاب جوهري وأساسي في هذه البنية يحلل فيما بعد على التوالي:

- البيت، باعتباره مقادير معينة من الأسموات الموزونة والمقفاة⁽²⁾.

- الفصل، باعتباره حلقة في تسلسل الإنكار والتعبيرات الشعرية⁽³⁾.

- القصيدة، باعتبارها إطاراً عاماً للأبيات والقصول⁽⁴⁾.

وهذه الثلاثة: البيت، والفصل، والقصيدة تُمثل في ذهن حازم الجانب الشكلي الظاهري في بنية العمل الشعري. وقد أعاد حازم بالمناجاة النظر في طبيعة الأوزان العربية وهو أمر يحتاج إلى بحث خاص⁽⁵⁾.

• وفي القسم الرابع والأخير يتناول حازم بطريقة الخاصة والمتميزة الأسلوب.

وإذا كان التظم في نظره هو - صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والتراكيب - والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض؛ وما يعتمد فيها من ضروب «الوضع وأنحاء الترتيب» فإن الأسلوب يحل في نظره: «الصورة والهيئة التي تحصل عن كيفية الإطراد في المعاني والاستمرار في أوصاف جهة جبهة من جهات عرض القول» والنقلة من بعضها إلى بعض⁽⁶⁾.

(1) انظر المنهاج ص 199.

(2) انظر المنهاج ص 226.

(3) انظر المنهاج ص 287.

(4) انظر المنهاج ص 303.

(5) ل. حمودة - إن شاء الله - إلى محصل ما أحمد هنا.

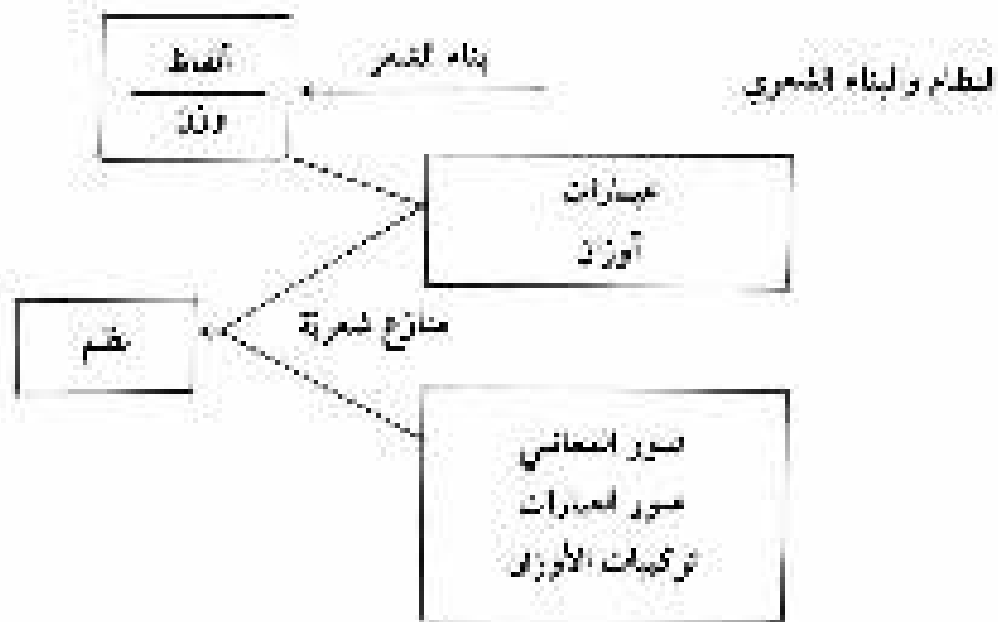
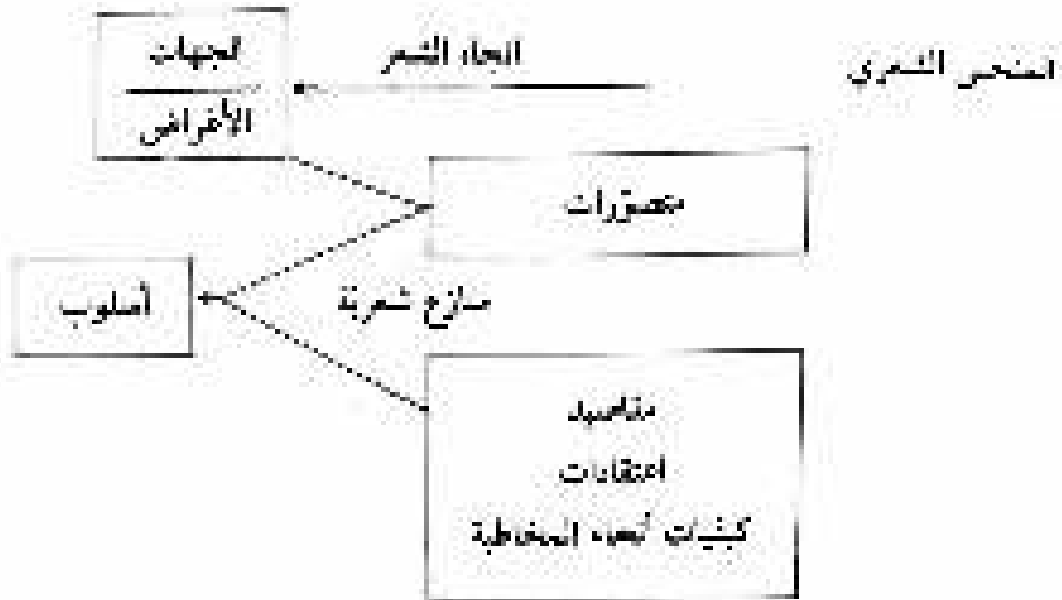
(6) انظر المنهاج ص 363 - مقدمة هذا العلم.

وإذا كان النظام يُعنى في ذهنة البينة أو الشكل العام الذي تأخذه
الصنعة النظرية على مستوى الألفاظ والأوزان، فإن المنحى يمثل في ذهنة
التوجه العام للشاعر في اختياره لجبهات الشعر التي تتعلق بها فروضه واختيار
الأوصاف والمعاني المنصبة بها. وفي إطار هذا التوجه العام (المنحى)
يحدد أسلوب الشاعر.

وهذه الطريقة البينة بين النظم الذي تناوله في القسم الثالث من المنهاج؛
وبين الأسلوب الذي تناوله في القسم الرابع منه يأتي تبعاً للضرورة البينة بين
الألفاظ التي تناولها في القسم الأول من المنهاج وبين المعاني التي تناولها في
القسم الثاني منه.

وإذا كانت النظرية الشعرية عند حازم قد تفرقت بين النظام والنظم من
جبهة وبين المنحى والأسلوب من جبهة أخرى فربما قد جعلت للشعرام منازح
نظمية كما جعلت لهم منازح أسلوبية حتى أن الشاعر ليتميز عن غيره من
الشعراء ويعرف بمنزعه الخاص به في نظمه ومنزعه الخاص به في أسلوبه.
العتبني شاعر حازم المفضل - مثلاً - يتميز في أسلوبه بمنزعه في العراوحة بين
المعاني الشعرية والمعاني الخطابية على نحو ما سبق إن أشيرنا إليه. كما تميز
في نظمه بمنزعه في تأويل قصود قصائده بالاستدلالات الخطابية التي تأتي
تحت الفصل صورياً إنشائية لمعانيه المخفية أساساً أول الفصل (3).

(1) : حازم ياتي بصور حازم للأسلوب والنظم. والمنحى وليس في الشعر.



فكذلك استصاع أبو الحسن حازم القرطاجني في إطار هذا التفسير
 الرباعي لكتابه «منهاج البغاة» ومراج الأديباء: القائف، معان، بيان نبتة،
 أسدوب، وناسياً على معانيات فلسفة أرسطو طالمية في أساسها ومن
 خلال مصطلحات قبة خاصة⁽¹⁾، أن يفوق - ابتداءً - في نظريته - بعد أن ينفذ
 لقد بالفلسفة - بين فن الشعر وفن الخطابة ويتنصر لعنصر التحليل في العمل
 الشعري ويجهز للشاعر - على طريقة أبي الطيب المعتزلي - أن يلجأ كعنصر
 ثانوي للإقناع، ويحدد على هذا الأساس موقع الأندويل الشعرية من الصدق
 والكذب وهي قضية طالما شغلت تفادنا العرب. ويحدد أيضاً بشكل جلي
 وواضح ماذا يعني بالمعاني الشعرية، ويضع تصوراً في البنية التركيبية للعمل
 الشعري مفضلاً القول - أولاً - في المراد بالصناعة النقدية، ومفرداً - ثانياً -
 بين ما هو فصل وما هو بيت في إطار التقصيلة العربية؛ ثم مجزأ بين نظم
 والأسلوب في الأعمال الشعرية - فالنظم يكون لي بناء هذه الأعمال بالالفاظ
 والأوزان، والأسلوب يكون في اتجاه أغراض هذه الأعمال ومناحي الشعر،
 في معانيها لذلك تعاليز هؤلاء الشعراء وتفاصيلها بمنزلة نظمهم ونماذجهم
 الأسلوبية.

لقد وضع القرطاجني هذه المخطوط العريضة لنظريته من خلال تحليلات
 دقيقة ووقفات طويلة عند كل صغيرة وكبيرة من قضايا الشعر والبلاغة والتقدم
 كما هي في التراث العربي السابق له، وأعاد النظر من خلالها في كل شيء
 تقريباً. وكان هدفه واضحاً وهو تجاوز العاصي في محاولة منه للإطلاق إلى
 أفق مستقلة يقول: «لقد سئمت من اتكلم في جميع ذلك مسكاً لم
 يسلكه أحد قبلي من أرباب هذه الصناعة لصعوبة مراده وتوخر سبيل التوصل
 إليه. هذا على أنه روح الصناعة وعمدة البلاغة... فإني رأيت الناس لم

(1) لقد طست بنحوي، فذاهب هذه المصطلحات العجبة ولحق الحاضرة التي جاءت في

كتاب، مثل المرجع المشار إليه بهذا الخصوص

يتكلموا إلا في بعض ظواهر ما تضمنت عليه تلك الصناعة [تجاوزت أن تلك الظواهر] - بعد التكلم في جمل مقبولة مما تعلق بها - إلى التكلم في كثير من غيرها هذه الصناعة ودقائقها⁽¹⁾.

كان حازم - بحق - مجدداً حتى في الصورة الشكلية التي قدم فيها مؤلفه السعير بأقسامه ومناهجه ومعالجه ومعارفه وإضاءاته وتويراته ومآله⁽²⁾ وهو بكل ذلك - في القرن الثالث عشر الميلادي - وفي مجال تخصصه - كان يبشر بولادة عالم جديد. لقد بشر بذلك نيله ابن رشد (ت 1198 م) الذي أراد بتفسيه أن تعلق من عقالها كما بشر بذلك من بعده ابن خلدون (ت 1406 م) الذي أراد لتاريخ والمجتمع أن ينبثق. ولقد ولد بعضهم وتصل أمثالهم هذا العالم الجديد ولكن ولادته جاءت من وراء بلاء الأندلس.

(1) انظر السعير ص 16 - 16 نوري

(2) أبواب حازم كتابه بهذه المصطلحات حسب الترتيب: أقسام بعض أجزاء منابع بعض نصوص معالم أو معارف بمعنى مباحث داخل النصوص، إضاءات أو تويرات، بمعنى نقاط داخل المباحث.

عرض الكتب

بطلب

د. محمد نعيم

كلية الآداب والتربية

جامعة قازوينس

بنغازي

عرض الكتب

د. محمد دغيم

1 - الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة.

تأليف محمد بن أبي بكر بن عبدالله بن موسى الأنصاري التميمي الشهير بالبري. جزآن تحقيق د. محمد التونجي (جزء الرياض 1983).

هذا كتاب له قصة ينبغي أن يعرفها القارئ، وقد غاب عن المحقق أن يذورها في مقدمته ربما لعدم إلمامه بها، فهذا الكتاب نسخة خطية نادرة لا يعرف لها ثاب في المكتبات العامة أو الخاصة حتى الآن، وكانت هذه النسخة في حوزة السيد محمد بن علي الموسوي كما يدل الخاتم الخاص به في أولها وآخرها، وكانت محفوظة لي مكتبة الجليلي ثم أحضرت إلى مدينة بغداد مع بقية الكتب والمخطوطات التي أحضرتها السلطات الإيطالية بعد أن استولت على واحة الكوفة سنة 1929 وسرقت هذه النسخة أن تنجو من الحريق الذي نتج عن أغلب كتب المكتبة التي نقلت إلى شرق أثناء الحرب العالمية الثانية وطمس فيها حريق هناك (انظر د. كريمة تطيب الأشهب عن تاريخ هذه المكتبة وما حل بها في كتابها: برقة العربية، ص 482 - 489 ط. القاهرة 1947م). وبعد انتهاء الحرب واستقرار الأمر نسبياً، نقلت مع غيرها من الكتب المخطوطة والمطبوعة إلى إدارة الأوقاف بمدينة

بنغازي، وقد اطلعت عليها سنة 1960 ثم نقلت هذه النسخة إلى مكتبة الجامعة الإسلامية بمدينة البيضاء غير أنها فقدت ثم وجدت مع شخص باعها إلى مكتبة الجامعة الليبية في بنغازي سنة 1970 م وضمت إلى قسم المخطوطات بالمكتبة وكانت سليمة غير أن الورقة الأولى التي تعمل عنوان الكتاب وجزءاً من مقدمة المؤلف قد ضاعت فجأة، وحفظت المخطوطة في مكتبة الجامعة تحت رقم 350.

ترجع أهمية هذه المخطوطة إلى أن مؤلفها أندلسي من القرن السابع للهجرة نجأ إلى جزيرة منورقة ليجأ في كنف أميرها العالم الشهير أبي عثمان سعيد بن حكيم القرشي الذي تولى كثيراً من علماء وشعراء وأعيان الأندلس الذين سقطت منهم لي أبي النصارى منذ الثلث الأول من القرن السابع للهجرة وأهمها فرطة ريسية وإطيلية ووجد هؤلاء الناحيون في كنف الأمير أبي عثمان سعيد بن حكيم الأمن والرعاية والتكريم كما وجد آخرون منهم في كنف أبي علي بن خلاص صاحب سبلة وهو أندلسي أيضاً وأبي زكريا الحفصي صاحب نولس الإكرام والاحتفاء ويريد من قيمة هذه السبلة أنها نموذج للتأليف المغربي والأندلسي في سيرة السيرة وتراجم الصحابة وإن كان المؤلف يعتمد على مصادر مشرقية إلا أنه يستعمل مصادر مفقودة عرفت في المغرب والأندلس واعتدت إليها أبي الفياح في المشرق العربي ولعلنا نغفر بها يوماً كلقي الضياء على كثير من أحداث التاريخ الإسلامي ونجلو بعض الفصوص التي يكتف كثيراً من جوانبه.

بدأ المحقق الدكتور محمد التونجي بشر قسم صغير من هذا الكتاب بعنوان «الجمهورية في نسب الإمام علي وآله» دمشق 1982 وهو عنوان من ابتداء المحقق إذ لم يفرد المؤلف باباً أو فصلاً بهذا العنوان كما يجب المؤلف في مقدمة هذا الجزء الصغير عن القاري، وكان المخطوط الأصلي ورقمه!! ثم أتبع الدكتور التونجي هذا الجزء الصغير بشر الكتاب كده في جزئين «الرياض» 1983 اعتماداً على هذه النسخة الوحيدة والمخطوطة

في مكتبة جامعة قاريوس، وقد أشار إلى أن هناك نسخة أخرى محفوظة في القاهرة وقد نسبها حاجي خليفة في كتبه اكتشاف الطنون إلى كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري العتوق سنة 577 هـ. ولكنه لم يتمكن من الاطلاع عليها للتأكد من نسبتها أو أنها نسخة ثانية لكتاب الجوهرة أو مختصر لها. أو أن الأمر لا يبدو مجرد التشابه في العنوان، وكان جنديراً بالمحقق أن يراج في طلب هذه النسخة القهربية للإفادة منها وإزالة أي لبس حول نسبتها.

هذه النسخة من «الجوهرة» المحفوظة بمكتبة جامعة قاريوس واحتفظها محضون في نشر الكتاب كتبها مؤلفها الشهير بالبري التلمساني وهو في السجن أمير كما يذكر ذلك في مقدمته للكتاب، وأهداها إلى الأمير أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي الذي عمل على إطلاق سراحه من الأسر، وقد فرغ من نسخها في الثامن من ذي الحجة سنة 645 هـ. تكن هناك تاريخاً آخر في الورقة نفسها في آخر المخطوط يذكر المؤلف بقوله «فرغ من تأليف المؤلف وفقه الله في صدر يوم الجمعة الخامس والعشرين لذي الحجة من سنة أربع وأربعين وستمائة بجزيرة سنورقة كلاًها الله وانحمد لله حمداً كثيراً وسلام على عباده الذين اصطفى» ولم يعلق المحقق على وجود هذين التاريخين في آخر ورقة من الكتاب بفصل بينهما عام هجري، وتفسيره لهذا أن الفرج من تأليف الكتاب كان في ذي الحجة سنة 644 هـ. وأن هذه النسخة المهداة إلى الأمير أبي عثمان سعيد بن حكم بخط المؤلف نفسه هي الورقة الثانية من المخطوط وهو ما يرد في الصفحات 13 - 18 من النسخة المطبوعة وقد أهداها سراحة بقوله «برسم خزانة الرئيس السيد الأكرم الواسع الأجدب الأجل الأجل أبي عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي أعلى الله يده ومقامه وأدام السعيدة أيامه بعنه وكرمه» والمؤلف إذ يهدي هذه نسخة يعلم أنها مقدمة إلى عائلته وشاعره جعل من سنورقة منتدى للعلماء والشعراء الذين كان يطارحهم الشعر ويقترح عليهم الموضوعات التي يهتمون فيها الشعر والموشحات وكان مكتبة كبرى حوت الكثير من نواتر الكتب

ودواوين الشعراء، وقد ألف ابن المراهب كتاباً بعنوان ازواج الفكر وجواهر
النفوس في ثلاثة أسفار دون فيه الكثير من أخبار أبي عثمان سعيد بن حكيم هذا
ومدح له الشعراء في مدحه وما نظموه بناء على اقتراحه وما نظمه هو أيضاً
شاركاً في هذه المشروعات وقد بقي من هذا الكتاب السفر الثالث فقط وهو
م محفوظ بمكتبة الأسكوريان بأسبانيا تحت رقم 520.

يدل المحقق الدكتور التونسي جهناً مشكوراً في تحقيق الكتاب رغم
كثرة المنقود من العبارات والكلمات التي لم يتمكن المحقق من إكمالها لعدم
وجود نسخة أخرى يرجع إليها تعينه على استكمال النقص ولعلنا نظفر يوماً ما
بنسخة أخرى سواء تلك التي أشار إليها حاجي خليفة وهي محفوظة بالقاهرة
أو نسخة أخرى في إحدى مدن المغرب خاصة وأن هذه النسخة المحققة بخط
أندلسي وربما نسخت عنها نسخ أخرى في حوزة من يهتمون بهذا التراث
ويحفظونه في مكتباتهم الخاصة التي يتوارثونها.

2 - مطبخ الأندلس ومسرح الناس في ملح أهل الأندلس.

لأبي نصر الفصح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي الشهير بنين
خاقان. دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة ط. بيروت 1983.

سبق أن نشر هذا الكتاب في مطبعة الحواري سنة 1302 هـ. بإمتياز
ثم نشر بالقاهرة سنة 1325 هـ. ثم كان هذا العمل الذي أعده المحقق
الاستاذ محمد شوابكة ويذكر أن هذا التحقيق والدراسة رسالة جمعية لنيل
درجة صمية بإشراف الدكتور عبد الكريم خبطة (رئيس مجمع اللغة العربية
الأردني) كما نمتدح ذلك من مقدمة المحقق.

قسم المحقق كتابه إلى قسمين تدور في الأول منهما فصليين أحدهما
خصصه للحديث عن الفصح بن خاقان (حياته: نقائمه، ... إلخ) والآخر
للحديث عن أدب ابن خاقان وشاغل العلي، وقد استغرق هذا القسم بفصليه

103 صفحات، ثم خصص القسم الثاني من الكتاب للحديث عن كتاب
 «مطلع الأنفس...» ونسخه المتناثرة في مكتبات العالم والمخطوطات التي
 عندها في النشر ثم نصر الكتاب محققاً تحقيقاً علمياً متميزاً، وذلك
 بإشهار من العدة: التراجم، الأعلام، الأماكن، القبائل، الأمم، والكتب
 الواردة في ثانيا الكتاب، وفهرست القوافي، ثم فهرست المصادر والمراجع.

وقد أسدى الباحث بعمله هذا خدمة جليلة للمهتمين بالدراسات
 الأنثوية وأكمل النقص الذي كانت تعاني منه الطبعتان السابقتان التي طبع
 على أولاهما قرن من الزمان وما يقرب من ذلك على ثانيتهما.

3- قلادة العقيد نبي محاسن الأمان

لأبي نصر الفتح بن خاقان تحقيق الدكتور حسين يوسف خربوش
 (أربعة أجزاء، ط: عمان 1988).

وهذا الكتاب يعتبر أهم كتب بن خاقان (ت 529 هـ) وقد نشر للمرة
 غير محققة في مصر سنة 1203 هـ ثم سنة 1320 هـ ونشر قبل ذلك في
 باريس سنة 1277 هـ (1860 م) في جزء واحد، وقد كنا نأمل وننتظر أن
 يقوم أحد المهتمين بالتراث الأنثوي بتحقيق هذا الكتاب القيم تحقيقاً علمياً
 ونشره لينتفع به دارس الأدب والتاريخ الأندلسيين، وقد قام بهذه المهمة
 الدكتور حسين خربوش من جامعة اليرموك بالأردن، فجميع النسخ المخطوطة
 المتاحة من الكتاب نشر على بعض النسخ القيمة النادرة وهي قربة العهد
 بحصر المؤلف وأهمها نسخ مشهد بإيران وأرياد والأسكوريانة.

ولم يطل المحقق في كتابة المقدمة واكتفى بترجمة مختصرة ولكنها
 وافية عن حياة المؤلف ومؤلفاته ثم وصف المخطوطات التي اعتمد عليها ثم
 أتى بنص الكتاب مشوياً شروط التحقيق العلمي من مقارنة للقراءات ورد
 النصوص إلى مظاهرها وتحقيق التراجم الواردة في الكتاب، وقد ذلل الكتاب

بالتفاهرس التي تعبر القاري، على الرجوع إلى ما يطلبه.

والكتاب في صورته المصححة التي أنجزها بقا الدكتور خريوش بعد فراغاً هائلاً ويعتبر إضافة قيمة إلى المكتبة الأندلسية شأنه في ذلك شأن الذخيرة لابن بسام والإحاطة لابن الخطيب ونزهة الطيب للعقري.

4 - مدينة بنغازي عبر التاريخ (2)

المدينة الباسطة تأليف محمد مصطفى بازامة بيروت 1994

هذا الكتاب يصدره المؤلف الأستاذ محمد بازامة باعتبار أنه الثاني في سلسلة تاريخ مدينة بنغازي بعد أن أصدر الأول سنة 1968 تحت عنوان «مدينة بنغازي عبر التاريخ» والمؤلف الذي عاش في مدينة بنغازي وأحبها وأخذ نفسه بالتقريب عن تاريخها في مختلف العصور مبدئياً بذلك خدمة جليلة لهذه المدينة وتاريخها. وكان كتابه الأول يؤرخ لمدينة بنغازي منذ أقدم العصور إلى بداية الاحتلال الإيطالي سنة 1911، أما هذا الكتاب الجديد «المدينة الباسطة» فيؤرخ لجهاد هذه المدينة، ووقوفها في وجه الاحتلال الإيطالي منذ أن رست بوارجه ونزلت قواته على شواطئ المدينة في أكتوبر 1911 إلى أن وقعت تركيا اتفاقية لوزان مع إيطاليا سنة 1912 وتنازلت عن ولايتها لليبيا ورغم ذلك لم يلق الليبيون السلاح وواصلوا جهادهم ضد الغزاة، وإن كانت مدينة بنغازي نفسها قد هيئت عليها قوات الاحتلال منذ البداية رغم الممارك الضاربة التي خاضها سكان المدينة ومن أميل لتجدتهم من الدواخل ثم انتقل المقاومة إلى خارج المدينة ممثلة في الأفران التي ضمت متطوعين من البدو والحضر تحت قيادة منطقة شارك فيها ضباط من بينهم أراك وعرب وليبيون.

والمؤلف في كتابه هذا يؤرخ لجهاد المدينة ويسألها معتمداً على ما وصل إليه من روايات شعبية لتأقلمها الناس جيلاً بعد جيل أو سمعها من

بعض من شاركوا بأنفسهم في الصراع وأدركهم المؤلف، أو سمعها من أقرانهم رجالاً ونساء، كما اعتمد على التقارير والوثائق الإيطالية التي أتبع له إن يطاع عليها بعد إقامته في إيطاليا في السنوات الأخيرة وإجادته للغة الإيطالية.

ورغم فائدة الكتاب وقيمته التاريخية إلا أننا نلاحظ أن المؤلف لم يهجم ما تعارف عليه المؤرخون من توثيق للمعلومات بل يستطرد في الكتابة دون أن يشير إلى مصدر المعلومات وقد يستغرق من ذلك صفحات عدة، كما لم يستعمل المؤلف الوثائق العثمانية الخاصة بهذه الفترة وهي مهمة جداً كما أهمل المؤلف أن يدلل كتابه بقهرمست للمصادر والمراجع التي استخدمها أو اطلع عليها وإن كان قد أشار إلى بعضها في حواشي الكتاب، كما أهمل وهو يؤرخ لجهاد وسفالة مدينة بنغازي في هذه الفترة العصيبة أن يذكر أسماء المجاهدين أو قادتهم المحطين ومن سقط من شهداء منذ يوم جليانة الشهير وقد لفت النيران ذكرهم وأسفل التاريخ ستاراً على بطولاتهم.

كما نلاحظ أن المؤلف حاول (ص 86 - 87) أن يجعل أنور باشا (التركي) وعزيز المصري (العربي) ضابطين متناحسين يتحلان الصراع العربي بين العرب والأتراك منبهاً أنور باشا بالتحصب التركي وكيف أن أجداد توري (بك) قد أساء معاملة العرب في بلاد الشام وأن أنور باشا في مذكراته أكد أنه المسؤول الأول وغير خاضع لقيادة عزيز المصري أي أنه غير خاضع للقيادة ضابط عربي، والواقع أن أنور باشا كان قائد (النور) في منطقة درنة وكان على صلة بالعبد أحمد الشريف في حين كان عزيز المصري قائداً لدور بنينة والضابطان كلاهما مبعوثان من الدولة العثمانية، ولا يزال الناس يذكرون بغير وامتنان أنور باشا وموقفه من المجاهدين ويتمادون عزيز المصري في أواخر أيامه إذ سحب قواته من المنطقة الشرقية وحدث صدام مسلح بين وبين المجاهدين قبل تطاعته نهائياً.

5 - تاريخ برقة في العهد العثماني . -

(3 أجزاء) تأليف محمد مصطفى بازامة بيروت 1994.

هذا كتاب قيم ألفه الأستاذ محمد بازامة في ثلاثة أجزاء عن تاريخ برقة الحديث منذ سنة 1630 م إلى سنة 1912 وقد شملت الدراسة العهد العثماني الأول ثم العهد القره مانلي ثم العهد العثماني الثاني إلى أن تنازلت الدولة العثمانية عن ولاية ليبيا في معاهدة لوزان 1912 لإيطالي التي احتلت ليبيا سنة 1911 وبذلك انتهت السيادة الشرعية للدولة العثمانية على ليبيا منذ اتفاقية لوزان 1912 م .

وقد خصص المؤلف كل فترة بجزء من كتابه هذا فكان الجزء الأول عاماً بالعهد العثماني الأول والجزء الثاني خاصة بالعهد القره مانلي والجزء الثالث خاصة بالعهد العثماني الثاني.

والأستاذ محمد بازامة قد صرف اهتمامه منذ عدة عقود للتحقيق عن تاريخ ليبيا وخاصة الجزء الشرقي منها، وساعدته إجادته للغة الإيطالية على الأسراع على كثير من المؤلفات والدراسات التي كتبت عن ليبيا في عصورها المختلفة، كما نشر كثيراً من البحوث والدراسات التاريخية حول ليبيا، ونشرت دراساته من حيث العمق والجودة والشمول، ولعل هذا الكتاب الذي بين أيدينا عن تاريخ برقة في العهد العثماني أهم ما كتبه المؤلف حتى الآن وهو بهذا العمل الموسوعي يسد فراغاً عن هذه الحظية من تاريخ برقة امتدت من سنة 1630 م إلى 1912 م وقد تشعبت الموضوعات التي تناولها الباحث في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة مما جعله كثير الاستيراد جامعاً في بحثه بين ما استخلصه من الوثائق التي تمكن من الحصول عليها في تصورها الأصلية أو مترجمة زبير ما سمعه من روايات شعبية تناقلها الناس جيلاً بعد جيل وإن كان على المؤرخ أن يحفظ ويحفظ ويحفظها بدقة حتى لا تؤخذ على أنه قضايا مسلمة تنسب عليها أحكام تاريخية أو استنتاجات جامحة.

والكتاب موسوعة قيمة يشكر مؤلفه على جهده المضي في تأليفه
وجمع مدونه، غير أن هذا الإطار وإنشاء لا يحولان دون إبداء بعض
الملاحظات حول ما ورد فيه؛ وأهم هذه الملاحظات:

1 - يختلف منهج المؤلف في كتابه فأحياناً يفرز موضوعات معينة
لدراسة وأحياناً يجعل السنوات حسب ترتيبها الزمني مادة لبحثه في شبه ما
يعرف بالتحليلات التاريخية، وقد طرق موضوعات متشعبة يصلح كثير منها لأن
يكون منطلقاً لدراسات أخرى منفصلة في صورة كتب أو رسائل جامعية لنيل
درجات علمية عليا.

2 - اعتمد على تقرير نائب القنصل فرنسا في بنغازي اعتماداً كلياً
ونسنوات طويلة تعرضي لها وأعمل ما كان يكتبه نائب قنصل الدول الأخرى
وخاصة الإنجليز، ونحن نعلم مدى التنافس الذي كان يستعر بين إنكلترا
وفرنسا في تلك الفترة، وما كان من تدخل ومؤامرات القنصل الإنجليزي في
ضرابيس واسمه واريجتوك الذي أقام رئاسة طويلة وما كان له من نفوذ واسع
خلال العهد التركي المباني، كما أغفل المؤلف كثيراً الوثائق العثمانية
المحفوظة في إسطنبول وتقارير المجالس الإدارية العثمانية لتصرفيه بنغازي
مبوه كانت تسعة ثلوثي في طرابلس أو تبعية للاستشارة مباشرة، ومن هذه
التقارير ما هو محفوظ في دار المحفوظات بضرابيس وقد استعمل المؤلف
بعض هذه التقارير المحفوظة بضرابيس بصفة منتزعة وذكر من أخصاء مجالس
الإدارة بعضهم فقط وإن لم يحقق بعض أسماء أعضائها التي ذكرت بإحصاء
مثل الحاج ميلاد (هو ميلاد غوقة) وشمس الدين (شمس الدين بن زويت دغيم)
وأمين بن شتيري (من عائلة الأدهم) وعقيلة خرومة (الصحيح غوقة) ومن
بين الذين تولوا عضوية مجلس إدارة الولاية أو التصريفية، بن جوار من عدم
يعلمك منحهم مثل التوحي عثمان بن والفتي أو القاضي وأمين هناك
مسؤول الأمن وكتب السجلات. كان الأعيان ومنهم:

عبدالله منبقة، ريث دغيم، مهدي زيوي، سالم دغيم، أحمد بن زيلج، محمد بن زيلج، أحمد جبروع محمد ومضان الأدغم (الكبخيا). وكان التعثيل في مجلس الإدارة يتم على أساس نيل أو التكتلات الفعلية التي عرفتها مدينة بنغازي متعثلة في المذكوران (أو التكتلات والحاضنة، وفي خارجها على أساس انبثاق الكبرى متعثلة في زعمائها من شيوخ القبائل، وإن لم يكن لهؤلاء تعثيل واضح في مجلس إدارة العتصيرية.

4- لم يأت المؤلف على التقييم الإداري الذي حدث إبان العهد القرطبي مانفي تم العهد العثماني الثاني بعد أن قسمت الأمانة (أو العتصيرية) إلى قاطعيات ومديريات وقد تولى هذه المنصب (ووفق ذكر المؤلف بعضهم) أبو بكر حدوت (القمامية المراهضة، والدرمة، ونعيشات) وكان معروفاً في القيش) وعلي الأفيوش (سوت) وسالم دغيم (القمامية لعواقير) ومحمد رمضان الكبخيا (المرج) ومنصور الكبخيا (طريق ثم درمة) ومهدي الكبخيا (نعيش ثم أوجلة) كما كانت جالو وأرجلة مديرية وقد تولاهما في فترة ما عهد منصور الكبخيا قبل أن ينتخب عضواً في البرلمان التونسي (المسعودان) عن مدينة بنغازي.

5- لم يركز المؤلف على منصب شيخ بلدة (جماعة البلدية) ومهامها لشدة بعثري في العهد العثماني الذي وكان من أهم المنصب وقد تولاهما في فترات متعاقبة: عبدالرحمن منبقة، إبراهيم منبقة، سالم دغيم، أحمد المهدي، سليمان منبقة، منصور الكبخيا، محمد سعد الجهاني (وكان آخر عميد بلدية ولم تطل مدته إذ احتل الإيطاليون ليبيا سنة 1911). كما أحفل ذكر البلديات الأخرى ومن تولاهما مثل بلدية درنة.

6- وقع المؤلف في بعض الأخطاء من حيث أسماء بعض الأعلام والأعيان الذين ذكروهم والأحداث المتصلة بهم فهو يذكر أن أبا بكر حدوت زعيم المراهضة في العهد العثماني الثاني والذي اعتقل ثم أحرر عليه برتبة

زيورباشي سنة 1843م وعين قائماً في القنصل، أنه توفي سنة 1877 في مدينة بنغازي ودفن في مقبرة سيدي حسين، والحقيقة أنه توفي سنة 1870 في مدينة بنغازي والذي توفي سنة 1877 هو علي نصير زعيم قبيلة المغاربة ومدير منطقة سرت لفترة طويلة.

كذلك يذكر ص 162 أن أهم شخصيتين في مدينة بنغازي وفق تقرير نائب القنصل الفرنسي بتاريخ «28/11/1861م» هما الكيخيا والمهدوي، ورجح المؤلف أن المهدوي هو مير والد صالح المهدوي والحقيقة أن والد صالح المهدوي هو علي زعاب المهدوي وأن (مير) هو جزء من اسم صالح إذ اسمه مركب «صالح مير» الذي توفي سنة 1934م ورثه أحمد رفيق مهدوي بفضيلة معلمها «الدبران» الفترة الأولى من 91 والثانية من 23.

حياتك للقيام بالمنجد أعمال ومونك ماتت فيه الناس آسأل
وذكر فيه اسمه المركب:

رقم لك رأي في الملمات «صالح» «مير» لمعقود المسائل خلال

وأن المهدوي الذي يشير إليه نائب القنصل في تقريره هو الحاج أحمد محمد المهدوي الذي تولى قيادة بلدية بنغازي وذكره الحاشي في رحله (ص 96) على أنه شيخ بلد (عميد البلدية) وكان قد كلفه باي تونس برعاية شؤون الجالية التونسية في بنغازي سنة 1252 هـ (1873 م) كما نلتنا على ذلك مراسلاته مع الوزير (خير الدين باشا) بتونس (نظر: أفاق رونانق من تاريخ ليبيا الحديث ص 141) وما بعدها تأليف حمار حميد ص 199 م) والمهدوي هذا كان من كبار تجار بلدية بنغازي كما كان عضواً بمجلس إدارة متصرفية بنغازي، أما الكيخيا فهو محمد بن رمضان الأدهم وهو أول من سمي (كاهنة) بحكم وظيفته وأصبح لقب الأسرة بعد ذلك الكيخيا. وكان عضواً في مجلس إدارة متصرفية بنغازي وولته رمضان الأدهم كان قاد

عقباً عند الإطارة التركية سنة (1831) ونوفي سنة (1832) وقد ورد
 رمضان هذا إلى بنغازي من مدينة مصراته وأصبح زعيماً لبعضرائين في
 بنغازي كما يقول الأب فرانسكو زوفيري في الحوادث البرقارية كذلك بن
 الأستاذ بارعة (جز 3 ص 400) أن أسعد بك هو والد علي أسعد الجري
 وأخيه سليمان، وتحقيقاً أن علي أسعد الجري اسمه مركب فهو علي أسعد
 أما والده فهو يرانيم الجري من سكان مدينة درنة وأبناؤه هم (علي أسعد)
 وعثمان وسليمان ونوفين، وقد ولي علي أسعد وسليمان مناصب وزارية
 وعدة معارف بعد سنة (1952).

ذكر المؤلف أيضاً (جز 3 ص 465) أن عضو المبعوثان (البرلمان
 العثماني) مع عمر منصور الكيخيا عن مدينة بنغازي هو منصور بن شواك
 والواقع أنه يوسف بن أحمد بن شواك وقد صالر مع والده عندما كان طفلاً
 إلى لسطبول حيث عمل والده أحمد بن شواك بتدريس اللغة العربية وعند
 يوسف وتعلم في تركيا وأقام هناك ثم عاد إلى مدينة بنغازي وأخبر عضواً
 لبعثها في مجلس المبعوثان النظر تفاصيل ذلك في مذكرة قدمت عمر منصور
 الكيخيا إلى وزارة المستعربات الإيطالية نشرت في مجموعة الوثائق التي
 أصدرها مركز جهاد ليبيا (المجموعة الثانية عشرة سنة 1993).

أورد المؤلف أيضاً (جز 3 ص 441) عن الحاج مصطفى أرغص
 الأدهم أنه أورد ابن أخيه الحاج رشيد الكيخيا معظم ثروته وحرم به منها
 نفسه عليه والتحقيق أن الحاج مصطفى أرغص لم تكن له ذرية على
 الإطلاق ورغم زواجه عدة مرات وقد عاش دخل ليبيا وخارجها وتوفي سن
 (1943) بقرية الشواشة ودفن بها، وقد أورد ابن أخيه جن ثورته في وثقه
 ولم تكن له أبناء وثورته.

7 - احمد المؤلف على الحوادث البرقارية مؤلفها الأب فرانسكو
 زوفيري 1951-1954 P. Francesco Zovieri: *Contestazioni Della Cirenaica* 1951-1954
 (Benghazi 1961).

في ذكر المساجد والزوايا التي أنشئت في بركة وخاصة في مدينة بنغازي والأسر أو الأفراد الذين أنشأوها وسنوات إنشائها دون الإشارة إلى هذا الكتاب ودون أن يضيف معلومات أخرى لم تكتمل عند لآب روفزي وكان سرياً بالامتياز بإقامة أن يسد هذه الثغرات وهي تفرغ لجانب من الامتداد العمراني لآيالة بركة ومدنها.

8- استخدم المؤلف مصطلح الأهمالي والكراخنة على أنهما كتلتان مناستان على السلطة والزعامة في مدينة بنغازي، والواقع أن هذه التسمية (الكراخنة والأهمالي) كانت معروفة في مدينة مصراته أما في مدينة بنغازي فكانت هناك كتلتان إحداهما تسمى الذكيران (أو التكريان) وتضم قبائل الشويخات (ومعهم ررقلة) وبلالة والعقيب وسور جابر ويتزعم هذه المجموعة دغيم والكتلة الثانية وهي الحماطية وتضم القبائل: يدر وعصر حمت والكرافي وزمودة وقزير وخدام الزروق ويتزعمها فكرون ثم انضم الكراخنة إلى الذكيران إلى أن استقنوا بعد ذلك وانضممت إليهم قبيلة يدر وأصبحوا كتلة ثالثة مستقلة وحصار يتزعمهم (الكيجيا) ومن أهميتهم أسرنا المحيشي وجمودة. وكان التنافس بين هذه الكتل على المنصب وخاصة على عمادة بلدية بنغازي وعلى عضوية مجالس إدارة المصرفية والتأمينيات والمديريات ولم تكن كما ظن الأستاذ محمد بازامة أنه صراع سياسي يمثل أحد العريضين المرحلة القومية العربية وبداش القرن الأخير الرابطة العثمانية أو الاتحاد الإسلامي، وأن سليمان قرين قد اضطلع ونفي لأنه بدأ الاتحاد القومي، وهذا افتراض غير سليم إذ أن سليمان قرين كان قاضياً شرعياً لمدينة بنغازي وهو شيخ قبيلة لالة ويحكم منصبه كقاض شرعي كان عضواً في مجلس إدارة المصرفية وقد كان جنه عبد الرحمن قرين أيضاً قاضياً وعضواً في مجلس الإدارة في فترة صيغة ولكن الذي اشتهر هو سليمان قرين وقد حدث سوء تفاهم بينه وبين الباشا (المصرف) التركي ونفي هو إلى إحدى الوحات كما نفي سالم دغيم شريكه في الموقف المعادي للمصرف إلى واحدة أو جله ثم سافر مرة

في وقت لاحق إلى الأستاذة حيث قدما مذكرة إلى السلطان عبد الحميد الذي
 أكرمهما وألعم عليهما بأربعة وعشرين متصرفاً تركيا آخر بدلاً من السابق الذي
 استقدم إلى الأستاذ وقد سمعت هذه التفاصيل من معاصرين لهذه الحادثة
 عند سنة طويلة ولم يكن سليمان تريبل يتزعم حزباً سياسياً كما ذهب الأستاذ
 بإزاحة إلى ذلك ولم يكن الوعي السياسي في تلك الفترة على الصورة التي
 رصعها المؤلف، كما لم يكن الكرامنة يشعرون حزباً سياسياً موالياً للحكومة
 والأهالي يتناولون حزباً سياسياً سماه المؤلف حزب المعارضة وقد كانت
 الكتلان في الحسابات المختلفة معشنيين في زعمائهما نشادان المناسبات
 الإدارية ويحضون بالأعمال السطوية .

9- كان بوندو لو أن لباحث ذليل كتابه القيم هذا بفهارس تفصيلية
 لأسماء الأعلام والأماكن والقبائل وغيرها مما يسر للباحث الرجوع إلى ما
 يشغله في سهولة ويسر.

وبعد فإن هذه الملاحظات التي أديناها لا نسيء إلى هذا الكتاب ولا
 نقلل من قيمته وسيظل مرجعاً لا غنى لباحث عنه في تاريخ برقة في العهد
 العثماني بقراءته المختلفة كما سيكون من موضوعاته التي طرفها مطلق
 لبحوث أخرى نحن في حاجة إليها .

